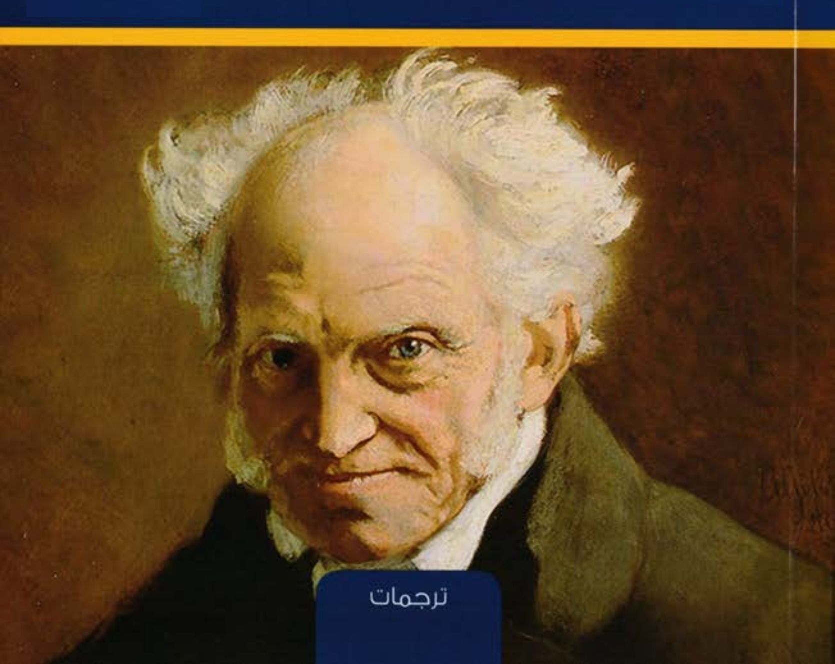
أرتور شوبنهاور

فن العيش الحكيم

تأملات في الحياة والناس

ترجمة: عبد الله زارو



ترجمات

فن العيش الحكيم

تأملات في الحياة والناس

فن العيش الحكيم

تأملات في الحياة والناس

أرتور شوبنهاور

ترجمة: عبد الله زارو





منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

المحتويات

مقدمة 7

الفصل الأول: تقسيم أساسي...................................... 13

الفصل الثاني: سؤال الكينونة أو ما نحن إياه........................ 27

الفصل الثالث: سؤال الحيازة أو ما لنا................................. 31

الفصل الرابع: سؤال التمثلات أو ماذا نُمثل في أعين الآخرين وموازينهم؟..... 73

الفصل الخامس: حقائق عامة وتوجيهات أخلاقية........................ 155

1- حقائق عامة 158

2- في معاملة النفس 172

3- في معاملة الغير 220

4- بشأن التعامل مع مجريات الحياة وتصاريف الدهر والأقدار والمصير 259

الفصل السادس: بصدد الفوارق بين الأعمار 277

هوامش وإحالات 315

مقدمة

يسعى "فن العيش الحكيم" للفيلسوف الألماني أرتور شوبنهاور (186/1788) جاهدا للإجابة عن السؤال الأخلاقي العابر للأزمنة والأمكنة:

هل بمقدور الفلسفة تقديم إجابات مُرضية عن فن عيش حكيم ممكن؟

وللتذكير، فالمبحث الأخلاقي هو من المباحث المعروفة المتفرعة في تاريخ الفلسفة عما أسماه فلاسفة كثر "الحكمة العملية"، والذي يتمحور حول السؤال الآتي:

كيف يجب أن نتصرف على ضوء العقل؟

في الوقت الذي تنصرف فيه الحكمة النظرية لتقديم إجابات عن أسئلة، من قبيل لماذا أفكر؟ كيف أفكر؟ وما حدود التفكير عموما؟

وشوبنهاور في مسعاه هذا لم يقطع الصلة مع الموروث الفلسفي الثر في هذا الباب، بل آثر أن يكون امتدادا له، وهو ما برهن عليه من خلال إعادة طرحه وصوغه لأسئلته المركزية وارتكازه على أجوبته الكبرى، والتي لا يتردد في تطعيمها بإحالات على الشعر والرواية والحِكم المأثورة هنا وهناك، فضلا عن معطيات منتقاة بعناية من السجل العلمي بمختلف انشغالاته.

لذلك تجده يفتتح الكتاب الذي بين يديك بتقسيم كلاسيكي أبيقوري للحاجيات يميز بين أنواع ثلاثة منها: حاجيات طبيعية وضرورية (الأكل والشرب)، وحاجيات طبيعية غير ضرورية (الجنس)، وحاجيات غير طبيعية وغير ضرورية (الكماليات، بما فيها الكماليات المعنوية، كالمجد والشهرة والجاه والنسب والحسب). ويمكن اعتبار التقسيم إياه بمثابة حجر الزاوية لمجمل رؤاه الفلسفية في الكتاب بين يديك.

نعم، فقد أعلن انحيازه من البداية إلى الرأي الأبيقوري الزاهد حين أعلن بأنه يتعين على الحكيم أن يقنع بترضية النوع الأول من الحاجيات ويزهد، عن اقتناع كامل، في الأخريات.

في الفصل الثاني، يطرح السؤال الكبير للكينونة أو ما نحن إياه معتبرا أن الحكمة تقضي أن يُولي صاحبها، المتشيع لها والمتشبع بها لِما هو إياه فعلا أهمية مطلقة مقابل عدم اكتراثه بِما لديه والذي يخوض في تفصيلاته بسؤال الحيازة (الفصل الثالث).

فما يكونه المرء في ذاته يكون دائما لذاته بينما ما يكونه باعتماده على الغير لا يكون له أبدا ولو كان له عرَضا.

وهنا نستشف مرة أخرى تأثره الكبير بالموروث الفلسفي الأخلاقي من خلال إسهامه الرواقي صنو مثيله الأبيقوري.

في الفصل الرابع، يثير سؤال التمثلات أو القيمة المفترضة لِما يُمثله المرء في أعين غيره وفي موازينه.

لا يتردد فيلسوفنا في الإجابة عنه وفي انسجام مع مقدماته بقوله إن الحكيم الألمعي ليس له أن يهتم بالمرة بِما يمثله في أعين الآخرين طالما أنه واثق بِما هو إياه بالفعل. زد على ذلك أن آراء هؤلاء هي

من التقلب والتلون، بإيعاز من أهوائهم ونزواهم ومصالحهم الصغيرة، ما يجعلها لا تستحق منه التفاتة، ناهيك عن اهتمام زائد عن الحد. ولوحظ أن شوبنهاور قام بجهد نوعي في هذا الفصل بغية تعزيز طروحاته من خلال نبش جينيالوجي/أكسيولوجي في العديد من المقولات الأخلاقية التي يتحرك هذا المجال بتأثير وازن منها. يتعلق الأمر بشيم من قبيل الكبرياء والغرور والمجد والجاه والشرف بأنواعه، والشتيمة والإهانة والتكريس والشهرة وما إلى ذلك.

إلى هذا الحد يبدو الكاتب وقد عرض الأساسي في أطروحته الأخلاقية قبل تعريجه على امتداداها الأوديمونولوجية، أي ذات الصلة المباشرة بمبحث السعادة في الفلسفة.

وانطلاقا من الفصل الموالي عن "الحقائق العامة" نجده يفصل القول في تصوره العام لماهية السعادة، أو بالأحرى لحياة خالية إلى أقصى حد من الألم طالما أن المتع تغدو في أحايين كثيرة مصدرا متواترا للشقاوة لا للسعادة كما يتوهم كثيرون.

في فقرة فرعية عن "معاملة النفس"، حاول بسط هذا التصور العام من زاوية علاقة المرء بذاته أولا. وفي هذا الصدد اعتبر أن السعادة الفردية، بالمعنى الذي سلف، (الصحة وراحة البال) مشروطة انشراطا كليا بمناقبية بعينها، وفي قلبها الشغف بالعزلة ورديفه التوجس من المخالطة والذي يتواتر ذكره والإعلاء من شأنه في خطاب شوبنهاور.

أما في "شق معاملة الغير"، فقد جنح إلى التركيز على مناقبية تكميلية، من قبيل وجوب الحذر الدائم، والحِلم بالناس، والنفور من كثرة المعاشرة بحسباها عناوين عريضة لسيرة متبصرة في التعامل مع عموم الناس والتي لم يسبق للتجارب الإنسانية أن دحضتها.

في الفقرة الموالية راح فيلسوفنا يتحرى أفضل السبل للتعامل مع مجريات الحياة وتصاريف الدهر كاشفا مرة أخرى عن قناعاته الرواقية الراسخة وهواه البوذي الذي لا تخطئه عين.

لذلك، فمن البديهي تماما أن تجده داعية للإذعان للأقدار ومشيئتها النافذة، أي لِما لا قِبل للمرء به، لكل ما يتجاوزه، وعدم استعجاله لأيّ شيء لا يأتي في أوانه الطبيعي وبطريقة عفوية، من قبيل الصحة والثروة والمجد والجاه.. هذا فضلا عن وجوب الاحتكام في كل القرارات التي يتخذها المرء والمشاريع التي يعتزم تنفيذها إلى صوت العقل ومعادلاته الدقيقة بدل الانسياق وراء الأهواء والإستيهامات والنزوات والأحلام الجانحة الجامحة، المضلّلة والمشوّشة..

أما في الفصل الأخير بعنوان "بصدد الفوارق بين الأعمار" فقد جعل بوصلته قولة فولتير الشهيرة "من لا يملك روح عمره فحياته كلها شقاء". هنا ما فتئ الفيلسوف/المربي ينصح المتألقين ذهنيا والألمعيين من غير العامة والدهماء بإعطاء كل "فترة عمرية" ما تستحقه من حاجيات واهتمامات نوعية تماشيا مع مشيئة الطبيعة التي لارادّ لها.

فقد قضت، وليس لمعترض أن يعترض إلا إذا كان غرا، بأن يختص كل عقد (عشرية عمرية)، على امتداد المسار الحياتي الفردي، بسماتٍ ما على الحكيم إلا أن ينقاد لها في سلاسة ودونما تأفف منذ عشر سنوات الأولى حتى الشيخوخة المنطلقة في ستينيات العمر. فكل فترة من هذه الفترات يكون المرء فيها منقادا للتصرف وفق خصوصيات عمرية تتجاوزه.

ولعل الطريف في هذا الإنسجام والتطابق أنه لا تبرره دواعي نفسية واجتماعية فحسب، بل واعتبارات ذات صلة بعلم الأبراج

أيضا. هذه التي ينصرف شوبنهاور إلى قراءتها بِما يتماشي مع تصوره العام لتعاقب الأعمار في الشخص الواحد من عشرية لأخرى.

نقدّر، من جهتنا، أن "فن العيش الحكيم: تأملات في الحياة والناس" وصفة فلسفية دسمة عابرة للأزمنة والأمكنة لفن عيش ممكن عماده الحكمة ومرشده البصيرة المازجة بين معارف وتجارب وخبرات وحدوس أيضا. وهو، بهذا المعنى، دائم الراهنية. زد على ذلك أنه يجمع، وبالقدر نفسه، بين البساطة والوضوح من جهة، والعمق والدقة من جهة ثانية.

لعله تبسيط موفق للإسهام الشوبنهاوري المعروف "العالم بِما هو تمثل وإرادة" بحسب قراء عديدين للفكر الفلسفي. إذ يجد فيه المتخصص كما القارئ العادي ضالته متمثلة في وصفة آسرة لفن عيش حكيم عابر للزمان والمكان والإنسان، أو على الأقل هكذا يُفترض.

ولعله، بتقديرنا، برهان ساطع وحجة دامغة على ما سبق لفيلسوفنا أن قاله في معرض مقارنته اللطيفة بين نتاج **كانط** ونتاجه الشخصي. ننقل عنه ما يلي:

بينما يسعى **كانط** جاهدا للتعبير عن أشياء هذا العالم من خلال وسائط، أي عبر سبل ملتوية (المفاهيم، المقولات، الإستدلالات العقلية الصارمة..) أسعى، من جهتي، لنقله والتعبير عنه بطريقة مباشرة واعتمادا فقط على حدوسي الشخصية.(راجع بهذا الصدد، ر/سافرانسكي:**السنوات المجنونة للفلسفة**، المطبوعات الجامعية الفرنسية/PUF، باريس، 1990).

لاشك أنها قولة مُقارِنة لبيبة تلخّص الإضافة النوعية للكتاب المترجم بين يديك مثلما تعزز قولنا براهنيته الدائمة.

الفصل الأول

تقسيم أساسي

قسَّم **أرسطو** الخيرات في حياة الناس إلى ثلاثة أنواع: خيراتٌ مادية، خيرات معنوية وخيرات بدنية. أعتقد، استنادا إلى هذا التقسيم الثلاثي، بأن الحياة البشرية محكومة عموما بثلاثة شروط، وهي:

- الكينونة، أي ***ما نحن إياه***، ولها صلة بشخصية الإنسان بمعناها الشامل، وتشمل الصحة والقوة والجمال والمزاج والطبع الأخلاقي والذكاء.
- الحيازة، أي ***ما عندنا***، أو ما نملكه من أشياء.
- التمثّلات، أي ***ما نُمثّله في أعين الآخرين وموازينهم***، أو بالأحرى الطريقة التي يتمثلنا بها الآخرون، والدّالة على مدى تقديرهم لنا من عدمه وهو ما يتبين من خلال آرائهم التقديرية التي يُصنّفون الناس اعتمادا عليها والقائمة على معايير الشرف والمكانة والمجد.

والاختلافات الموجودة على المستوى الأول، تلك التي ستكون موضوع اهتمامنا في هذا الكتاب، هي الاختلافات الطبيعية نفسها بين الناس بصفتهم أفرادا. لذلك، نُقدِّر، منذ الآن، بأن تأثيرها على سعادة الإنسان أو تعاسته حاسمٌ لو قارنّاهُ بالقواعد العامة والتوجيهات الإجمالية التي هي من ***وضع*** الناس أنفسهم، والمُندرجة في المستويين الآخرين (الثاني والثالث).

فالمزايا الشخصية التي تشمل العقل الراجح والقلب الكبير شبيهة بالملوك الحقيقيين، بينما مثيلاتها ذات الصلة بالمقام أو النسب

(ولو كان ملكيا) والثروة وما شابه، أشبه ما تكون بالمُمثّلين لدور الملك على خشبة المسرح. ولقد سبق لـ **ميترودورس**، أول تلامذة **أبيقور**، أن عَنْوَن مقالة له كالآتي: ***في الأسباب الذاتية الصانعة لسعادتنا أكثر من الأسباب الموضوعية***، وهذا أمر مؤكد. فالأساسي في سعادة الفرد من عدمها هو، قطعا، ما يحدث بدواخله وما يعتمل في قرارة نفسه. فداخلَ هذا المدار الجواني، يتقرر ما ستكونه حساسيته وإرادته ونمط تفكيره، بينما كلٌ ما يقع خارجه، فتأثيره على هذه الأمور كلها تأثير عرَضي وغير مباشر. إن هذا المعطى الأساسي هو الذي يجعل الناس يتأثرون ***تأثيرات متباينة*** بالظروف نفسها والأحداث الخارجية عينها. فحتى إن جمعهم وسط واحد، فكل واحد منهم يعيش عالمه الخاص والمختلف. ويعود السبب في ذلك إلى أن كل فرد هو نتاج مباشر لمداركه وأحاسيسه وحركاته الإرادية. أما الأشياء الخارجية العارضة، فتأثيرُها عليه مشروط بأحواله الداخلية. إن العالم الخاص بكل واحد منا محكومٌ بطريقة إدراكه للأشياء، وهذه الطريقة تختلف من شخص لآخر باختلاف الذكاء، فالذكاء هو المسؤول عن ظهوره بمظهر المعوز أو التافه أو الغني أو صاحب شأن. فبَدَلَ أن يحسد أحدهم شخصا مولعا بالمغامرات المثيرة قيد حياته، كان عليه أن يغبطه عليها وعلى ما خصها به من اهتمام، وكذلك على قدرته في وصفها وصفا دقيقا. فالحدثُ نفسه الذي يوليه العقل الراجح أهمية خاصة، يمرُّ عليه العقل الصغير والسطحي مرَّ الكرام، ناظرا إليه بازدراء، معتبرا إياه من التوافه المكرورة في الحياة اليومية للناس. وهذا ما يتأكد من خلال أشعار باذخة لـ **غوته وبايرون** المستقاةِ موضوعاتها من معطيات

واقعية وراسخة. فلو أنشدها الأبله حقّ الإنشاد لحسد ناظمها على مغامراته الرائعة التي تحكيها، لكنه سيعجز كل العجز عن أن يحسده على سعة خياله الذي استطاع أن يُحوِّل حدثا عاديا إلى واقعة كبيرة وجميلة. بالمثل، فالسوداوي سينظر إلى مشهد محدد نظرة تراجيدية في الوقت الذي سيتبين فيه الدموي صراعا مهما لا غير، أما البارد الطبع فسيختزله في حدث تافه لا يستحق اهتماما ولا يثير انتباها، وهكذا دواليك.

والسبب في كل ذلك هو أن كل واقع، أي كل "حدث ناجز" يتشكل من شقين: الذات والموضوع اللذان يتساويان في الأهمية، ويمتزجان امتزاج الأوكسجين بالهيدروجين في الماء. فإذا كان الموضوعي مُطابقا دائما لذاته، فإن الذاتي مُباين ويأتي دوما على نحو مختلف، وطبيعي إذن أن يكون الواقع الذي يتمثّله مختلفا، وهذا ما يفسر اختلافه من فرد لآخر. فحتى لو تبدَّى الواقع في نصفه الموضوعي بأبهى وأجمل صورة، فإنه يغدو قبيحا وسمجا عندما تدركه ذاتية متبلدة وسطحية، فيصير بذلك أشبه بمنظر طبيعي جميل في وضع مناخي سيء أو مُشاهَد من غرفة قاتمة. وبعبارة أوضح، فكل واحد منا منغلق في وعيه الذاتي، كما هو ملفوف في أديمه، ولا يعيش على نحو مباشر إلا من داخله، وقلّما يرجو سندا أو نجاة أو خلاصا يأتيه من خارجه.

فعلى خشبة المسرح، يتقمص الأمراء والمستشارون والخدم والجند والجنرالات وغيرهم أدوارا مختلفة، غير أن هذا الاختلاف لا يطال إلا مظهرهم الخارجي، أما دواخلهم فتبقى على حالها بِما هي نواة كل شخص. يتعلق الأمر في الواقع بشخص واحد معجون من

عدة عناصر، أي أننا معشر البشر لسنا، بالمحصلة، سوى شخص هزلي مسكين من خلال كل همومه وصنوف بؤسه.

كذلك هو الأمر في الحياة الواقعية للناس، فالاختلافات بينهم في المكانة الاجتماعية والخيرات المادية تُوكِلُ لكل واحد منهم دورا محددا يلعبه، وهذا الدور لا صلة له إطلاقا بالاختلاف الجوهري والنوعي المحدِّد للسعادة من عدمها.

فبداخل كل هؤلاء الشخوص المُتقمِّصين لأدوارهم، يرقد شخص واحد يجتر همومه وصنوف بؤسه المتباينة بتباين أسبابها، إلا أنها متطابقة في جوهرها. صحيح أنهم يتفاوتون في المكانة الاجتماعية والوضع الاعتباري، إلا أنه تفاوت وتباين لا تفسره ظروفهم المعيشية ودرجة غناهم، أي لا يفسره الدور المنوط بهم والذي يجتهدون في تقمصه.

وعلى غرار كل ما هو حادث، فما يحدث في حيوات الناس لا يحدث ولا يوجد على نحو مباشر إلا في أوعائهم. فالأساسي هنا هو الوعي الذي يتوقف عليه كل ما عداه، بما في ذلك الصور التي يتمثّلونُها من خلاله. فكل مظاهر البهاء والجلال، وكل ألوان المتع والمباهج تبدو فقيرة وجوفاء عندما تنعكس في الوعي الموتور للأبله، وهي غيرها تماما في موازين **سيرفانتيس** لمَّا كان مستغرقا في تأليف كتابه ***دون كيخوطي*** داخل سجن مُزْرٍ. فالشق الموضوعي في الواقع يتحكم فيه الحظ والصدفة، لذلك فهو دائم التغير والتحول، بينما الشق الذاتي يتحكم فيه الإنسان فيظل ثابتا وجوهريا. وعليه، فحياةُ الناس، رغم ما يكتنفها من اختلافات ظاهرية وخارجية، تجمعها ماهية واحدة حتى أنها تبدو للناظر اللبيب كتنويعات مكرورة على

التيمة نفسها. فلا أحد قادر على الانسلاخ من ذاتيته سواء كان من جنس الإنسان أو جنس الحيوان. فالحيوان يظل مُراوحا للدائرة الضيقة التي حصرته فيها الطبيعة، مغلقا ومنغلقا فيها حتى النهاية أيًّا كانت الظروف والترتيبات الاصطناعية التي نحيطه بها. فمَهْما اجتهدنا لتوفير السعادة لحيوان نحبُّه، فلن ننجح إلا في حدود ضيقة جدا يُسيِّجها وعيه الخاص ونمط وجوده الأصلي. كذلك ذاتية الإنسان، فهي التي تُحدِّد، سلفا، حجم وطبيعة السعادة التي ستكون من نصيبه، كما أن محدودية قواه العقلية ستحسم في مدى قابليته لتذوُّق المتع الراقية. فإذا كانت القدرات العقلية للإنسان جد محدودة، فلن ينجح العالم كله وكل المجهودات الخارجية وأسباب الثراء في تمكينه من تذوق غير السعادة التي هو أهل لها. فلِجهَة كونه نصف حيوان، سيقنع غاية القناعة بالمتع الحسية وبحياة حميمية ومنشرحة داخل أسرته الصغيرة وفي مجتمعه السمج، كما سيرضى بقضاء سواد وقته في أمور تافهة. بل حتى التعلم، رغم مفعوله المؤكد، إلا أنه لن ينجح في توسيع الدائرة الضيقة لهذا الشخص على نحو لافت، لا لشيء إلا لكون المتع الرفيعة والمتنوعة والمستديمة لا تصدُر إلا عن الفكر. وحتى لو شكَّك المشككون في هذا الرأي أثناء فترة الشباب، وهو تشكيك ستُفنِّده الوقائع بعدئذ، فستظل المتع الراقية مُتأتِّية حصريا من الطاقة العقلية. وبناء عليه، نتبين بكل الوضوح الممكن كيف أن سعادة الناس مشروطة أساسا ***بِما هُمْ***، أي بذاتيتهم وكينونتهم. والحال أن غالبيتهم لا تأخذ بالحسبان إلا ***مَا لَهُمْ***، أي ما يمتلكونه ويُمثِّلونه في أذهان الآخرين وموازينهم. وحظوظُ الناس في معايشة ***حياة الكينونة*** مفتوحة على الممكن ويتساوون فيها، إلا أنها لا تكون، بالأغلب

الأعم، إلا من نصيب الأغنياء بدواخلهم وليس بـأموالهم. وسيظل الأبله أبلها، والأخرق أخرقا حتى النهاية ولو أقاما بجنة النعيم تُحيط بهما الحوريّات من كل جانب. قال **غوته**: إن كل أفـراد الشعب، الأسياد منهم والخدم، يعترفون بأن أسمى خير على وجه هذه البسيطة هو الطبع، ولا شيء غيره.

من الأمور المؤكدة إذن أن ***الذاتي*** أهم بكثير من الموضوعي في الإنسان، وعليه المُعوَّل في توفير سعادته وخلق مُتعه في كل مناحي الحياة. هذا أمر لا جدال فيه، بدءا بالجوع الذي هو أمهرُ الطباخين، كما نقول، وانتهاءً بذلك الشيخ العجوز الذي ينظر نظرة غير مبالية إلى تلك المعشوقة التي يهيم بها الشاب العاشق، كما أن هـذا أمر مؤكد، أكثر فأكثر، كلما صعدنا نحو القمة حيث يعيش النوابغ والقديسون حياتهم الهنيَّة.

فلا شيء من الخيرات الخارجية ومظاهر الثروة يعلو على الصحة الجيدة، لا شيء. وإن متسولاً ينعم بصحة جيدة لأكثرُ سعادة من مَلِكٍ عليل وطريح فراش. فإذا كان للمرء طبع هادئ متأتٍّ من صحة سليمة ونظام سعيد وصفاء ذهني حيوي، فلابد أن يرى الأشياء على حقيقتها وفي حجمها الطبيعي، وإذا كانت له إرادة معتدلة ووديعة متأتية من وعي جيد أو ضمير مرتاح، فستُمكِّنُه من مزايا وأفضال لن تهبها له لا المكانة الاجتماعية المرموقة ولا الثراء الفاحش. فما يتوفر عليه المرء في دواخله، وما يُرافقه في عزلته، وامتلاكه لِما يستحيل على الآخرين إعطاءه أو حرمانه منه، أهم بكثير من كل ما يمكن أن يمتلكه أو يُمثله ويرمز إليه في أوعاء الناس وتصوراتهم وأحكامهم. فالألمعيُّ أو الراقي عقليا، حتى وإن كان في أقصى درجات عزلته،

فإنه يجد في خواطره وأفكاره ما يُسلّيه أعظم تسلية. أما ذو العقل المحدود، فيظل فريسة سهلة ومفضَّلة للملل الفتاك حتى ولو حضر كل حفلات العالم وفرجاته، وشارك في نُزهِه ومظاهر لهوه. فمن رُزق طبعا معتدلا ولطيفا، كان أسعد الناس ولو كان معوزا، بينما لن تنفع كل خيرات هذا العالم من رُزق طبعا شحيحا وحسودا وشريرا. فالألمعي من الناس قادر على الاستغناء عن كل المتع والشهوات التي تتهافت عليها العامة، بل لا تعدو أن تكون، في تقديره، عالة ومصدر إزعاج؛ يقول **هوراس** مُتحدِّثا من خلال نفسه: مِن الناس من لا يملك أحجارا كريمة ولا رخاما ولا عاجا ولا تماثيل نفيسة ولا فضة ولا فساتين أرجوانية كفساتين جيتوليس، ومنهم واحد، فقط غيرُ منشغلٍ حتى بأمر امتلاكها ذات يوم". وقد كان **سقراط**، وهو يتملى الأغراض الباهظة الثمن معروضة للبيع، يصيح قائلا: كم من حاجة لست بحاجة إليها!

لذلك، فالشرط الأول والجوهري لسعادتنا هو ***ما نحن إياه***، هو طبعنا أولا وأخيرا. فهو الذي يُؤثر فينا على نحو مباشر وفي كل الظروف. والحال أن هذا الطبع المُتأصِّل بمنأى عن تقلبات الحظ والصدف، عكس الخيرات التي نحوزها وآراء الآخرين فينا، هذا فضلا عن أن هذا الطبع لن يسلبنا أبدا لُبَّنا. لذلك، فلهذا الشرط قيمة مطلقة بينما قيمة الخيرات الأخرى التي تأتينا من الخارج نسبية، وبالتالي فالشخص الذي يُوجِّهه هذا الشرط الداخلي لا تُغيره أشياء العالم الخارجي كما تُغيِّر غيره. وحدهُ الزمن، بقوانينه الطبيعية الحتمية، يمارِس عليه تأثيره النافذ بسبب التراجع التدريجي لقدراته العقلية والبدنية، تراجعٌ لا يطال، قطعا، طبعه الأخلاقي وجوهر شخصيته.

ومن هذه الزاوية، لا بد أن تكون للخيرات من الصنف الثاني والثالث تأثير محمود على مثيلاتها من الصنف الأول ذات الصلة بالكينونة، تلك التي لا تنال منها على نحو مباشر تقلبات الزمن وقوانينه النافذة. أما التأثير الإيجابي الثاني، فيتمثل في أن الخيرات من الصنف الثاني والثالث، ولجهة طبيعتها، فهي بمتناول الناس كافة وعلى قدم المساواة. أما ما يوجد بدواخلهم، أي **الذاتي** فيهم فإنه يبقى على ما هو عليه طالما هم على قيد الحياة لأنه يتجاوزهم ولا يقع تحت إمرهم وسلطتهم. في هذا الاتجاه وتعزيزا للفكرة، نُورد هذه الأبيات الشعرية لـ **غوته** التي تتضمن حقائق نافذة لا مراء فيها:

كما في اليوم الذي رأيتَ فيه النور،
حيث الشمسُ حيَّت الكواكب،
فكبرتَ وكبرت حتى صلُب عودك
بحسب المشيئة الأولى التي أسَّستْ لبدايتك،
هو ذا قدرُك، هو ذا مآلك، لن تستطيع منه
فكاكا،
هذا ما قاله العرّافون قبلنا ونطقت به الرسل،
لا توجد بالعالم كله قوة قادرة على كسر الشكل،
شكل تحدَّرنا منه واقترضناه،
ينمو وتنمو معه الحياة.

فغايةُ ما نستطيعه هو الاستعانة بهذا الطبع الممنوح وتسخيره لما فيه نفعنا الأكبر، ثم السعي نحو تحقيق التطلعات التي تناسبه وإنماءها وتطويرها، وبالتالي الحرص الشديد على وضعه في المواقف التي تُناسبه والانشغالات التي تلائمه وقالب العيش المنسجم معه.

فالرجل المتمتع ببنية جسدية قوية وعضلات مفتولة سيكون أتعس الناس لو أجبرته ظروف على القيام بعمل في مكان واحد أو بأنشطة ذهنية صرفة لأنها مغايرة للأنشطة التي تناسب قدراته البدنية، فهو لم يتمرن عليها كفاية، فضلا عن أنها تُعطِّل القوى التي ينعمُ بها. مما لاشك فيه أنه سيكون أتعس حالا من مَثيله الذي تتفوق قدراته العقلية على البدنية، وتجده مكرها على تعطيلها للتفرغ لانشغالات تافهة لا يجد فيها نفسه ولا يحقق ذاته سيما إذا فاقت طاقته البدنية. وفي هذه النقطة بالذات، ننصحُ بالحذر، منذ الشباب الباكر، من الانسياق وراء التخمينات التي تجعلنا نتوهم أننا نتوفر على قوى وقدرات خيالية وبعيدة عن الواقع. فلو تفوقت صفات ***الكينونة*** فينا، فإن الحكمة تقضي بالحفاظ على صحتنا وإنماء ملكاتنا، لا أن نُراكم الثروات والخيرات المادية، إذ لا فائدة منها إلا في حدودها الدنيا الضرورية لاستمرارنا في العيش وعلى قيد الحياة. إن اللهاث وراء الثراء الفاحش لن يساهم أبدا إلا بالنزر اليسير في تحقيق سعادتنا، ودليلُنا على ذلك أن أغنياء كُثر لم ينجح غناهم في انتشالهم من وهدة الشقاء لأنهم لا يمتلكون شيئا من المعارف والثقافة العقلية، وبالتالي فإنهم غير مُتحفزين، موضوعيا، للتفرغ لانشغالات فكرية. ولا غرو، فالثراء إنما يُمكِّن صاحبه من إشباع حاجياته المادية والطبيعية، بينما تأثيره على العيش الجيد يكاد لا يُذكر. أكثر من ذلك، فعيشةُ الثري غالبا ما تُنغِّصها هموم كثيرة لا يستطيع منها فكاكا مُتأتيةً، أساسا، من انشغاله المفرط بالحفاظ على النِّعم المادية من مغبة الزوال. ورغم ذلك كله، تجد أغلب الناس يُفْرِطون في الانشغال بسبل وأسباب الاغتناء المادي ومراكمة الثروات على حساب انشغالهم بالثقافة

والزاد العقلي، هذا مع العلم بأن *الكينونة* (أي ما نحن إياه في ذواتنا) تضطلع بدور حاسم في سعادة المرء، دور يتجاوز، بما لا يقاس، ما يملكه ويحوزه. وتقع أبصارنا صباح مساء على أفواج من هؤلاء يندفعون في عجلة من أمرهم، في مشاهد أشبه بالنمل العرمرم، بحثا عن الثروة وحبا في مراكمتها وتكديسها، ويواصلون سيرهم تلك حتى ولو حصلوا منها على ما يكفيهم ويزيد عن حاجياتهم. معرفتُهم بالوسائل المُوصِلة للثروة محدودة، وعقلهم أفرغ من فؤاد أم موسى، لذلك فهم عاجزون بالمرة عن التفرغ لأي انشغال آخر عدا اللهاث وراء الثروة وتكديسها إلى ما لانهاية! عاجزون تماما عن تذوق المتع الرفيعة، المتع العقلية والبحث عنها والانشغال بأمرها. لذلك يمضون حياتهم كلها في الركض وراء المتع الحسية الهاربة والعابرة والمُكلّفة جدا، متعٌ زائفة تُلهيهم عن المتع الحقيقية وتستغرق كل أوقاتهم. وفي النهاية، يجدون بين أيديهم أموالا طائلة يُورثونها لورثتهم إِمَّا لتنميتها أو تبذيرها شر تبذير. وقد يبدو هذا النمط في العيش للبعض منا مهما وجادا، لكنه العبث عينه، فهو أشبه بمن يجعل من صولجان المجانين رمزه الأثير فيرفعُه عاليا كي يَدُلَّ عليه.

معنى ذلك، بالمجمل، أن السعادة تُقاس بما في الإنسان لا بما عنده، السعادة تُعاش بلغة الكينونة لا بمفردات الحيازة. فمن تَغلَّب على الحاجة سرعان ما يقع في شرك التعاسة لأن ما تحصَّل عليه من كدحه وركضه يبدو له في النهاية شيئا تافها وغاية في الصغر. لذلك، وفي محاولة للتعويض، يندفع في كل الاتجاهات بحثا عن الرفقة والصحبة، أي عن رفاق وأصحاب يُشبهونه، فالطيور على أمثالها تقع كما يقول المثل، والشبيه يحن دوما إلى شبيهه. أما السبب في كل

ذلك فهو فراغُه الداخلي وصغر عقله وتواضع ذكاءه وخفوت همته الروحية. وما أن يجد رفاقا حتى يمضي معهم كل وقته في اللهو الذي انطلق باحثا عنه في المتع الحسية وفي كل صنوف المتع، إلى أن انتهى به الأمر إلى السقوط في الخلاعة والميوعة. والأصلُ في كل هذا الخسران المبين والمشؤوم أنه ورث أموالا طائلة في زمن خاطف، إذ خرج إلى الوجود وفي فمه ملعقة من ذهب، فراح تحت طائلة الضجر الناتج عن الخواء الفكري والمعنوي يُبذّرها ذات اليمين وذات الشمال. فكن على يقين بأن هذا الصنف من الناس إنما يسعى عبثا، من خلال أفعاله، لدرء هذا الضجر الذي ينخره من داخله. فعندما يبدأ الشاب اليافع حياته على هذا المنوال، أي بالغنى الظاهري والفقر الداخلي، فإنه يفعل المستحيل لتعويض الثراء الداخلي الذي يفتقده بثروة خارجية ومادية، هكذا سيسعى سعيا حثيثا للحصول على كل شيء من خارج ذاته، فيكون شبيها بذلك الصنف من الشيوخ الذين يبحثون عن مصدر جديد للقوة والطاقة بين أفخاذ صبايا في عمر الزهور. على هذا النحو، يقود الفقر الداخلي حتما إلى فقر خارجي مُحقق.

لن أكون بحاجة ماسة إلى بيان أهمية المجموعتين الأخريين من خيرات هذه الحياة، لا لشيء إلا لأن الثروة باتت الشغل الشاغل لكل الناس في هذا العالم، وبالتالي ليس من داعٍ لنوصيَهم بها خيرا، فهذا ما يفعلونه أناء الليل وأطراف النهار؛ هذا فيما يخص المجموعة المتعلقة بأمور الحيازة.

أما المجموعة الثالثة ذات الصلة بالتمثلات، فهي أصلا ذات طبيعة أثيرية، أي محكومة بالأهواء، مقارنة مع الثانية، كونها مرتبطة،

أساسا، بآراء الآخرين فينا وتقديراتهم وأحكامهم. ويبقى الجميع مُطالبا بالحرص على *الشرف* أي على السمعة الطيبة والصيت الجيد، أما المكانة الاجتماعية (أو المقام) فلا يتطلع إليها إلا خُدَّام الدولة.

بقيت الإشارة إلى *المجد*، أعتقد بأن قلة قليلة جدا من بني البشر هي التي بوسعها أن تدَّعِيه لنفسها أو تطمع في الوصول إليه. فإذا كان الشرف غاليا جدا، فالمجد هو أشهى وألذّ ما يمكن للمرء أن يحلم به أو يحققه، إن المجد هو الحُلة الذهبية لعموم المُنتخَبين والمُنتجَبين. بالمقابل، وحدهم الأغبياء والبلهاء يلهثون وراء المكانة الاجتماعية القائمة على الغنى والثروة ويسيل لعابهم لها.

أخيرا، لن تفوتني الإشارة إلى أن المجموعتين تتبادلان التأثير، وهو ما انتبهتْ إليه الحكمة البليغة لـ **بيترون** والقائلة: إنْ كان رأيُ الغير فينا حسنا، فسيكون، حتما، أحسن معين لنا على اكتساب الثروة.

الفصل الثاني

سؤال الكينونة

أو ما نحن إياه

اتفقنا، حتى الآن، على أن ماهية الشخص تُساهم بالقسط الأوفر في سعادته مقارنة بآراء الآخرين فيه، أي بِما يُمثِّله في أذهانهم وتقديراتهم. فالأساسيُّ قائم دوما في ماهية الإنسان، أي في حقيقته وما يزخر به في داخله. فطبعُه (أو شخصيته) يصاحبه أينما حلّ وارتحل، وبه يطبع أحداث حياته بأسلوبه الخاص ودمغته المُميَّزة. فما يؤثر فيه، بالمقام الأول وعلى نحو مباشر ومن خلال كل ما يباشره، هو طبعه الشخصي. ولئن كان هذا صحيحا فيما له صلة بالمتع المادية، فهو أكثر صحة بشأن المتع الروحية والعقلية. والإنجليزي مصيبٌ في قوله: تروق لي نفسي وأنا بباريس، ولا يقول تروقني باريس، كما يفعل الفرنسي.

فإن كان الطبع الشخصي رديئا، فلن تنفع معه كل متع الدنيا ومباهجها، فسيكون كالخمر المُعتّقة في فم مُرّة. لا يهم إن كان المرء محظوظا جدا أو ذا حظ عاثر أو حتى عديم حظ إلا في الحالات التي تنزل عليه مصيبة كبرى، فالمهم بل الأهم هو كيف يستشعر ويتفاعل مع ما يصيبه من مصائب ويقع له من أحداث، أي درجة إحساسه بها وتفاعله معها. فالعامل الوحيد والمباشر القادر على تحديد سعادتنا وصوغ عيشنا الجيد، هو ما تزخر به دواخلنا من ممكنات وما نحن إياه بالفعل، أي طبعُنا الشخصي وقدره. أما كل العوامل الأخرى فلها تأثير غير مباشر وجانبي جدا على هذه المسألة، بل قد لا يكون لها مفعول حاسم، هذا إن لم تكن عديمة المفعول. أما تأثير

الطبع فمؤكد ومحتوم. وهذا ما يفسر أن الحسد الأسود الذي يُخفيه الحسّاد بعناية، غالبا ما يكون بدافع من المصالح الشخصية. زد على ذلك أن نوعية الوعي الإنساني (جودته من عدمه) هو بمثابة العنصر الدائم والثابت في هذه المعادلة. فالطبعُ يؤثر، باستمرار وعلى نحو منتظم، على صاحبه وفي كل لحظة وحين، أما غيره من العوامل، فتأثيرها مؤقت وعابر وعُرضة للتغير بل والاختفاء النهائي. ولـ **أرسطو** قولة بليغة في هذا الشأن: الطبيعة سرمدية والأشياء عارضة. لذلك، تعوَّدنا معشر البشر على التحمل الصابر والمُحتسب للمصائب التي تأتينا من خارج ذواتنا، عكس المصائب التي نكون مسؤولين عنها وضالعين فيها لسبب من الأسباب. فالقدرُ يتغير ويتقلب، بينما يظل طبعنا هو هو في جوهره. إن ***النعم الذاتية*** هي التي تدلُّ بحضورها على توافر أسباب وموجبات السعادة، وتشمل الطبع النبيل والعقل الراجح والمزاج الرائق والنفس المرحة والجسم السليم. ومن أوجب الواجبات علينا أن نصون هذه النعم ونُنمِّيها بدل اللهاث وراء النعم الخارجية ومظاهر الشرف والأبهة.

ويساهم ميلنا العفوي إلى الدعابة، على نحو مباشر، في تحقيق سعادتنا كما أن ثمراته نجنيها في الحين. فالمنشرح لا تُعوزه أبدا دواعي انشراحه، فهو بحد ذاته سبب كاف، سببٌ يكفيه مؤونة البحث عن أسباب أخرى. وهي خصلة لا تعوضها كل الخصال الأخرى، بل ولا يعوضها شيء آخر على الإطلاق. قد يكون أحدهم شابا في مقتبل العمر، بل وميسورا ويحظى بالتقدير، لكن، لو شئنا أن نتأكد من سعادته الفعلية فما علينا إلا أن نسأله إن كان ذا روح مرحة أو حزينة، بقطع النظر عن كل المزايا الأخرى التي قد تتوفر فيه. فالمَرِح

هو دائما سعيد سواء كان شابا أو شيخا، مستقيم القامة أ ومنحني الظهر. في بداية شبابي، قرأت القولة الآتية في سِفر قديم: سعيدٌ من يضحك كثيرا وتعيس من يبكي كثيرا، قولة قد تبدو للوهلة الأولى بسيطة جدا، إلا أن هذه البساطة الشديدة فيها هي التي جعلتني أستحضرها دوما. علينا، كلما هلَّ الفرح استقباله بالأحضان وفتح الأبواب والنوافذ احتفاء بقدومه، فحلولُه بيننا نادر أو غالبا ما لا يحضر بالوقت المناسب. وبَدل التردد في استقباله بما يليق به، إمَّا لعجز فينا عن انتهاز فرص الفرح أو مخافة صرفها لنا عن التأملات الجادة والانشغالات الهامة، علينا الاحتفاء بمقدمه لأنه الأقدر على رفدنا بلحظات وهنيهات نجني منها أعظم الفوائد على نحو مباشر، الأمر الذي ليس مؤكدا ولا مضمونا عند استغراقنا في التأملات والانشغالات. إن الفرح والمرح أشبه بالعملة النقدية وغيره شبيه بكمبيالة. لذلك فهو خير أسمى في ميزان الأشخاص الذين يعيشون حاضرَهم كاملا غير منقوص، حاضرٌ غير قابل للقسمة بين زمنين لا نهائيين، فما علينا إلا أن نصبو إلى الحصول على المزيد والمزيد منه.

ولا شك في أن الثروة أقل قدرة على توفيره، عكس الصحة الجيدة المؤهلة لمدنا منه بالمزيد. نجد الوجوه المرحة في أوساط الطبقات الاجتماعية الدنيا كالفلاحين والعمال بينما تكثر الوجوه العبوسة والمتجهمة بين الميسورين. ما علينا إذن سوى المحافظة على هذا الوضع من الصحة الكاملة الذي يعتبر المرح زهرته اليانعة. ولأجل ذلك، علينا أن نتجنّب كل أنواع الإفراط والخلاعة والانفعالات العنيفة والضاغطة، أو اجترار التفكير في شيء واحد، أو انغلاق الفكر على أشياء محدودة ومعدودة في الزمان والمكان. كما تجب المواظبة على

القيام بتمارين رياضية خفيفة في الهواء الطلق لمدة ساعتين على الأقل، والاستحمام بالماء البارد مرات عدّة، والالتزام بالحمية التي تعود على البدن بالنفع العميم. إن الصحة ممتنعة دون المواظبة على حركات بدنية يومية. فكل الوظائف التي تتطلب منا الحياة القيام بها لا تتم، على النحو المطلوب والمناسب، إلا إذا عوَّدنا أجسامنا على الحركة، فالحركة هي التي تُنمّي تلك الوظائف وتزيد من قدراتها، ومن خلالها ينمو الجسم كله وتتوسع قدراته. وقد صدق **أرسطو** عندما قال: الحياة في الحركة، بل هي الحركة. إن الجسم الإنساني نفسه يمارس، تلقائيا، العديد من الحركات السريعة والمتواصلة، فالقلب في انقباض وانبساط مستمرين يُمكّنانِه من الخفقان الدائم وضخٍّ كميات كافية من الدم في الدورتين الدمويتين الكبيرة والصغيرة عبر شهيق وزفير دائمين شبيهيْن بآلة بخارية. أما الأحشاء فتلازمها انقباضات تعبر عن نفسها من خلال حركة التقلص الإستداري الملازم لعمليتي البلع والهضم، كذلك الغدد، فهي تمتص وتفرز ليل نهار، بل حتى الدماغ يتولى القيام بوظيفة مزدوجة كلما خفق القلب وتنفست الرئة.

لذلك، فعندما يغلب الاستقرار على نمط حياة الناس وتغيب الحركة فيها، وهو شأن الكثيرين منهم، يحدث تباين صارخ ومُضِر بين شيئين: الراحة الخارجية والجلبة الداخلية. فحركة الداخل المتواصلة بحاجة إلى حركة خارجية تؤازرها، والتفاوت بينهما يجعل الإنسان أشبه بمُكْرَهٍ على كظم انفعالاته الداخلية الفوّارة كي لا تظهر لغيره. فحتى الأشجار بحاجة إلى حركة الرياح لتُزهر وتورق؛ وتلك قاعدة عامة تختصرها الحكمة اللاتينية القائلة: كلما تسارعت وتيرة الحركة غدَا كل شيء في الكون حركة.

ولتوضيح مدى ارتباط السعادة الإنسانية بقابلية الناس للفرح والمرح، وارتباط هذه، بدورها، بوضعهم الصحي، نُقارن التأثير الذي تمارسه عليهم الأحداث نفسها وهم أصِحّاء بمثيله وهم مرضى ينهشهم الحزن والكآبة. فليست الأشياء الموضوعية هي التي تجعلهم سعداء أو تعساء، بل طريقة إدراكهم وتمثلهم لها، وهي الفكرة ذاتها التي عبَّرت عنها هذه الحكمة المقتضبة لـ **إبيكتيتوس** والتي تقول: رأي الناس في الأشياء لا الأشياء ذاتها، هو الذي يجعلهم يتأثرون أو لا يتأثرون بها.

نخلُص إلى أن تسعة أعشار السعادة مشروطة بالصحة وسلامة البدن. فبِتوافرُها، يغدو كل شيء مصدرا لمتعة منقطعة النظير، وبانتفائها يستحيل تذوُّق الحلاوة الثاوية في كل الخيرات والنعم الخارجية التي تكون من نصيب المرء، بل حتى النعم الذاتية أو الداخلية تفقد الكثير من زخمها وألقها بسبب المرض؛ ومن جملتها الذكاء والحالات الوجدانية والطبع الإنساني. لذلك تجد الناس يسألون، أوّل ما يسألون، بعضهم البعض عن أحوالهم الصحية، كما يتمنَّون لبعضهم صحة جيدة. فالصحةُ شرط أساسي لتحقق سعادة الإنسان، وأي تضحية بها على مذبح الثروة والثراء والنجاح المهني والدراسة والمجد، وخصوصا في سبيل المتع العابرة، هي الحماقة بعينها. لا شيء، لاشيء على الإطلاق، يبرر التفريط في الصحة إرضاء لغيرها.

ومهما عَظُم تأثير الصحة على فرحنا الذي هو شرط سعادتنا، إلا أنها ليست دائما شرطا لازبا لحصوله، ذلك أن هناك أشخاصا أصحّاء بمزاج سوداوي وقابلية مفرطة للاكتئاب. والسبب في ذلك هو تكوينهم العضوي الأصلي، خصوصا ما تعلق منه بالعلاقة الطبيعية

والمُطَّردة بين قابليتهم المفرطة للتهييج وإعادة إنتاجها المتواصل. فالغلبةُ الشاذة للحساسية المفرطة تُولِّدُ لديهم أحوالا مزاجية متقلبة ومضطربة تتراوح بين الفرح الشديد والكآبة السوداوية. ولقد كان **أرسطو** مُحِقا عندما لاحظ كيف أن النّوابغ والأفذاذ من أهل الفكر والعلم تغلُب عليهم طباعٌ سوداوية، وهو أمر طبيعي لأن العبقرية إنما هي نتاج لنشاط ذهني مفرط، أي لحساسية مُهتاجة، يقول في هذا الباب: كل النوابغ في الفلسفة والسياسة والشعر والفن من ذوي الأمزجة السوداوية. وبرع **شكسبير** في وصف هذا التنوع الهائل بالمزاج البشري حين قال: كم تتلهَّى الطبيعة بصنعها أجساما عجيبة وغريبة، هكذا نجد من بين الناس أشخاصا لا يتوقفون عن الضحك بسبب أو بدونه، يشبهون في ذلك ببغاء أمام عازف عاد جدا لمزمار القربة، كما نجد أشخاصا لا يُبرزون أبدا أسنانهم لغيرهم، ولو في لحظات ضحك عابرة... وهذا التنوع في الطباع والأمزجة البشرية هو الذي اختصره **أفلاطون** في ثنائية ***المزاج الصعب والمزاج السهل***، والمُتأتية، بنظره، من التباينات الحاصلة بين الناس حين تلقيهم للانطباعات السارة والممتعة كما المُحزنة والمؤلمة، فتجد البعض منهم تُضحكه أمور ملء شدقيه بينما البعض الآخر تدفعه الأمور نفسها إلى حافة اليأس. كما يجوز أن يتلقى الناس الانطباعات السارة والمحزنة بنسبٍ من القوة أو الاعتدال متفاوتة، فعندما تتساوى فرصُ النجاح والفشل في أمر، تجد فئة منهم يُحزنها الفشل المُحتمل كما لا يُفرحها النجاح المنتظر، ولن يغضبها أو يُحزنها نجاح ناقص أي نصف نجاح في حين سيُسعدها نجاح كامل. وإذا نجح الواحد منها في أحد مشاريعه تسع مرات وأخفق في العاشرة، فسيغضب لأنه فشل مرة واحدة على

عشرة. بينما أفراد الفئة الأخرى سيفرحون أشد الفرح لنجاحٍ تحقق لهم ولو لمرة واحدة على عشرة.

وقد جرت العادة بألاَّ يَحُل شر من الشرور بلا تعويض، ومن ذلك أن ذوي الطبائع الحزينة والسوداوية غالبا ما يئِنُّون تحت وطأة آلام وعذابات وهمية أكثر مما هي واقعية، خلافا لذوي الطبائع المنشرحة والخالية من الهم والغم الذين يعانون، حين يعانون، من آلام وعذابات واقعية. غير أن الشخص الذي يرى السواد في كل شيء، يتوقع دائما الأسوأ، وبالتالي فإنه يحتاط، أشد الاحتياط، من خيبات الأمل ومن الإحباط، خلافا للذي يرى الألوان الزاهية والآفاق الواعدة والبشوشة في كل شيء. وعندما يجتمع في شخص واحد مرض عصبي أو هضمي مع طبع سوداوي متأصل، فإنه يراوح حالة من الضيق الدائم التي تجعله شديد النفور من الحياة كلها تذهب به إلى حدّ التفكير في الانتحار لأبسط الأسباب وأصغر المعاكسات التي تعترضه فتزج به في أقصى حالات الألم والتألم. فالحضورُ الدائم للشعور بالضيق في حياته كاف ليدفعه باتجاه التفكير في الانتحار أو حتى الإقدام عليه، إقدامٌ يسبقه تفكير بارد وتصميم شديد. وعندما يصل الإنسان إلى هذه الحالة، يغدو مريضا خاضعا للمراقبة، نظرا لهوسه بفكرة الانتحار التي تراوده ليل نهار ولا تكاد تُفارقه. وما أن تغفل عنه عين المراقبة، ولو للحظة خاطفة، حتى يُنفِّذ، بحزم واندفاع، خطته المُبيَّتة القاضية بوضع حد لحياته اعتقادا منه بأن فيها خلاصه من هذه الحياة ومخالب المعاناة. وقد أسهب **إسكيرول** في وصف ورصد هذه الحالة بكتابه حول ***الأمراض العقلية***. بل حتى الإنسان الذي يتمتع بصحة جيدة ويعيش في انشراح دائم، قد يجد في الانتحار

عزاءه الأخير وخياره النهائي متى اشتدت عليه وطأة المعاناة والعذاب أو الخوف الشديد من مصيبة وشيكة الوقوع، إذ يُقدِّر بأن الموت أهون بكثير من تلك المصيبة التي نزلت به. فالتفاوت بين الناس يكون فقط على مستوى الدوافع المُحركة لهم باتجاه هذا الخيار، وكلما تقوى الطبع السوداوي فيهم إلا وازدادت حدتها وضراوتها. فكلما عظُم واستفحل هذا الطبع فيهم كلما كانت دوافعهم نحو الانتحار صغيرة وأحيانا تافهة، هذا إن لم تكن، بموازين العقل، في حُكم المعدوم أو لا يُعتد بها بالمرة. بالمقابل، كلما عظُم وغلُبَ الطبع المرح فيهم ورجحت كفته مقرونا بالصحة التي هي عماده، حتى يتطلب الأمر دافعا كبيرا وحدثا جللا كفيلا بدفعهم نحو الانتحار. وما بين الحدَّين القصيين، تُوجد درجات ومستويات تتراوح ما بين تفاقم الطبع السوداوي المتأصل والطبع المُعافى والمرح الذي لا يستمد مُسوغات الانتحار إلا من أسباب موضوعية.

والجمال مماثل، نسبيا، للصحة لأنه من النِّعم التي لا تُسهم في السعادة إلا على نحو غير مباشر، أي من خلال الأثر الذي تتركه في الآخرين، والجمال له أهمية كبرى عند الرجال أيضا وليس عند النساء فحسب، إنه رسالة مفتوحة دالة على تزكية من الطبيعة نالها الجميل وسالبة للألباب قبل أي بيان وكلام؛ وعنه قال **هوميروس**، وبحق، في سياق أعم: لا ينبغي تبخيس النعم الإنسانية المجيدة، فهي هباتٌ يتبادلها الناس فيما بينهم، وليس لأحد أن يقبلها أو أن يرفضها من تلقاء نفسه.

ونظرة إجمالية في أحوال الناس وأوضاعهم كافيةٌ بأن تجعلنا نضع اليد على العدوَّين اللدودين لسعادتهم وهما: ***الألم والملل***، وبِقدْرِ

ما يبتعد الإنسان عن الأول يقترب من الثاني والعكس صحيح؛ بل إن الحياة البشرية برمتها لا تعدو أن تكون تأرجحا متواصلا بين الحدَّين بدرجات متفاوتة في الحدة والشدة. ويُعزى ذلك إلى حالات المعاكسة المزدوجة بينهما، وهي إمَّا من قبيل المعاكسات الخارجية والموضوعية أو الداخلية والذاتية. فمن الواضح، لو تأملنا الأمر من الخارج أن الحاجة يتولد عنها الألم كما يتمخض الملل عن إحساس الإنسان بالأمان وعيشه في الرفاه. لذلك، لا غرابة إن كان المُعوزون من الطبقات الاجتماعية الدنيا يكافحون، بلا هوادة، ضد الحاجة أي ضد الألم، بينما الميسورون من علّية القوم يكافحون أيضا، وبلا هوادة، ضد الملل بأملٍ ضعيف في هزمه وكسر شوكته. تقوم هذه المعاكسة من الداخل أي على المستوى الذاتي على معطى مؤداه وجود تناسب عكسي بين أن ينال الألم أو الملل من الإنسان، أما القابلية لأحدهما دون الآخر فتُفسِّره قدراته العقلية بالمقام الأول. فالعقل البليد والحساسية المتبلّدة يسيران جنبا إلى جنب، حساسيةٌ تجعل صاحبها في حالة من تبلد الأحاسيس وخمولها وعجز مريع عن التأثر والتفاعل بما يحيط به. هكذا تجده بمنأى كلي عن الإحساس بالآلام والتفاعل مع الأحزان. إلا أنه يئنُّ تحت وطأة ***فراغ داخلي*** مُرتقمٍ على وجهه ووجوه أمثاله، يفضحه فضحا من خلال حشر أنفه في كل الأحداث الخارجية على تفاهتها وسخفها. فهذا الفراغ هو مصدر الملل الذي يجعل المَلُول مهووسا بالاهتمام الشره بشؤون الآخرين، وبالتالي متفاعلا بسرعة مع المهيجات الخارجية كي يُشغل قلبه وعقله بأي شيء، نعمْ أي شيء! وهو ما نلاحظه يوميا في إقبال هذه الفئة من الناس على الملاهي الأكثر دناءة وإثارة للرثاء والشفقة،

كما نلاحظه في نوع الاجتماعات التي تتردد عليها واللغو الذي تخوض فيه مع الخائضين. ولا أدلّ على قوة هذه الظاهرة من أفواج المتسكعين والمتبطّلين الذين يجوبون العالم طولا وعرضا، فهذا الخواء الداخلي هو الذي يدفعهم دفعا نحو البحث عن كل أنواع التجمعات البشرية والتسليات لأجل تمضية الوقت والركض وراء المتع ومظاهر البذخ، ما يقودهم، في النهاية، إلى تبذير ممتلكاتهم والسقوط في هاوية البؤس والإفلاس.

ولا علاج لهذا البؤس إلا ***الثراء الداخلي***، ثراءُ العقل والروح الذي بقدر ما يرفع قدر صاحبه ويسمو به بقدر ما يُبعده عن الملل ومُسبّباته. إن النشاط الذهني المتواصل والمتجدد من خلال تمظهراته الخارجية والداخلية، والقدرة كما الحاجة إلى التوليف بينها، يضعان صاحب العقل الراجح بمنأى عن الملل وخارج قبضته إلا في حالات التعب العابرة. غير أن هذا الألمعيّ تلازمه حساسية متقدة ومفرطة مُتأتّية من إرادته المندفعة التي يتولد عنها ***الشغف الشديد***. ومن اجتماع هذين العنصرين، تتوالد كثافة انفعالية وحساسية زائدة للآلام الأخلاقية والبدنية، وعدم التحلي بالصبر الكافي في مواجهة العراقيل والمثبِّطات، بل وفي مواجهة إزعاجات بسيطة جدا. والحيوية الشديدة للتمثلات، بما فيها التمثلات المؤلمة، تؤجج أكثر هذه الآثار والمفاعيل المتولدة عن خيال جامح. وما قلناه توا يصدق على الحالات البيْنيَّة التي تُغطّي المسافة الفاصلة بين أغبى الناس وأوفرهم ذكاء وألمعية. لذلك فكل إنسان، إن على المستوى الذاتي أو الموضوعي، يبتعد عن أحد مصادر الألم بقدر ما يقترب من الآخر زلفى. وأمام وضع مثيل، لا بد أن تقوده عفويّته إلى التوفيق، قدر

المستطاع، بين الموضوعي والذاتي فيه، أي إلى تحصين نفسه ضد مصادر الألم التي تصيبه بسهولة أكبر. فالألمعيّ اللبيب لابد أن يسعى، أول ما يسعى، إلى تجنب كل مصادر الألم ومسببات الإزعاج مقابل تلمُّسه لسبل الراحة وتنكبه لأوقات الفراغ والتفرغ. لذلك لا نستغرب إن كان يبحث، بلا كلل ولا ملل، عن حياة هادئة وبسيطة وبعيدة أشد البعد عن كل مصادر الإزعاج. وعلى طريقه، لا بد أن يجد في *العزلة* عزاءه الأخير بعد معاشرته الطويلة للناس، عامة الناس. فبقدر ما يمتلك الإنسان أشياء كثيرة بدواخله، بقدر ما يشتد استغناؤه عن الناس وعن العالم الخارجي.

على هذا النحو، يكون المتفوق فكريا، حتما، إنسانا لا اجتماعيا. فلو كان الكم مساويا للكيف في القيمة، لجاز تجشُّم عناء العيش مع الناس ومخالطتهم، لكن هيهات! فمئة مخبول لا تعادل ولن تعادل أبدا صاحب عقل راجح واحد. فذو العقل الصغير، ما أن يفرغ من إشباع حاجاته الأساسية، وينْعَم بقليل من الراحة حتى يندفع بحثا عن تمضية الوقت كيفما اتفق ومخالطة الناس دون تمييز، فهو ينسجم مع الجميع ولا يفرُّ إلا من نفسه. فالغبيُّ في عزلته يئن تحت وطأة بؤسه الشخصي، بينما الألمعي الموهوب يُؤثِّث عالمه الخاص والصغير حتى ولو كان في الأماكن المقفرة لتَدُبَّ الحيوية والنشاط فيها. ففي العزلة، يُختزل كل واحد منا في ما عنده وفي ما يجده بداخله، أي في موارده الذاتية ولاشيء غيرها. وقد صدق **سينيكا** حين قال: الغباءُ يضجر حتى من نفسه، وعبَّر **اليسوع** عن المعنى نفسه بقوله: حياةُ الأحمق أسوأ من الموت. فالميلُ إلى مخالطة الناس يتناسب طردا عند الأفراد مع مستواهم الفكري، لذلك تجد

المُتدنِّين فكريا من العامة والدهماء ميالين إلى المعاشرة الاجتماعية. فنحن، والحالة هذه، أمام خيارين لا ثالث لهما: إما العزلة أو الذوبان في الجماعة. معروفٌ عن السود أنهم أكثر الأقوام ميلا إلى المعاشرة الاجتماعية، وهناك إجماع اليوم على أنهم الأكثر تخلفا من الناحية العقلية، فهذه بتلك. وتصلنا تقارير من أمريكا الشمالية نشرتها الصحف الفرنسية، ومن جملتها صحيفة Le commerce عدد1837/10/19، تؤكد بأن الزنوج، بأحرارهم وعبيدهم، يتكدسون بأعداد كبيرة في أشد الأماكن ضيقا لأنهم لا يستطيعون التحديق في وجوههم السوداء المتماثلة حد التطابق والتكرار. وبما أن الدماغ البشري قد يكون نعمة أو نقمة على صاحبه، أي على كيانه العضوي بالكامل، فإن أوقات الفراغ والتفرغ التي تكون من نصيبه وتمنحه فرصة الاستمتاع الحر بوعيه وفرديته، لن تكون سوى ثمرة لوجوده كله الذي ليس، بالمحصلة، إلا جُماع كدح ومكابدة. لكن، لنتأمل، قليلا، في ما تُدرُّه هذه الأوقات على السواد الأعظم من الناس، إنها لا تدر عليهم سوى الضجر والاستغراق في الغباوة، ما أن تغيب عنهم المتع الحسية وحماقات من طينتها دأبوا على أن يملؤوا بها أوقات فراغهم. وهذا دليل على أن هذه الأخيرة لا تحمل قيمتها في ذاتها بل في طريقة استعمالها وتدبيرها.

إن الشغل الشاغل للعامة هو ***قضاء الوقت***، أما الألمعيّ فمشغول باستعماله الحسن وتدبيره الأمثل. لذلك يكون ذوو العقول الصغيرة والمحدودة فريسة سهلة للسأم، لأن طاقتهم العقلية لا تعدو أن تكون أداة طيِّعة بين يدي البواعث المحركة للإرادة، فإن إختفت البواعث خلدت الإرادة للراحة وتعطلت الطاقة العقلية، إذ يستحيل على

الإرادة أن تتحرك من تلقاء نفسها، فيحل الجمود المريع ليشل كل قدرات الفرد ليلقي به أخيرا في براثين السأم الناهش. وفي محاولة للتصدي له، تَعْمدُ ضحاياه إلى إلهاء الإرادة، وعلى نحو ماكر، ببواعث صغيرة جدا، مؤقتة وعشوائية بُغية استثارتها من جديد وتشغيل الطاقة العقلية التي تتكفل بالتقاطها. فلو قورنت هذه البواعث مع نقيضتها الواقعية، لجاز تشبيهها بمحافظة نقود وتشبيه نقيضها بالنقود، أما قيمتها فلا تكمن في ذاتها بل قيمتها مواضعاتية واتفاقية (أي عرفية). فالبواعث الصغيرة والعابرة أشبه ما تكون أيضا بلعب الورق وما شابهه من ذرائع لتمضية الوقت، ذلك أنها ابْتُكِرتْ أصلا لهذه الغاية ولا شيء غيرها. فما أن تُعوز صاحب التفكير المحدود حتى يطبل ويدقدق على كل ما يقع بين يديه، وتعتبر السيجارة واحدة من هذه الذرائع التي تُعوض غياب الأفكار عند المُدخّن.

لذلك، لا غرابة إن بات لعب الورق عند كل الأمم انشغالا محوريا في تجمعات الناس ولِمّاتهم، وهو ما يعكس مستواها الضحل وقيمتها المتدنية، فهي المناسبات المُثلى التي تعلن فيها الأفكار عن إفلاسها. ففي غياب أفكار نتبادلها، نتبادل الورق آملين، عبثا، أن نستخلص منه ما هو نفيس، فيا لبؤس الناس! ومن باب الإنصاف، أشير إلى أن لعب الورق لا يخلو نهائيا من كل فائدة، إذ يُهيِّئُ لاعبيه لمواجهة الحياة والدخول إلى عالم الأعمال من خلال تعليمهم طرق الاستغلال الحكيم للفرص المتقلبة التي تجود بها الصدف وجني ثمارها في الوقت المناسب، كما أنه يساعدهم على الاحتفاظ برباطة جأشهم أمام الخسارة وتقبُّلها بصدر رحب. إلا أن لهذه اللعبة أيضا تأثير لا أخلاقي، إذ تُجيز قواعدها اختلاس ما يملكه الآخر بأي وسيلة ممكنة،

وكل الحيل هنا واردة وجائزة. ومن شأن التعود على هذا السلوك في لعب الورق وما شابه أن يدفع المتعودين إلى نقله جملة وتفصيلا إلى عالم المعاملات بين الناس فيُمارسونه بلا تبكيت ولا وخز ضمير في ما له صلة بما لي وما للآخرين حقيقة هذه المرة لا مجازا، ومن ثمة اعتبار كل امتياز ننفرد به مشروعا ومباحا لا لشيء إلا لأنه بمتناولنا. وثمة أمثلة وافرة تؤكد يوميا هذه الحقيقة.

وبِما أن أوقات الفراغ والتفرغ، كما تقدَّم، هي ثمرة وجودنا بصفتنا أفرادا، إذ يُفترض أن تُمكّننا من امتلاك زمام ذواتنا، فالسعيدُ هو الذي يجني منها ما له قيمة وما لا يُقدَّر بثمن. إلا أننا نلاحظ بأن هذه الأوقات لا تجلب للناس، في الأغلب الأعم، إلا التبطل الذي يقتلُهم ضجرا لتغدو بذلك عالة عليهم. فلنهنئ أنفسنا إخوتي، كما جاء على لسان الحكيم، لأننا تحدّرنا من أرحام الحرائر لا من أصلاب العبيد وأرحام الإماء. وبفضل ذلك، نحن الأقدر على حُسن استعمال هذه الأوقات الثمينة.

وكما أن البلد السعيد هو الذي لا يستورد، فإن السعيد هو الذي يكتفي بذاته ويملأ عليه غناه الداخلي كل حياته، ولا ينتظر من الآخرين سوى أقل القليل الذي قد يُسلّيه ويُروِّح به عن نفسه. فهو مُوقنٌ بأن أي توريد من خارجه، لا بد أن يُكلّفه ثمنا باهظا وخطيرا ألا وهو الإنصياع، فكل توريد من هذا الصنف هو، لا محالة، مجلبةٌ للهمّ والغمّ، ولن يكون، بالمحصِّلة، إلا مادة بديلة لا ترقى إلى جودة منتوجات الأرض التي نمتلكها.

ليس لنا بالمطلق أن ننتظر أي شيء من الغير ومن خارج ذواتنا. فما قد نكُونُه أو نمثّله في أوعاء الآخرين وموازينهم هو أمرٌ لا يُعتدُّ

به، وبالتالي فكل واحد محكوم عليه بالبقاء لوحده، لكن من هذا الذي يبقى منا لوحده ومع نفسه؟ هو ذا السؤال الكبير.

قال **غوته** في هذا المعنى ما يلي: كل واحد منا محكوم عليه في نهاية المطاف بأن يكون وحيدا، والفكرة ذاتها عبر عنها **أوليفير غولدشميت** عندما قال: في نهاية الرحلة يهجرُنا الجميع، ونبقى لوحدنا إمّا لنصنع سعادتنا أو ننطلق بحثا عنها". كلٌّ واحد من بني البشر سيُترَكُ في النهاية ليُواجه نفسه، ويرفُدَها بأفضل وأجود ما لديها. وكلما تعوَّد الواحد منا على هذه الطريقة في العيش، واعتاد العثور في ذاته، وبوتيرة تصاعدية، عن مصادر وموارد مُتَعه، فإنه سيُحقق حتما سعادته. وكم كان **أرسطو** صادقا عندما قال: السعادة من نصيب المُكتفين بذواتهم. فكلُّ المصادر الخارجية والمتع العابرة لا يُعوَّل عليها في تحقيق السعادة لأنها مصطنعة، منفلتة وعشوائية، وبالتالي فهي مندورة حتما للنضوب السريع ولو في الظروف المناسبة جدا، وطالما لا نحصل عليها وقتما وكيفما نشاء فستظل كذلك. زد على ذلك أن النضوب المحتوم يطالها كلما تقدمنا في السن لتتخلى عنا رويدا رويدا. وهذه المتع تشمل الحب وروح المرح والشغف بالأسفار وركوب الخيل وحب الظهور، وهكذا إلى أن يدركنا الموت فينتزعنا حتى من أعز الناس إلينا كالأصدقاء والخلان والآباء. عندئذ، ليس لنا إلا أن نتمسك بما صِرنا بفضله ما نحن إياه، أي ذواتنا ولا شيء غيرها. فهذا الإدراك الثابت والراسخ الذي نتوصل إليه في خريف عمرنا هو الذي سيُمكّننا من المقاومة ما تبقى من أعمارنا. إلا أنه إدراك تتأكد صحته وصِدقيّته في كل مراحل العمر أيضا بحسبانه المصدر الحقيقي والوحيد والدائم لسعادة الإنسان. فهذا العالم الذي

يعج بالبؤس والآلام لا يبشِّر بربح طائل نجنيه منه، فمن أفلت فيه من قبضة هذين الوحشين الكاسرين أي البؤس والألم، تربّص به الضجر وكان له بالمرصاد عند كل منعرج. إن الشر هو الذي يقود خطى هذا العالم في مجمله، أما البلادة فهي الصوت المسموع أكثر. الأقدار فظة وشرسة والناس بين مخالبها مثيرون للشفقة. إن الشخص الذي يتوفر في قرارة نفسه على أشياء كثيرة، والمكتفي بذاته في هذا العالم شبيه بغرفة تتوسطها شجرة الميلاد، غرفةٌ مضيئة، دافئة ومنشرحة وسط صقيع ليلة من ليالي دجنبر القارسة. الغنيّ بذاته والمتفوق بذكائه هو أسعدُ الناس في هذه الدنيا ولا مجال لمقارنة حاله ومآله بأحوال ومآلات غيره حتى ولو بدت فاتنة ومتوهجة. لذلك، فرأي أميرة السويد **كرستين** ذات التسع عشرة سنة بالكاد في **ديكارت** طافح بالحكمة البليغة وهي التي قالت عنه: ديكارت هو أسعد الخلائق ومحسود على ذلك. وقد كان الرجل في هذه الفترة من حياته مُقيما بهولندا عشرين سنة بأقصى درجات العزلة، ولم تكن الأميرة تعرفه إلا عن طريق الأخبار التي تصلها عنه وقراءتها لأحد مؤلفاته. ونمطُ العيش هذا يتطلب شرطا واحدا توفَّر لديكارت في ذلك الوقت هو توافر ظروف خارجية مناسبة للإمساك بزمام الذات والتمتع التلقائي. لذلك، ما كذب ***سِفرُ الجامعة*** عندما قرر في أحد مقاطعه، قبل هذا التاريخ بكثير، هذه الحقيقة: ستكون سعادتنا مضاعفة لو اقترنت بإرثٍ أو تركة ورثناها لأنها ستجعلنا، حقا، نستمتع أقصى استمتاع بأشعة الشمس".

وكل من جادت عليه الطبيعة والقدر بمثل هذا المآل فليعضَّ عليه بالنواجذ لأنه الينبوع الداخلي لسعادته الذي سيجد فيه كل ما

يحتاجه، وليحرص بعد ذلك على استقلاليته وعلى الاستعمال الرشيد القاصد لأوقات فراغه يصرفها باعتدال وتعقُّل. فهو لا يملك غيرها بعد أن قرر الاستغناء عما لدى الآخرين من متع عابرة وزئبقية. وليحرص على ألاَّ تُغيّره الوظائف العليا ورنين الذهب والامتيازات والشهرة ورضى الناس، ولا يتنكّرَنَّ لذاته أو يهرب من قدَره كي يتوافق مع الإنتظارات البائسة للعامة وذوقها الرديء. إنها لحماقةٌ كبرى أن تخسر ***داخلك*** لتربح ***الخارج***، أي أن تتنازل، جزئيا أو كليا، عن راحة بالك وأوقات فراغك وتفرُّغك واستقلاليتك لقاء عظمة زائفة وحظوة كاذبة وأبّهة مصطنعة وألقاب شرفية. هو ذا ما فعله **غوته** ولن أفعله أنا، ذلك أن نبوغي الشخصي يدفعني دفعا في الاتجاه المعاكس لاتجاهه.

القول بأن المصدر الرئيسي للسعادة البشرية هو النفس البشرية حقيقة مؤكدة، ومن جملة الذين أكدوها **أرسطو** في ملاحظة لبيبة وردت بكتابه ***مناقب لنيقوماس*** يقرر فيها بأن كل متعة يلازمها جهد مبذول لأجل تحصيلها، أي بقوة صادرة عنا، وتنتفي المتعة في غياب ذلك المجهود المبذول لأجل إدراكها.

والفكرة الأرسطية نفسها التي تشرط السعادة بالاستعمال الحر للملكات المتقدة، نجدها مجددا عند **سطوبي** في معرض حديثه عن المناقب المشائية ونقرأ عنده ما يلي: إن استعمال الإنسان لملكاته استعمالا مثمرا كفيل بتحقيق سعادته، ويمضي في تدقيق دلالة الكلمة بقوله: هي كل ما يشمل القدرات الإنسانية الفذة والخارجة عن المألوف. أما القدرات البدائية فلا تصلح إلا للكفاح ضد الحاجة والعوز القاهر في كل مجالات الحياة. وما أن يخلد هذا الكفاح إلى

فترة من الهدنة، حتى تتحول هذه القدرات إلى عالة على صاحبها يستعملها استعمالا عشوائيا، وإن لم يفعل وجد نفسه فريسة للملل الذي هو مصدر آخر من مصادر الألم. لذلك، من الطبيعي جدا أن تئن علية القوم والميسورون تحت وطأة الملل، وقد توفق **لوكريس** في الوصف الدقيق والحذق لبؤس هؤلاء الذي نتأكد منه يوميا في المدن الكبرى التي تُقدِّم عنه صورا لافتة ومثيرة، يقول **لوكريس** عن هذه العيّنة من الناس: تجد الواحد منهم يغادر قصره هروبا من الملل القاتل، ثم سرعان ما يقفل عائدا خاوي الوفاض من السعادة التي كان قد خرج بحثا عنها، وتجد الآخر يفكُّ كل وثاق يربطه بالأرض ليركض ويركض كما لو كان ذاهبا لإطفاء حريق في موضع ما، لكن ما أن يقترب من هدفه حتى ينقضَّ عليه الضجر المميت، فيستسلم للنوم طمعا في نسيان نفسه، ثم سرعان ما تراه، بعد حين، يعود أدراجه إلى المدينة التي أتى منها توا. إن القدرات العضلية والجنسية لهؤلاء تؤدي الثمن غاليا أثناء شبابهم لأنهم يُفرطون في استعمالها، وعندما يشيخون، لا يجدون بين أيديهم إلا قدراتهم العقلية. وبِما أن الإرادة هي القدرة الوحيدة التي لا يتهددها شبح النضوب، فإنهم يستثيرونها إلى الحد الأقصى من خلال الإثارة المتواصلة لشهواتهم، فيُدمنون على القمار وألعاب الحظ وما شابه. عموما، كلُّ شخص متبطل لا بد وأن يملأ أوقات فراغه في انسجام مع طبيعة قدراته الذاتية الغالبة. فقد يكون شغله الشاغل هو الاستغراق في لعبة الأوتاد أو الشطرنج أو الصيد أو الفروسية أو العزف أو لعب الورق أو الشعر أو الفلسفة إلى غير ذلك من الانشغالات.

ونستطيع تناول هذه المسألة تناولا منهجيا من خلال إحالتنا على كل تمظهرات وتعبيرات الطاقة البشرية المركزة في القوى الفزيولوجية الثلاث، وهو ما يفرض تناولها خلال اشتغالها دون سعيها نحو تحقيق غايات. سوف تتبدى على هذا النحو بصفتها مصدرا للأنواع الثلاثة للاستمتاع التي يعود إلى كل واحد من بني البشر أمرُ اختيار ما يتناسب فيها مع قدراته الذاتية ورجحان كفتها على ما سواها.

في البدء، هناك متع حياتية لها علاقة بـ ***إعادة الإنتاج***، وتشمل الأكل والشرب والهضم والراحة والنوم. ومن الأقوام على هذه الأرض من يرفع هذه المتع إلى مناط المتع القومية مُستدلةً بها على مجدها، أو بالأحرى على تصورها الخاص للمجد. وهناك متع قائمة على ***الإثارة***، وتشمل الأسفار والمصارعة والقفز والرقص والمسايفة والفروسية والألعاب البطولية كالصيد والقنص والمنازلة والحرب. وفي المقام الثالث، نجد متعا لها صلة بـ ***الحساسية*** من قبيل الانقطاع إلى التأمل والتفكير والتجارب الحسية ونظم الأشعار والفن التشكيلي والدراسة والقراءة والتدبر والابتكار والتفلسف وما شابه. ولا بأس من الإدلاء بملاحظات عامة حول هذه الأنواع تخص قيمتها ودرجتها ومدتها، وهو أمر نتركه للأحكام المتباينة للقرّاء. غير أن هذا لا يمنع من القول بأن الجميع سوف يدرك بأن المتع المتحدِّرة من قدراتنا الذاتية ومن السعادة المتحصلة منها سيكبر شأنها ويشتد عودها كلما كانت قوة إعادة الإنتاج فينا من الصنف النبيل. لذلك لا أعتقد بأن أحدا سيُجادل في أن المتع المرتبطة بالحساسية ستحتل الرتبة الأولى ضمن هذه العلاقة الطردية العامة بين القدرات الشخصية والسعادة

والمتع. فالمتع المتحصلة من الحساسية لو رجحت كفتها في الإنسان ميزته تمييزا نوعيا عن الحيوان. وطبيعيٌّ أن تأتي القوتان الأخريان المرتبطتين بالجسد في المرتبة الثانية واللتين يتساوى فيها الإنسان مع الحيوان، إن لم يكن هذا الأخير يضاهيه فيهما. فالطاقة العقلية البشرية تصدر عن الحساسية، وغلبتُها في الإنسان تجعله أقدر على تذوق المتع العقلية، وتزداد هذه طرا مع الرجحان البين لكفة الحساسية[1].
فالعامي لن يهتم إلا بالأشياء التي تستثير إرادته، أي الأشياء التي يتوسم فيها مصلحته الشخصية المباشرة. غير أن كل استثارة ملحاحة للإرادة ذات طبيعة ممزوجة، فطبيعي إذن أن يمتزج فيها الألم بالمتعة. إن لعب الورق الشائع بين الناس في كل البلدان[2] هو وسيلة من وسائل الاستثارة المقصودة للإرادة من خلال تركيزها على مكاسب صغيرة جدا قد تُسبِّب خسائر إلا أنها عابرة وطفيفة لا دائمة وجادة. لذلك فهي مُدغدغة للإرادة الإنسانية أولا وأخيرا. ويبقى ذو القدرات العقلية الغالبة هو الأقدر، من دون الناس كافة، على الاهتمام الشديد بالأشياء والموضوعات بواسطة عقله الخالص والمجرد من أي أثر *للإرادة*، بل إنه يستشعر حاجة كبيرة إلى ذلك. لذلك، ينقله هذا النزوع المُلِح إلى منطقة خالية من الألم ولا تعرف عنه شيئا، ينقله إلى مدارات الآلهة الرافلين في حياة ميسرة، بينما يقضي العوام حياتهم في أجواء ملؤها الحذر والخمول الذهني، وتتجه أحلامهم وتطلعاتهم فيها إلى مصالح دنيئة ومكاسب صغيرة، غاية ما توفره لهم هو رغد العيش المصحوب بألوان من البؤس. وما أن يقضوا وطرهم ويتوقفوا عن ملاحقة هذه الأحلام، حتى يتملكهم الضجر ويُتركُون لذواتهم. إن الاندفاع الأهوج للأهواء هو وحده القمين بتحريك

العوام، بينما الألمعي القوي بتفوقه العقلي، والرافل في عالم يمور بالأفكار والخواطر ويفيض حيوية، لا تشغله ولا تسترعي انتباهه إلا الأشياء الجديرة بالاهتمام. ينصرف إليها كلما وجد وقتا لذلك، كما أنه يمتلك بداخله خزانا من المتع والمباهج الأكثر نبلا والأعلى كعبا. فالألمعي يستمد دفعته الخارجية من منجزات الطبيعة حواليه ومن الحركية البشرية، فضلا عن النتاجات المتنوعة للنوابغ عبر الأزمنة والأمكنة، والتي لن يتذوق حتى النخاع سواها لقدرته على فهمها والإحساس العميق بها. فهذه النتاجات قاومت عوادي الزمن لتصل إليه وتخاطبه مباشرة دون سواه. أمّا غيرُه من المخاطَبين العابرين، فلن يفقهوا فيها إلا النزر اليسير ونُتفا لا يكاد يجمعها رابط. وهذه الميزة تجعل الألمعي بحاجة دائمة إلى الإستزادة من العلم والتعلم والنظر والتأمل وبذل الجهد، وبالتالي فهو في حاجة دائمة أيضا إلى أوقات فراغ وتفرُّغ. وكم كان **فولتير** مُحقاً عندما قال: الحاجات الحقيقية شرط تحقق المُتع الحقيقية، والحال أن هذه الحاجات موقوفة على المتفوقين بعقولهم، تُمكّنهم من تذوق المتع والمباهج التي لا قبل للآخرين بها ولا يستطيعون إليها سبيلا. لا تعدو أن تكون مباهج الطبيعة والفن والإنجازات العقلية في أعين العامة، حتى ولو أحاطت بهم من كل جانب، ما تكونه النسوة اللعوبات في عيني شيخ بلغ أرذل العمر. فالألمعيُّ من الناس المحظوظ بطاقته العقلية يحيى حياتين، حياته الخاصة التي يشترك فيها مع عامة الناس، والحياة العقلية التي تنمو، على نحو تصاعدي، إلى أن تغدو غاية غاياته كلها، ويغدو ما عداها، في تقديره، مجرد وسيلة. بالمقابل، يجعل العوام من وجودهم التافه والموحش غاية مُناهم ومبلغ علمهم. يتحدد الانشغال المركزي

للألمعي في التماهي مع حياة الأفكار التي ترفع طـرّاً رصيده من المعارف والخبرات، كما أنه يسير بخطى ثابتة نحو مدارج التناسق والانسجام والكثافة الوجودية، بقدر ما يتشكل كوحدة متماسكة صاعدة نحو مراقي الكمال والاكتمال، شبيها في ذلك بتحفة فنية تتشكل رويدا رويدا إلى أن تبلغ مداها. وعندما نقارن حياته بحياة غيره، فلا بد أن تبدو هذه الأخيرة غاية في التعاسة والبؤس لاكتفائها بما هو عملي، وانقطاعها الكلي إلى توفير أسباب عيشة جيدة، ما يجعل هذه الحياة التي هي من نصيب العوام تنمو نموا طوليا يغيب عنه العمق، العمقُ الذي هو مناط التفوق الإنساني ومعياره الأوحد. ومع ذلك، ترى أصحاب هذه الحياة "الطولية" يتخذونها غاية في حد ذاتها، في الوقت الذي لا يعتبرها الألمعيون إلا وسيلة. فما أن تتوقف الأهواء عن تحريك الحياة العملية للناس حتى يتسرب إليها الضجر فتغدو بلا طعم، بينما تكون مؤلمة إذا كانت تحت رحمة الأهواء. لذلك، فالسعادة لا تكون إلا من نصيب الذين أُوتوا من القدرات العقلية ما يفوق حاجة إرادتهم منها، فيعيشون بفضل ذلك حياة عقلية تملأ عليهم أوقاتهم وتُسلّيهم، كما تفيض نشاطا وحيوية، وتخلو من كل أثر للألم والملل. يعيشون هذه الحياة العقلية جنبا إلى جنب مع حياتهم العملية التي يشتركون فيها مع غيرهم. غير أن التوفر على أوقات فراغ، أي على طاقة عقلية معطلة وتابعة تبعية ذيلية للإرادة أمر غير كاف، فضلا عن أنه غير مرغوب، فهي أحوج ما تكون إلى فائض إيجابي من القوة بمقدوره أن يؤهل صاحبها لانشغالات روحانية غير تابعة تبعية مطلقة للإرادة. وقد صدق **سينيكا** عندما قال بأن الراحة بلا درس ولا مذاكرة هي موتٌ تضع صاحبها في اللحد

وهو لازال محسوبا على الأحياء. فلو توفر هذا الفائض الإيجابي للإنسان، بموازاة حياة عملية عادية، لحقَّق مسيرة متدرجة ومتعددة المسارات، سواء اتخذت شكل انشغال بجمع معلومات عن الحشرات أو الطيور أو المعادن أو النقود، أو شكلا أسمى وأرفع شأنا من قبيل الانشغال بالإنتاجات الرفيعة كالفلسفة والشعر. فالحياة العقلية لا تقي صاحبها من ويلات الضجر فحسب بل ومن عواقبه الوخيمة، كما تضعه بمنأى عن رفاق السوء وشتى المخاطر والخسائر والآلام التي قد تلم به وهو على طريق بحثه عن السعادة الكاملة في حياته العملية. أعترف، شخصيا بخصوص هذه النقطة، بأن فلسفتي لم تجلب لي الشيء الكثير، إلا أنها وفرت عليَّ الوقوع في الكثير من هذه المخاطر والآلام والخسائر.

أما العامي فتحُدُّه الأشياء الخارجية خلال بحثه المحموم عن المتع والشهوات من قبيل الثراء والمكانة والأسرة والأصدقاء والمجتمع وما شابه، فكل هذه تحجب عنه النظرة البعيدة، عليها يُقيم صرح سعادته الذي سرعان ما ينهار بالكامل عندما تحيق به خسارة أو تصيبه إحباطات وتُطوِّقه خيبات أمل. يجوز القول عن هذا الشخص وأضرابه بأن نقطة جاذبيتهم تقع خارجهم، لذلك لا عجب إن كانت أمانيهم ونزواتهم لا تستقر على حال ولا يقرُّ لها قرار. فإذا ابتسم الحظ لأحدهم، بادر إلى اقتناء إقامات فاخرة أو خيول جميلة أو إلى إقامة الحفلات والولائم والقيام بأسفار، وفي كل هذه الحالات، يكون حريصا أشد الحرص على التباهي بمظاهر البذخ باحثا فيها عن إشباعات خارجية، مَثلُه كَمَثلِ الكليل المنهك الذي يبحث عبثا عن الصحة والعنفوان المفقود في العقاقير والمخدرات الصيدلية،

غافلا عن أن مصدر هذا العنفوان إنما هو القوة الحية المنبعثة من دواخله. وحتى لا نمرَّ مباشرة إلى النقيض، لِنضرب مثلا بشخص ذي مؤهلات عقلية متوسطة تتجاوز بالكاد المعدل العادي والكافي، فما أن تنضُب المصادر الخارجية لمتعه وشهواته، أو تعجز عن إشباع حاجياته حتى ينبري إلى الاهتمام بفرع من فروع الفنون الجميلة أو بعلم من علوم النبات أو المعادن أو الفيزياء أو الفلك أو التاريخ بحثا فيها عن مصادر بديلة للمتعة والتسلية. في هذه الحالة، يجوز القول، دون مماحكة، بأن مركز جاذبية هذا الرجل بات يقع، جزئيا، بداخله. هذا مع العلم بأنه شتان ما بين الهواية التي يمارسها والقدرة على الإبداع والعطاء في علم من العلوم. فالعلوم تقتصر على دراسة الروابط بين الظواهر، ولا تتعداها إلى استيعاب الإنسان في كليته والتعمق في كينونته، وبالتالي التماهي مع نسيجه الوجودي قصد استخلاص معطياته وإبراز أهميتها. فتلك مهمة موكولة، حصريا، للنابغة، أي لذلك الشخص الذي درجنا على تسميته بالموهوب والعبقري أو الألمعي، هو وحده القادر على التناول الكلي والشمولي للمسألة الوجودية وماهية الأشياء والتعبير عبر عنها بما يتناسب مع توجهه الفكري من خلال تصورات أصيلة وعميقة تتوزَّع بين الفن والشعر والفلسفة. فالشخص من هذه الطينة، ومن هذه الطينة وحدها، هو الذي يَعتبر انشغاله المتواصل بذاته وبأفكاره وخواطره أمرا في غاية الأهمية، لا بلِ وحاجة لا سبيل لدفعها، حاجة لا يستطيع عليها صبرا. العزلةُ يستقبلها بالأحضان، ووقتُ الفراغ يعتبره خيرا أسمى، وما سواهما لا يلقي له بالا ومستعد كل الاستعداد وفي كل وقت للاستغناء عنه وطرحه جانبا. أما إن أتاه مهرولا ليقع بين

يديه فسيعتبره عالة، نعم عالة يسعى للتخلص منها بأسرع ما يمكن. هذا الشخص وحده يجوز أن نقول عنه بأن ***مركز جاذبيته يقع بالكامل داخله***. وطبيعي تماما إن كان هو وأمثاله لا يهتمون اهتماما حميميا ومبالغا فيه بأصدقائهم وعوائلهم والخيرات العامة كما يهتمُّ غيرهم، فهم أقدر الناس على الاستغناء في نهاية المطاف عن كل شيء ونفض أيديهم من أي شيء ما داموا يملكون ذواتهم ويمسكون بزمامها. في قرارة أنفسهم، يوجد عنصر عازل هو من القوة والحيوية بحيث يجعل الآخرين عاجزين بالمرة عن إرضائهم على الوجه الأكمل. لذلك، لا يعتبروهم أقرانا لهم أو أندادا، ويتملكهم شعور دائم باختلافهم النوعي في كل شيء عمّا عداهم. يحدثُ أن يقع بصرك عليهم وهم وسط الناس، فإذا بك تراهم تائهين وشاردين دون إحساس منهم بذلك، كما لو كانوا من كوكب آخر، وفي غمرة تأملاتهم يُكثرون من استعمال ضمير الغائب "هو" ويستنكفون عن ضمير الجمع "نحن".

من هذا المنظور يكون الألمعي أسعد الناس كافة لأن حياته تُوجِّهها المُسلَّمة التي انطلقنا منها، والتي تَقرَّر من خلالها أن ما يتوفر عليه الإنسان في داخله أغلى وأعظم من الموجود خارجه أو مما قد يأتيه من خارج. فالخارجي هو ***الموضوعي*** الذي لا قِبَل له بتأثير يمارسه إلا بواسطة الآخر أي من خلال ***الذاتي***. لذلك، فتأثيرُ الموضوعي على الإنسان، أي على الذاتي، يظل أمرا ثانويا، وهي الفكرة ذاتها التي عبَّر عنها هذا المقطع الشعري لـ **لوسيان**:

غِنى الروح هو الغنى الأوحد،

وما سواه ينغل بالألم.

فالذي ينعم بغنى النفس لا يطلب من العالم الخارجي كله إلا عطاء سلبيا، أي تمكينُه من أوقات فراغ وتفرغ ليتسنى له تطوير وتجويد ملكاته العقلية ومقدراته الفكرية، والاستمتاع بخيراته ونعمه الجوانية (أو الذاتية). معنى ذلك أنه لا يطلب طيلة حياته، وفي كل وقت وحين، إلا حرية القدرة على أن يكون ذاته، فهذه هي غاية مطالبه ومنتهى مناه. فلا وجود، لِمَنْ قُيِّض له بأن يترك أثره الفكري في حياة الناس، إلا لسعادة واحدة وتعاسة واحدة. أما سعادته فهي قدرته على تطوير وتجويد مواهبه وإنهاء أعماله وإيصال مشاريعه الفكرية إلى برِّ الأمان، بينما تعاسة هي أن يَحُولَ حائلٌ دون ذلك. وما عدا ذلك فهو من التوافه التي لا تستحق العناء. لهذا السبب، كان النوابغ في التاريخ كله يسحبون قيمة عليا على أوقات فراغهم وتفرُّغهم، فقيمة الإنسان عندهم تُقاس بالقيمة التي يسحبها على هكذا أوقات.

يقول **أرسطو**: تُنال السعادة في أوقات الفراغ، وينقل **ديوجين الأيرسي** عن **سقراط** أنه كان يعتبر وقت الفراغ أعظم وأجمل ثروة. ولا شك أن **أرسطو** كان يستحضر هذه الفكرة عندما قال في كتابه ***السياسة:*** حياةُ الفيلسوف هي أجمل حياة، قبل أن يُضيف: إن السعادة الحق تتأتَّى من قدرة الإنسان على ممارسة مواهبه بمنتهى الحرية. ويقول **غوته**: من وُلد بموهبة وكرَّس لها كل حياته، فستمنحه أجمل حياة على وجه الأرض.

غير أن التوفر على أوقات فراغ وتفرغ ليس من الأمور المتيسرة في الحياة العادية لبني البشر، إذْ حكمت عليهم الطبيعة بأن يقضوا جل أوقاهم بحثا عن الضرورات الحياتية والعائلية. فالإنسان هو أولا

وأخيرا ابن للبؤس وليس عقلا حرا. لذلك، من الـوارد أن تكـون أوقات الفراغ، بالنسبة لمعظمهم، عالة حقيقية قبـل أن تتحـول إلى عذاب أليم إن هم فشلوا في ملئها باهتمامات خيالية أو مفتعلـة، أو باللهو واللعب وانشغالات مُفضَّلة عند هؤلاء وأولئك، وهـذا مـن شأنه أن يجلب عليهم مخاطر شتى وتترى. بالمثل، فالقدرات العقليـة المفرطة ظاهرة غير طبيعية، إنْ كانت من نصيب الألمعي الموهـوب، فلابد أن يحتاج إلى أوقات فراغ زائدة حتى يتحصـل منـها علـى سعادته، أوقاتٌ ستكون، في موازين غيره من عديمي الموهبة والتألق، مزعجة ومشؤومة، في حين سيكون الألمعي أتعس الناس لو افتقـدها وأعوزته. لكن، لو اجتمع هذين الاستثناءين في شخص واحد، فكنْ على يقين بأنهما سيهبانه السعادة القصوى، إذ يغدو بفضلهما محظوظا ومندورا لحياة من الطراز الرفيع، حياة خالية من المصدرين المتعارضين للمعاناة الإنسانية، وهما الحاجة والضجر. كما سيغدو هذا الشخص في حِلٍّ من الكدح الإنساني المعهود لأجل إشباع الحاجات الأساسية، وفي حِلٍّ من حال العجز عن تحمل وإطاقة أوقات الفـراغ بصـفتها وجودا خاليا من أي اهتمام أو انشغال. وبعبارة أخرى، فالإنسان لن يتخلص من قبضة هذين الشرّين المُتربصين به إلا بتحييدهما وإبطـال مفعولهما على نحو متبادل.

وعلى الضفة الأخرى، يتوجب الإقرار بأن النشـاط الـذهني المكثف من شأنه إثارة القدرات العقلية الكبيرة التي تهيج، بـدورها، القدرة على الإحساس بالآلام، والمسؤولة عن رفد صـاحبها بمـزاج متوتر ملازم له وحيوية مفرطة وإدراك متقدم للأشياء. وهذا كله يمده بانفعالات قوية متمخضة عن عنف داخلي مفرط وغـير متناسـب.

والحال أننا نعرف بأن الانفعالات المؤلمة أوفر عددا وكثافة من مثيلاتها الممتعة.

أخيرا، لابد من الإشارة إلى أن القدرات العقلية الرفيعة تجعل صاحبها غريبا عن عالم الناس وجلبتهم وتدافعهم، لأنه يدرك حق الإدراك بأنه كلما امتلك أكثر في داخله إلا وازداد استغناءه عنهم. فالكثير من الأشياء التي يجد فيها الناس متعتهم القصوى وغاية مناهم تتبدى، في موازينه، تافهة بله مُنفِّرة. وقد تكون قاعدة التعويض الفاعلة في كل مجالات الحياة فاعلة أيضا في هذه المسألة. فألسُنُ الناس لا تكف عن ترديد الكلام القائل بأن "أخ الجهالة" هو الأسعد، لا بل وفي الشقاوة ينعم، وهو كلام لا يخلو من صحة. لكن لن يحسده أو يغبطه على مثل هذه السعادة من يمتلك ذرّة عقل.

لا أريد أن أستبق القارئ وأُقترح حلا نهائيا للجدل الدائر حول مدى اقتران الجهل بالسعادة والعلم بالشقاوة، خصوصا وأن لـ **سوفوكل** رأيين متعارضين في هذا الباب؛ فهو يقول من جهة: الحكمة هي المصدر الأول للسعادة، ومن جهة أخرى يقول أيضا: سحرُ الحياة وفتنتها من نصيب الذين لا يفكرون. كذلك الفلاسفة الأقدمون لا يُجمِعون على رأي واحد حول هذه النقطة، فتجد أحدهم يقول مثلا: الموت أفضل من حياة الأحمق، وتجد آخر يقول رأيا مخالفا: حيثُ تكثر الحكمة يكثر الألم.

وفي انتظار التوسع في هذه النقطة، لا بأس من التنويه إلى أن كلمة Philister، والتي لا نجدها إلا في الألمانية، تدلُّ، تباعا، على البرجوازي والبقال والفلستيني. غير أن معناها الدقيق هو الإنسان ذو القدرات العقلية المحدودة جدا إلى الحد الذي تعوق فيه إحساسه

وقدرته على التفاعل مع حاجات روحانية ومعنوية فيغدو كائنا خاليا ومجردا منها تماما. وقد كانت هذه الكلمة محصورة التداول في أوساط طلاب العلم قبل أن تتوسع دلالتها لتشمل عموم الذين لا يتحدرون من رحم *ربّات الفن*، والمحكوم عليهم، لهذا السبب، بأن يظلوا أبد الآبدين من العوام والتافهين ومن زمرة البرابرة. ولا أرى غضاضة في توسيع دلالة ***الفلستيني*** لتشمل المُنشغلين انشغالا مغاليا أناء الليل وأطراف النهار بواقع متعدد، متكاثر وغير متجانس. غير أن هذا التعريف الترانسندنتالي لا يتناغم، بالتأكيد، مع المنظور الشعبي المُحايث الذي أتموقع فيه بهذا البحث، وبالتالي سيكون فهمه عصياً على القراء. وهذا خلافا للتعريف الأول المُيسّر والذي يُحيل على الجذر اللغوي الأصلي الذي انبثقت منه وتفرعت عنه كل خصائص ***الشخص الفلستيني***، إذ يحيل، حصريا، على ***الشخص المجرد من الحاجات الروحانية***. وتترتب عنه نتائج عدة، أولها أن هذا الشخص يفتقر، في علاقته بذاته، لـ ***متع ومباهج روحية***، والحال أن ***المتع الحقة ممتنعة دون حاجات حقة*** كما قالت بذلك حكمة مركزة تقدَّم ذكرها.

تغدو حياة هذا الشخص خالية تماما من أي تطلع إلى اكتساب معارف وبلورة أحكام حول أشياء هذا العالم ترفدها بما هي في حاجة إليه من حيوية وعنفوان، ولِخلوٍّ هذه الحياة من مثل هذه التطلعات، فإنها ستخلو أيضا من أي توْق إلى ***المتع الجمالية***، فثمة رابطة وثيقة بين هذه التطلعات وذلك التوق. وعندما تجبره الموضة العابرة أو إكراه من الاكراهات على التفاعل مع مثل هذه المتع التي تفوق مداركه، فإنه لا يتحرج من استعجال التخلص منها كما يستعجل المحكوم بالأشغال

الشاقة التخلص من محكوميته. فقد أخذت منه المتع الحسية كل وقته واهتماماته، فباتت شغله الشاغل وديدنه، لا يتوقف عن اللهاث خلفها ومطاردتها. لذلك، لا غرابة إن كانت الشمبانيا والمَحَار هما أعز ما يُطلب في وجوده كله، وكذلك اللهاث، بلا هوادة، خلف أسباب الرغد المادي؛ هي ذي غايته الوحيدة يكون أسعد الناس عندما تشغله بما فيه الكفاية! ولو وُهِب هذه الخيرات دون أن يبذل جهدا في الحصول عليها سقط توا تحت رحمة الضجر المميت. وحتى يطرده من حياته يندفع بحثا عن تحقيق كل الشهوات التي تراوده من حفلات راقصة ومسرح واختلاط بالناس ولعب الورق وألعاب الحظ وركوب الخيل ومعاشرة النسوان ومعاقرة الخمرة والاندفاع نحو الأسفار إلى غير ذلك من الملاهي. ولن يكفيه ذلك كله بل سيستزيد من المتع الحسية العابرة درءا للملل ودفعا للضيق. إلا أن الغائب الأكبر في كل هذه المتع هو مباهج الروح والعقل المتمنعة دون توافر حاجيات عقلية وروحية. لذلك، فالفلستينيُّ يغلب عليه جِدٌّ متجهم وجاف مماثل لنظيره عند الحيوانات. فلا شيء يبهجه ويحرك دواخله ويثير اهتمامه. وحدها المتع المادية تنجح في ذلك، والتي ما أن يقضي وطره منها بسرعة خاطفة حتى يلهث وراء الاختلاط بالناس الذي يقوده رأسا إلى الوقوع في الملل، فيُجرِّب لعب الورق ثم يتعب منه لينتقل إلى تجريب شهوة الغرور والتباهي باحثا عنها في كل مكان من خلال حرصه الشديد على التنافس على الثروة والمكانة والنفوذ والسلطة أملا في التفوق على مُنافسيه وكسب تقدير الناس. وقد يقنع، بدل ذلك، بالتقرب ومعاشرة المتوفرين على هذه الامتيازات والعيش في ظلهم كي يظهر بمظهرهم، وهذا ما نسميه ***تنفجا***.

النتيجة الثانية الملازمة لشخص الفلستيني لها علاقة بصلته بالآخرين. فبما أنه يفتقد للحاجات العقلية، وتتمحور كل انشغالاته حول الأمور المادية، فليس له إلا أن يلهث وراء كل الذين يتوسم فيهم إشباعها طالما أن الحاجات العقلية لا تعني له شيئا. ففي حضرة أهل المزايا العقلية والمناقب الفكرية، تجده متبرما، ممتعضا، بل قد يقطر كرها لهم لأنهم يذكِّرونه بدونيته ويثيرون حسده الأعمى الذي يُخفيه بعناية إلى أن يكبر ويكبر فيغدو سُعارا أصما. فالفلستيني لا يقيس الإعتبار والتقدير بالتوفر على تلك المزايا والمناقب، بل يقيسه بالجاه والثروة والسلطة والنفوذ التي هي مزاياه الوحيدة الجديرة بأن يبذل في سبيلها قصارى جهده ووقته. والسبب يكمن في خلوّه الكامل من الحاجات العقلية والاهتمامات الفكرية، بل إن معاناته القصوى مصدرها، قطعا، هو هذه الأمور العقلية المجردة الذي هو أعجز ما يكون من أن يستخلص منها أي تسلية. لذلك، تجده هاربا منها ولاهثا خلف الوقائع، وفي هروبه منها هروب من الملل الذي تُسبِّبه له.

غير أن المشكل يكمن في أن هذه الوقائع سرعان ما تَفرغُ ما بجعبتها فتُتْعِبه بدل أن تسليه. ذلك أن اللاهثين خلفها لا يجنون منها إلا المصائب والنوائب، عكس الأمور العقلية المجردة (المُثُل) التي لا ينضب معينها فضلا عن أنها مأمونة الجانب.

أنوه إلى أنني، طيلة هذا المبحث حول الشروط الذاتية لتحقق السعادة، تعمَّدتُ التركيز على المزايا العقلية والبدنية. أما الرقي في مدارج الكمال الأخلاقي والمعنوي، والذي يساهم بقسطه المؤكد في السعادة الإنسانية، فسيجد القارئ عرضا شافيا وكافيا عنه في بحثي حول *أسس الأخلاق*.

الفصل الثالث

سؤال الحيازة

أو ما لنا

قسَّم **أبيقور**، وهو من كبار المتخصصين في مبحث السعادة، الحاجات الإنسانية تقسيما رائعا من خلال تحديده لها في ثلاثة أنواع:

1- ***الحاجات الطبيعية والضرورية***، إن لم تُشْبع كانت مصدرا لآلام، وتشمل الحاجة إلى الغذاء والكساء وكل الحاجات الأخرى التي يتيسر إشباعها.

2- ***الحاجات الطبيعية غير الضرورية***، وتشمل الحاجة الجنسية، حتى وإن لم يذكرها صراحة كما لاحظ ذلك **ديوجين الأيرسي**، وهي حاجة غير مُتيسِّرة الإشباع دائما.

3- ***الحاجات غير الطبيعية وغير الضرورية***، وتشمل الحاجة إلى الترف والبذخ والإحساس بالعظمة والأبهة وما شابه، وإشباعها غير متيسر فحسب بل بالغ الصعوبة.

من الصعب جدا بل ومن المستحيل تصور حدود معقولة للرغبة الإنسانية في الثروة. لذلك يتفاوت الناس في درجات الرضى عمَّا يملكونه، لأن الملكية من عدمها لا تُقاس بكمية مطلقة، بل بمقادير نسبية تتحدد من خلال العلاقة الموجودة بين الأماني والثروة. فالثروة بحد ذاتها مجردة من المعنى، كما هي مجردة منه في الرياضيات صورة الكسر في كسرة بلا مقام كسر. فالخيرات التي لم يُحدِّث شخص نفسه بها، ولا تمنَّاها في قرارها، لن يشعر بانْحرامه منها حتى ولو غابت عنه، بل سيشعر بالرضى الكامل حتى في غيابها. أما غيره ممن يملك من الخيرات أضعافا مضاعفة، فستتملَّكه التعاسة لأن شيئا

واحدا مما تمناه واشتهاه يُعوزه في حياته. معنى ذلك، أنه في سياق علاقة الناس بالخيرات والنِّعم، كل واحد يحُدُّها بأفقه الخاص وتطلعاته الذاتية بحيث لن تبرح أبدا هذا الأفق المحدد والتطلعات المرسومة. وما أن يُحقق الإنسان أمنية أو يتحصل على مطمع يقعان، موضوعيا، داخل هذه الحدود المرسومة، حتى تغمره الفرحة وينتابه السرور. أما إن اعترضه عائق على طريق تحصيل مطمعه أو تحقيق أمنيته، فستجتاحه تعاسة ضاغطة. وكل ما لا يقع داخل هذه الحدود المُسيَّجة بالمطامع والأماني، فلا تأثير له عليه. إن الثروة الطائلة للميسور لا تُكدِّر صفو الفقير، كما أن كل الثروات التي يملكها لن تجديه نفعا ولن تكون له عزاءا عندما يفشل في الحصول على مطمع أو مطمح أو يخيب أمله في تحقيق أمنية. وكم هي صادقة الحكمة القائلة: الثروة كالماء الأُجاج، كلما شربنا منه أكثر زاد عطشنا، وهو ما ينطبق على حاجة الإنسان إلى المجد.

وعندما يُبدِّد شخص ثروة كانت بحوزته، فيخرج من حال اليُسر التي كان يرفل فيها، وينهض بالكاد من الألم الذي سبَّبه له ذلك، فإن مزاجه المعتاد سيظل على ما هو عليه، ولن يطاله تغير إلا على نحو تدريجي، أي بعد أن يتقبَّل الخسارة تقبلا داخليا، ويتوقف عن اللهاث وراء الحيازة ومراكمة الثروة، فيُحجِّم بذلك شهوة المال والإغتناء المنغرسة بداخله. وهنا يقع الجانب المؤلم جدا في كل ألم يلمّ به هو وأضرابه. لكن، ما أن ينجح في تحقيق هذا التحول الداخلي حتى تخفّ وطأته إلى أن تخبو جذوته فيلتئم الجرح.

في الاتجاه المعكوس، نلاحظ كيف أن حصول حدث سعيد في حياة الإنسان مرادفٌ لزيادة وتسارع في وتيرة غلواء أطماعه وأمانيه

واتِّساع دائرتها. ومن هذه العلاقة الطردية تتخلَّق اللذة أو المتعــة. إلا أن الإحساس بهذه اللذة لا يدوم أكثر من المدة التي تستغرقها هــذه العملية، أي تحصيل اللذة والمتعة. لكن، لو تمرَّن الإنسان، تــدريجيا، على التحرر الداخلي من هذه المطامع والمطامح، فسيغدو، في النهاية، غير مبال بها بالمرة، وسيزهد فيها وفي كل ما تجلبه إليه من خــيرات مادية. وهذه الفكرة العامة إختصرها، وبشكل رائع، بيتان شــعريان لــ **هوميروس:**

هو ذا قدرُ الفانين على هذه الأرض،
قدرُهُمْ أن يشبهوا الأيام في تداولها،
أيامٌ نسج خيوطها ربُّ الأرباب
والناس كافة!

إن المجهود الذي يبذله الإنسان للرفع من سقف مطامعه ومطامحه هو مصدر كل مشاعر السخط والإستياء التي تُخالجه، ذلك أن هــذا المجهود الجبار غالبا ما يصطدم بعقبات تعترضه، وتحُولُ دون الوصول إلى مُراده. فلا غرابة إذن إنْ كان الناس في غدوّهم ورواحهــم، في كدحهم وتدافعهم يحبون المال حباً جمّا، ويرفعون مــن قــدره لأن حياتهم يسحقها الفقر والعوز، وتمور بالحاجات المرغوبة والمشــتهاة. فحتى السلطة لا قيمة لها في موازينهم إن لم تجلب لهم مالا وثــروة. ليس لنا أن نندهش بعد ذلك عندما يضربون عرض الحــائط بكــل الاعتبارات الأخلاقية في سعيهم المحموم نحو كسب المال والإســتزادة منه. ليس لنا أن نندهش، مثلا، عندما نرى بأم العين أساتذة الفلسفة وهم يَعْرِضُون فلسفتهم للبيع طمعا في المال. فقد جرت العادة علــى لوم الناس على لهاثهم وراء كسب المال وحبهم الشديد له، وإيثارهم

له على ما سواه والحال أن الأمر طبيعي جدا. فكيف لا يُحبونه كل هذا الحب، وهو كالبطن التي لا يتوقف حملها، حاملٌ هي بواحد بعد آخر في إشارة إلى الأشياء المرغوبة التي لا يحُدُّها حدّ ولا يُكبِّلها قيد، وقادرة على إشباع وإرضاء كل الحاجات التي يطمع النـاس فيهـا ويلهثون وراءها؟

فكلٌّ الخيرات والنعم على وجه الأرض لا تُرضـي إلا رغبـة واحدة وحاجة مفردة. الطعام يشبع الجوع، والخمر يـوفر صـحة جيدة، والأدوية تشفي الأمراض، والفروة تقي من الـبرد القـارس، والنساء يشفين غليل الشباب المتقد، وهلم جرا. معنى ذلك أن كـل الخيرات جيدة نسبيا. وحده المال هو الخير المطلق لأنه لا يُشبع حاجة ملموسة واحدة، بل يُرضي كل الحاجات والشـهوات، الحاجـات هكذا بإطلاق.

فالمفروض في الثروة التي يمتلكها الإنسان أن تدرأ عنـه العـدد الهائل من الشرور والآلام التي تتربص به الدوائر، لا أن تتحـول إلى ذريعة تدفعه دفعا نحو تعقب الشهوات لأجل امتلاكها. فالناس الذين يجنون أموالا طائلة من كدحهم وكدهم واستثمار مواهبهم، ولـيس من إرثٍ ورثوه عن أسلافهم، يتوهمون بأن هذه المواهـب رأسمـال ثابت، ولا تعدو الأموال التي يجنوها منه أن تكون فوائد مستخلصـة منه. ولهذا، تجدهم لا يوفرون مما كسبوه ليخلقوا به رأسمالا إحتياطيا، فينفقون بقدر ما يكسبون لينتهوا إلى نفق العوز والفاقة ما أن ينضب معين مداخيلهم ومواهبهم. تلك المواهب المماثلة لمثيلاتها في الفنـون الجميلة والتي ينضب معينها بنضوب الظروف الخاصة التي جعلتـها مُنتجة ومربحة في وقت من الأوقات. فالصناع، مثلا، بوسعهم إتّباع

هذا النمط الحياتي لأن المهارات التي تتطلبها حرفهم لا تندثر بسهولة، وتتطلب وقتا طويلا حتى تُعوِّضها وتُزاحمها مهارات المتعلمين، هذا فضلا عن أن مصنوعاتهم تظل لمدد طويلة من الضروريات التي يصعب أن يستغني عنها الناس. وهناك مثلٌ ألماني يقول بهذا الخصوص: الحرفة الجيدة تُقَدَّر بالذهب. مع الإشارة إلى أن هذه القاعدة لا تنسحب على كل الحرفيين والصناع. لذلك، فهم يتقاضون أجورا باهظة يحوِّلونها، شيئا فشيئا، إلى رأسمال إحتياطي ثابت، يتصرفون فيه بصفته فائدة لا غير، فيسعون بذلك إلى خسارتهم بأيديهم وأرجلهم. أما الذين ورثوا ثروة، فيدركون جيدا الفرق بين الرأسمال والفوائد، ويحرصون من ثمة أشد الحرص على توفير الرأسمال وادِّخاره، بل قد يدَّخرون ويوفرون حتى أرباحهم، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ليواجهوا بها أي أزمة مالية متوقعة. وبذلك، فهم يرفلون دائما في حياة يطبعها اليسر والسعة. والأمر خلاف ذلك مع التجار الذين يتصرفون في المال بصفته وسيلة للتربُّح أو أداة مهنية، فإن جنوه من عملهم وعرق جبينهم وظَّفوه في مجالات أخرى لأجل الحفاظ عليه أو تكثيره. وهذا ما يفسر شيوع الهوس بالإغتناء في أوساط التجار مقارنة مع الطبقات الاجتماعية الأخرى.

عموما، كل الذين سبق لهم أن إكتووا بنار البؤس، وذاقوا مرارة الحاجة لا يخشونها كثيرا، فيبذِّرون المال يمينا وشمالا، عكس الذين لا يعرفون عن البؤس والحاجة إلا ما تلوكه الألسن. ينتمي إلى الفئة الأولى كل الذين انتقلوا بسرعة فائقة من الفقر إلى اليسر بفضل الثروة أو مواهب خاصة، وينتمي إلى الفئة الثانية الذين ورثوا الثروة فعضُّوا

عليها بالنواجذ، فهم أخوف على مستقبلهم، ما يدفعهم إلى الإقتصاد الشديد في الإنفاق.

معنى ذلك أن الحاجة ليست شرا مطلقا، كما قد يظهر للوهلة الأولى، الأمر وما فيه أن الوارثين لثروة يعتبروها ضرورية ضرورة قصوى لوجودهم كما الهواء ضروري للحياة، فيحرصون من ثمة أشد الحرص على معاشهم، ويُخضعون نمط عيشهم لتنظيم دقيق، كما يتأهبون لمواجهة كل الإحتمالات التي قد تأتي بها الأيام من خلال إدّخارهم لأموالهم. أما الذين عاشوا في الفقر منذ ولادهم، فينظرون إليه كأمر طبيعي جدا، الغنى، في تصورهم، قد يبلغونه عاجلا أم آجلا، وفي كل الأحوال ليس إلا كماليات تصلح للاستمتاع أو للتبذير والتبديد. لسان حالهم يقول: حتى ولو غابت الثروة وولت الأدبار، فسنعيش بدونها كما ألفنا دائما، ونتحرر بذلك من الهم والغم الملازمين لها. وقد يكون هذا المعنى هو الذي قصده **شكسبير** بقوله: من ألِف التسول على ظهر دابته، فسيمتطيها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة.

نضيف إلى ما تقدم أن هؤلاء يثقون ثقة مفرطة في عقولهم وأفئدهم، وفي الحظ الباسم الذي ينتظرهم دائما بزعمهم، وفي قدراهم الذاتية التي مكّنتهم من التخلص من مذلة الحاجة وكلكل العوَز، كما أهم لا يتصورون البؤس كهوة سحيقة سيتردَّوْن فيها بين الفينة والأخرى، خلافا لأغنياء الولادة والوراثة. فكل شيء، في عرفهم، لا يعدو أن يكون عتبة يكفي تخطيها للبروز على السطح. وهذه القاعدة العامة هي التي تفسر تطلّبية الزوجات المتحدرات من أوساط فقيرة، وميلهنَّ المفرط إلى التبذير مقارنة مع اللائي دُفع لهن

مهر باهظ من بنات العائلات الميسورة. فالفتيات الميسورات حريصات، أشد الحرص حتى بعد زواجهن، على ثروتهن في ما يشبه سلوكا غريزيا ووراثيا مقارنة مع الفتيات الفقيرات. وعلى كلّ من إعترض على ذلك، أقترح الإستئناس بهذه الكلمات التي فاه بها الدكتور **جونسون**: وبما أن المرأة الميسورة إعتادت على التصرف في المال، فإنها تعتدل في إنفاقه، عكس المرأة التي صارت زوجة فوجدت، فجأة، بين يديها ثروة مطالبةٌ بتدبيرها، فهي تجد متعة لا تضاهيها أخرى في الإنفاق وتوزيع المال يمينا وشمالا". في كل الأحوال، أنصح المتزوج من فقيرة أن يترك لها إيرادا تعتمد عليه بقية حياتها ولا أنصحه أن يُورثها رأسمالا، وعليه، بخاصة، ألاّ يأتمنها على أموال أبنائه وبناته.

ولا أعتقد بأنني أكتب شيئا غير لائق عندما أنصح كل مُطالبٍ بالحفاظ على ثروته بوجوب التقيد بذلك، سواء حصل عليها من كد يديه أو ورثها. فالحصول على ثروة كاملة هو من النعم الكبرى التي لا تُقدَّر بثمن، حتى ولو لم تُوفّر لصاحبها إلا عيشته وبلا أسرة ولا ارتباطات. فهي كفيلة بأن تجعله يرفل في حياة يسر وسعة، وتوفّر له بسطة في العيش واستقلالا حقيقيا يُعفيه من وعثاء الشغل. فهذه الثروة هي السد المنيع والحصن الحصين ضد احتمالات الوقوع في البؤس ومظاهر المعاناة التي تتربص ببني البشر، كما أنها الضمانة الوحيدة للتحرر من أعمال السخرة والأشغال الشاقة التي هي القسمة المشتركة بينهم على هذه الأرض. فهذه النعمة التي يجود بها الحظ هي الكفيلة بأن تجعل منك ذلك *الرجل الذي وُلِد حرا*، الرجل الذي هو سيد وقته وقواه، ويستطيع أن يقول كل صباح لنفسه: اليوم مِلْكي.

لذلك، ثمة فرقا طفيفا جدا بين يملك إيرادا قدره مئة ريـال فرنسي قديم، ومن يملك إيرادا قدره مئة ألف، مماثل للفرق الموجود بين الأول والثاني. أما الثروة المتحصلة من الإرث فتعظم قيمتها وتتضاعف نعمتها إن كانت من نصيب شخص حبَتْهُ الطبيعة بقدرات عقلية متفوقة، إذ من شأنها أن تُمكّنه من تحقيق مشاريعه التي لا تتلاءم مع مزاولته لشغل يتعيَّش منه. فلو إجتمع هذين الشرطين لهذا الشخص، فسيكون محظوظا مرتين، وما عليه بعد ذلك إلا أن يتفرغ كلية لتنمية ذكاءه وإذكاء نبوغه وصقل مواهبه، وبذلك سيردُّ دَيْنَه أضعافا مضاعفة إلى البشرية من خلال إنتاجاته الفريدة وإبداعاته المميزة التي ستُشرِّف البشرية أيما تشريف وترفع رأسها عاليا، وستكون مدينة له، بالمقابل، بما بذله في سبيل رفعتها. أما من ورث تركة ولم يستفد منها ليُفيد البشرية، ولو على سبيل المحاولة، ولم يُساهم بشيء في تقدم العلوم من خلال إنجاز دراسات وأبحاث جادة، فهو شخص كسول وممقوت بكل المقاييس ولن تكون السعادة أبدا من نصيبه لأن تحرُّره من الحاجة سيقوده، حتما، إلى الضفة الأخرى للبؤس البشري، أو بالأحرى إلى وجهه الآخر وهو الضجر الذي سيذيقه الأمرّين. لكنه سيكون أسعد الناس لو فرضت عليه الحاجة الدائمة التفرغ الكامل لأحد الانشغالات الحياتية. أما من وقع في براثين الضجر، فسينتهي به الأمر، حتما، إلى تبديد ثروته مُقدِّما بذلك الدليل على أنه ليس أهلا لها ولا جديرا بها. فمعظم الناس لا يقعون بين مخالب العوز والعسر إلا لأنهم بذَّروا الأموال التي كانت بين أيديهم حينما كانوا يبحثون عن عزاء مؤقت من ضجر ضاغط، فلهثوا وراء الشهوات والمتع العابرة التي يتلقفونها حيثما وجدوها.

وكان الأمر سيكون خلافا لذلك تماما لو كان الشخص الذي هو في هذا الوضع قد حدّد لنفسه هدفا أسمى، من قبيل تقديم خدمات للدولة والحصول لقاء ذلك على الحظوة والأصدقاء والعلاقات التي ستمكنه من الوصول إلى المناصب العليا. أما إنْ كان هذا هو قدَرُ المرء وغاية مُناه في هذه الحياة، فمن الأفضل ألا يأتي إلى هذا العالم صِفْر اليدين. ومنْ لم يُؤْتَ من النبالة شيئا وكان ذا موهبة، فأفضل له أن يبدأ حياته فقيرا، مُعدما، بل تلك وصيةٌ نوصيه بها.

فكلٌّ واحد من بني البشر، إنما يرجو ويبحث عن السبل التي تُمكّنه من استرقاق غيره ووضعه في حالة من الدونية، وهو ما يظهر جليا ليس فقط في المناقشات العابرة، بل وفي السياق العام للخدمة العمومية. والحال، وحدَهُ المعدم واثقٌ حتى النخاع من دونيته المتأصلة من خلال كل علاقاته، وواثقٌ أيضا من أنه لاشيء، صِفرٌ على الشمال على نحو ما قضت به عليه ظروف الحياة وملابساتها. وحدهُ المُعدَم متعوِّد على الإنحناء حد الركوع، وحده يُكابد ويعاني والابتسامة لا تفارق شفتيه، وحده يجود على غيره من الميسورين بالمدح التكسُّبي الرخيص وبأعلى صوته وعلى رؤوس الأشهاد. وبأفخم الحروف المكتوبة يجود بالمديح نفسه على كل الحماقات الأخلاقية لرؤساءه أو لُمتنفّذين من كل حدب وصوب، وحدهُ لا يجد حرجا في الإستجداء. لذلك، فهو من ألِف واستساغ منذ يفاعته هذه القناعة العميقة والمغمورة التي كشف عنها **غوته** والتي يقول فيها:

رجاءً، لا تشتكُوا من الدناءة فهي اقتدارٌ،

مهما قال عنها قائلون ومُتقوِّلون.

أما الشخص الذي ورث عن أبويه ثروة تكفيه للعيش وتقيه مذلّة الطلب، فسيكون عنيدا، جموحا وذا أنفة، يمشي مرفوع الرأس منتصب القامة، لا علمَ له بكل أساليب اللّف والدوران التي تفرضها المرونة في الحياة على غيره، بل يتفطّن دوما إلى وجوب إعتزازه، وبلا مواربة، بمواهبه الشخصية ولو كان يدرك أنها دون ما يستحقه، ويتوفر أكثر منها عند أشخاص أقل منه ذكاء وأكثر استعدادا للزحف على بطونهم. أكثر من ذلك، قد يُؤتى من الفطنة ما يجعله يلاحظ دونية وخسة الأشخاص من فوقه. وأخيرا، عندما يتأكد هذا الشخص المعتز بنفسه بأن الأمور تسير على نحو لا يحفظ له كرامته، فإنه يغدو صعب المراس والقياد وجافلا. وعندما تصل الأمور إلى هذا الحد، أي عندما يبلغ السيل الزبى، فلن يتردد في رفضها جملة وتفصيلا لأنها باتت تعوق نموه الطبيعي؛ وهذا ما عبر عنه أحسن تعبير ذلك "الوقح" المدعو **فولتير** حين قال: الحياة يومان لا أكثر، فلا يُعقل أن نمضيها في الزحف على بطوننا وتحت أقدام أنذال ممقوتين.

ولنستمع أيضا إلى ما قاله **جوفينال** في الاتجاه نفسه: من الصعب جدا على شخص يئنُّ تحت نير الحاجة أن يكسب التقدير اللائق بالإنسان. وأعتقد أن هذا الذي قاله **جوفينال** يصدُق، أساسا، على العظماء أو خاصة الناس لا على عامتهم.

لمْ أدرج المرأة والأطفال ضمن ما يجوز امتلاكه، لأن عموم الناس إنما هم مملوكون لهؤلاء لا مالكين لهم. ويكاد الحس السليم يفرض عليَّ أن أضيف إليهم الأصدقاء، لو لم يكونوا يملكون بعضهم البعض على نحو متبادل.

الفصل الرابع

سؤال التمثلات
أو ماذا نُمثل في أعين الآخرين وموازينهم؟

رأيُ الآخرين فينا، أي ما نُمثلّه في أعينهم وموازينهم، هو من الأمور التي ينبغي أن يكون تأثيرها علينا ضعيفا جدا إن لم يكن منعدما، حتى ولو أفرط معظم الناس في تقديره بل والمبالغة في ذلك. فلو فكرنا برويّة وبساطة في هذا الأمر، لوجدنا تأثيره على سعادتنا من عدمها تأثيرا لا يكاد يعتبر. لذلك، يصعب فهم واستساغة ذلك الرضى الداخلي العارم الذي ينتاب البعض منا عندما يكون موضع ثناء أو يُدغْدَغ غروره وأناه على نحو من الأنحاء. فكما أن القط يشرع في المواء ما أن نرْبت على كتفه، فإن الشخص الممدوح سرعان ما تعلوه نشوة رقيقة، خصوصا إذا ركّز المديح على تطلعاته ومطامحه ولو كانت كلها كذبا صراحا. إن عبارات الثناء على شخصه تمده بالعزاء من ألم واقعي يعتصر مشاعره، أو من نضوبٍ في المصدرين الأساسيين للسعادة اللذين توسعنا فيهما كفاية حتى الآن. وبالمثل، لا يسعك إلا أن تندهش وأنت ترى الشخص نفسه غارقا في لُجة الأحزان ومتأثرا تأثرا بالغا مَا أن يعترض عائق طموحاته أو يصيبها الإحباط والخيبة نتيجة ازدراء أو إذلال أو قلة مراعاة.

وهذه الخصلة في الناس هي مصدر إحساسهم بالشرف، إلا أنها سلاحٌ ذو حدين. إذ من الجائز أن يكون لها تأثير علاجي على السيرة الجيدة بحسبانها بديلا أخلاقيا، غير أن تأثيرها على السعادة الفعلية للإنسان وراحة باله، وبخاصة إستقلاليته، تأثير سلبي بكل المقاييس. والحال أن هذين الشرطين، راحة البال والإستقلالية، ضروريين

ضرورة قصوى لتحقق السعادة. لذلك، فمن أوجب الواجبات عليه المسارعة إلى كبح جماح هذه الخصلة والتخفيف من غلوائها، من خلال الإستغراق في تأملات حكيمة بأشياء هذا العالم، وإعطاء الخيرات والنعم قيمتها الحق بلا إفراط ولا تفريط، بلا مغالاة ولا تبخيس، وكذلك من خلال تهذيب وتشذيب هذا النزوع البشري إلى التأثر المفرط بآراء الآخرين وأحكامهم، سواء كانت هذه الأخيرة مدحا أو ذمًّا، إذ هما، بالمحصلة، وجهين لعملة واحدة. وإنْ أَحجم الشخص عن ذلك، وتمادى في المبالغة بتقدير آراء الناس وأحكامهم صار عبدا لها، تفعل به ما تشاء وتعبث به كما تشاء. أقول قولي هذا وأستحضر حكمة وجيهة في هذا الباب تقول: إن الأشياء الأقل قيمة وأكثرها تفاهة قد تزعزع نفس الإنسان الذي يسيل لعابه كلما سمع عبارات المديح والإطراء في حقه كما قد تشد أزره وتقوي معنوياته.

ولهذا، لا مناص من التقييم الموضوعي ***لما نحن إياه فعلاً*** من خلال المواظبة على مقارنته مع ما نُمثّله في ***أعين الآخرين وموازينهم***، فهذا التقييم هو الكفيل برفد سعادتنا بالقسط الأوفر والقدر الأكبر من طاقة. فما نحن إياه هو ما يملأ علينا وجودنا، ويتشكل منه المحتوى الحميم لهذا الوجود، وبالتالي فهو الذي يُدر علينا منافع جُلى أتينا على ذكرها فيما تقدم. ***ما نحن إياه وما لنا،*** ذلك أن المدار العملي الذي تتحقق فيه شرائط سعادة الإنسان هو ضميره، بينما ما يُمثله في أعين وموازين الغير لا يتحقق إلاَّ في وعي الغير، فهو الشكل الذي نظهر من خلاله والتصورات التي يُحيل عليها [1]. وفي هذه الحالة الأخيرة، غالبا ما يتعلق الأمر بأشياء معدومة، أو ليس لها تأثير مباشر على الشخص، أو بعبارة أدق ينحصر وجودها

وتأثيرها على سلوك الغير حُياله. وهو بكل الأحوال سلوك عقيم وعديم المفعول مادام لا يمس النواة الصلبة للشخص، أي ما هو إياه بالفعل، ماهيته التي هي من صنعه وتدبيره. وحيث أن تأثير الغير على الشخص ممتنع، فكل ما يحدث في وعيه ويعتمل بدواخله مما له صلة به سيكون غريبا عنه، وبالتالي فلن يكترث له على الإطلاق. وستزداد ثقته بهذا اللاّ اكتراث كلما زادتْ معرفته بتفاهة الخواطر الإنسانية وإيغالها بالتصنع، وبالمحدودية البالغة لأفكار البشر ووضاعة أحاسيسهم، وما يكتنف آرائهم من عبث وعبثية، هذا فضلا عن الكم الهائل من الأخطاء والهنّات التي تتخبط فيها عقولهم الصغيرة. كما ستزداد وتتقوى ثقته بهذا اللاّ اكتراث والإستخفاف كلما أدرك بالتجربة المقت المتبادل بينهم والذي يرشح من أحاديثهم ما أن يتأكدوا بأهم في مأمن من عيون وآذان الذين يغتابوهم. أكثر من ذلك، سيغدو هذا اللا اكتراث مشروعا أكثر عندما يلتقط سمعه، ولو لمرة، تلك النبرة الإزدرائية الصادمة التي تتحدث بها حفنة من الأغبياء عن إنسان مميز وفذ. عندئذ، وعندئذ فقط، سيتأكد بالدليل والحجة من أن إيلاء آراء الآخرين قيمة زائدة غير مستحقة تشريف لهم لا يستحقونه أيضا.

في مطلق الأحوال، ففشلُ الإنسان في العثور على سعادته في مصدَريْها السابقين، وبحثه عنها سدى في هذا المصدر الثالث، لدليلٌ على البؤس الشديد الذي يتقلب فيه. فهو بذلك يستعيض عن الواقعي بالخيالي، ويُقايض الحقائق بالتهيؤات والأوهام. عموما، فأساسُ سعادة الإنسان قائم في جانبه الحيواني، لذلك يتحدد العيش الجيد في الصحة الجيدة يتمتع بها وسبل حفاظه عليها، فهي الأقدر

على مدِّه بحياة خالية من الهموم والمنغّصات. إن الشرف والجاه والمجد شهوات محضة، وكيفما كانت القيمة التي نُضْفيها عليها، فلن تضاهي أبدا الخيرات والمنافع الأساسية التي نجدها في ذواتنا ولن تعوضها أبدا. ولو خُيِّر العاقل بين التنازل عن تلك الشهوات المحضة أو التشبّث بهذه الخيرات لانحاز، دون تردد، إلى الخيار الثاني.

لذلك، فإن إدراك الإنسان، عموما، لهذه الحقيقة البسيطة في الوقت المناسب لابد أن يعود على سعادته بالنفع العميم والخير الوفير. وتلك حقيقة يعيشها كل واحد من بني البشر في قرارة نفسه، لا من خلال آراء وتمثلات وأحكام الآخرين. ومؤداها أن حالة الإنسان الواقعية ووضعه الشخصي مشروطة جودتهما بالصحة والطبع والملكات الذهنية والدّخل والمرأة والأطفال والمسكن وما شابه. فكل هذه العناصر أهمُّ لسعادته بكثير من كل ما يحلو للآخرين أن يكونه أو أن يصنعوا به. كل ما عداها هو وهم مطلق، وهذا الوهم هو الذي يجعلهم يصيحون بين الفينة والأخرى قائلين: الشرف أولا والحياة ثانيا! وهو ما يعني، ببساطة شديدة، لو سايرناهم في هذا الزعم الأخرق أن الحياة والصحة لاشيء، وكل ما يهمّ هو كيف يفكر فينا الآخرون ويتصورُنا الغير! ومثل هذا القول الذي ترتفع به عقيرة صفيق قد يتحول إلى سند ومسوغ لهذه المبالغة اللفظية التي تؤسِّس لحقيقة مبتذلة، مؤداها أن العيش بين الناس مشروط بشرفٍ مزعوم، أي برأيهم فينا وتمثلهم لنا والذي يغدو ذا أهمية لا تضاهيها أخرى. هذه المسألة سأعود إليها بالتفصيل لاحقا.

وعندما نرى بأم العين كيف يرتفع قدْر الذين يكدحون طوال حياتهم، مُعرِّضين أنفسهم لأخطار جسيمة ومشاق جمة، يرتفع

قدرهم في تمثلات الناس وآرائهم وأحكامهم، عندما نرى بأم العين كل ذلك سندرك بالملموس، وللأسف، بأن الحماقة الإنسانية لا حدود لها! ولن يقنعوا منهم أبدا بتفوقهم في العمل وحيازة الألقاب والأوسمة والنياشين، بل سيطمعون أيضا في مراكمتهم للثروات وتحصيل العلوم[2] والفنون التي يسعى الكثيرون من المهووسين بآراء الآخرين لتحصيلها، لا لشيء إلا لإرضائهم!

إن المبالغة في تقدير آراء الآخرين هو من الخرافات الواسعة الإنتشار في العالم كله. وبصرف النظر عما إن كانت لها جذور في الطبيعة الإنسانية، أو متجذرة في العوائد الحضارية والمجتمعية، فمن المؤكد أنها تؤثر تأثيرا في السلوك البشري على نحو يتهدد سعادة الإنسان. ومظاهر هذا التأثر بآراء الآخرين تختزلها اللازمة الكلامية التي تتردد على الألسن: ***وماذا سيقول الناس؟*** وقد يذهب هذا التأثر بالبعض إلى مداه كما هو حال **فيرجينوس** الذي غرس خنجرا في ثدي ابنته، وقد يذهب بالآخرين إلى حد التضحية براحة بالهم وبثرواتهم بل وبحياتهم، وكلها نعم حاضرة شاخصة، مقابل مجد أبله يُسَجَّل لهم في ذاكرة الخلود.

لا مراء في أن هذا الحكم القبلي يرفد المرشح لقيادة الناس بما يحتاجه من زاد في هذه المهمة، لذلك تجده حريصا جدا على إحساسه بالشرف، وهو إحساس يتربع، بزعمه، على عرش كل الفروع الأخرى المتخصصة في ترويض وبرمجة بني البشر على سلوكات محددة. لكن، لو كان الإنسان جادا، فعلا، في الاعتناء بسعادته الخاصة لتوجَّب عليه أن يبذل قصارى جهده لتقويض أركان وجبروت هذا الحكم المسبق بداخله والذي يدفعه دفعا نحو المبالغة في

تقدير آراء الغير. أما من يبالغ، طوعا، في تقديرها فمنشغلٌ أكثر من اللازم بغيره على حساب ما يعتمل بداخله أو في ***وعيه الخاص*** بسبب التأثير المفرط لوجوده المباشر عليه. فيغدو رأي الغير فيه هو الجزء الواقعي في وجوده ووعيه، مثلما هو الجزء المثالي لجهة عدم ظهوره، بحسبانه ضميرا مستترا تقديره هو. فمصدرُ حماقة بشرية تُدعى الغرور هو إصرار الناس على تحويل ما هو فرعي وثانوي إلى موضوع أساسي، والإرتقاء بالتمثلات الجماعية إلى أعلى الدرجات وهو ما يقودهم، حتما، إلى الإفراط والغلو في التقويم المباشر للأشياء. ولا بأس من التذكير هنا بأن الدلالة اللاتينية الأصلية لكلمة **غرور** هي Vanitas، ومعناها الخواء والهباء والتوهمات. وهذه الصفة في الإنسان هي من جملة الأخطاء التي تجعله ينسى الهدف ليُطارد الوسائل إلى أن يضيع منه الهدف. وما يصدق على الغرور يصدق على الشح.

قد يتجاوز الاهتمام الزائد بآراء الغير والإنشغال الدائم بها كل الحدود المعقولة حتى يغدو ضربا من المسّ الجماعي أو معطى بديهيا. فقد درج الناس على استحضار هذه الآراء والتمثلات في كل ما يفعلونه، ويُقبلون عليه أو يحجمون عنه. وعن هذا الإنشغال الزائد تتولد كل أشكال المعاناة الإنسانية ونصفُ عذابات بني البشر التي لم يسبق لهم أن كابدوها. فهذا الإنشغال هو الذي نجده في صلب الحب المفرط للذات بل وتضخُّمها أحيانا، والتي، لفرط هشاشتها، تكون عرضة لكل المؤثرات الخارجية، وهو ما يؤجج فيها قابلية مَرَضية غير طبيعية للتأثر بأدنى هذه المؤثرات. كما نجد أثرا لهذا الإنشغال في صلب أنواع الغرور والشره، ومن خلال الإحساس المثير بالزهو، وفي الرغبة المحمومة بالبروز والتباهي. فلو لا هذا الإنشغال الزائد بالآخرين

الذي يصل، أحيانا، إلى درجة السُّعار، لما كان لمظاهر الترف والأبهة عُشُر القيمة التي نعطيها لها. فعلى هذا السعار تقوم قائمة الكبرياء الذي، وبكل أصنافه وفي جميع مجالات تمظهره، يفعل بالناس الأفاعيل وتكون ضحاياه بالجملة! ويبدأ هذا الإنشغال المفرط بآراء الغير وأقواله، بل والهوس بها، في الظهور بحياة الأفراد منذ الطفولة، ثم ينمو ويشتد في مراحل العمر الموالية إلى أن يبلغ ذروته في الشيخوخة، والتي تتزامن مع النضوب التدريجي للقدرة الذاتية على إتيان المتع الحسية، فيحل محلها الغرور المسرف والكبرياء الزائد اللذان يطردان البخل من حلبة السباق ليستفْرِدا بها. وهذا الهوس أكثر ما يكون تعبيرا عن نفسه في سلوك الفرنسيين، لا بل وقد إستوطنهم في طموحهم الأهوج وغرورهم القومي الأرعن، ومظاهر أخرى من التبجح يندى لها الجبين. غير أن طموحاتهم الحمقاء سرعان ما يتولى الواقع العنيد إبطالها ليُحوِّلهم إلى أضحوكة بين الأمم، بعد أن كانوا لا يكفون عن التباهي أناء الليل وأطراف النهار بكونهم أمة كبيرة وعظيمة.

ولمزيد من توضيح ما ينطوي عليه هذا الهوس من عتهٍ مؤكد، أستشهد بمثال مؤثر عن هذه الحماقة المتجذرة في الطبيعة الإنسانية تمتزج فيه ملابسات مناسبة بطبع ملائم. وسيُمكّننا، لا محالة، من تقدير قوة هذا المحرك العجيب للأفعال البشرية حق قدره. يتعلق الأمر بمقطع من تقرير مفصل نشرته جريدة التايمز بتاريخ 31 مارس 1846 حول إعدام شخص يُدعى توماس ويكني، وهو عامل متهم بقتل مؤجِّره بدافع الانتقام. صبيحة يوم إعدامه، حلّ الكاهن بالسجن الذي اعتُقل فيه فوجده بغاية الهدوء وغير آبه إطلاقا بعِظاته. فقد

كان كلُّ همّه إستعراض شجاعته الفائقة أمام الجموع التي احتشدت لتشاهد نهايته المخجلة. فما أن وطئت قدماه ساحة الإعدام، والتف حبل المشنقة حول عنقه حتى شرع في الصياح بأعلى صوته: بعد قليل، نعم بعد قليل سينكشفُ لي السر الأكبر. وبعد ذلك شرع في إرسال التحايا بيديه إلى الحشود المتفرجة التي تهتف باسمه.

أليس هذا المشهد مثالا فريدا عن الطموح الإنساني الأهوج الناتج عن المبالغة في تقدير رأي الآخرين؟ وإلاَّ فما معنى أن يسير هذا الرجل بخطى ثابتة نحو الموت المحقق في أبشع صوره تاركا وراءه الخلود الحقيقي، منشغلا كل الإنشغال بالأثر المحتمل الذي سيتركه في نفوس حشد من الفضوليين المتدافعين بالمناكب، وبالرأي الذي سيكوِّنونه عنه بعد هلاكه؟ في السنة ذاتها، جُزّ رأس لوكونت في باريس بالمقصلة بعد اتهامه بقتل الملك، ولم يتأسف في الأثناء إلا لشيئين: أولهما عدم ارتدائه للباس لائق عند مثوله أمام مجلس اللوردات، وثانيهما عدم تمكنه من حلق ذقنه قبل أن تنزل المقصلة على عنقه. والظاهر أن الأمور كانت تسير على هذا المنوال حتى قبل هذا التاريخ، وهو ما تؤكده المقدمة التي استهل بها **ماثيو ألمان** روايته الشهيرة: Guzmand'Alfaraohé، ومن جملة ما جاء فيها أن مجرمين كثر يعمدون قبل الساعات الأخيرة السابقة على إعدامهم إلى التفرغ لما يعتبرونه خلاصا لأرواحهم من خلال استظهارهم لقَسَمٍ وجيز فوق خشبة المشنقة.

من الوارد أن يجد كل واحد من الناس نفسه، وبدرجات متفاوتة، في هذه المشاهد القصية التي ستزوده بكثير من البيانات والتفاسير المتعلقة بهذا الموضوع. فالكل من خلالها منغمس في

الانشغال بالآخرين وما سيقولونه، سواء في الاهتمامات العادية أو الأحزان الطارئة أو حالات الهم والغم والغضب والمخاوف والجهد المبذول وما إلى ذلك. وهو انشغال هوسي لا يقل عبثية وتفاهة عن مثيله في حالة البائسين المهووسين أيضا، والذين تقدم ذكرهم في أمثلة. ونضيف إلى ما سبق أن الحسد والكراهية شعوران يتحدران بدورهما، في جزءهما الأعظم، من هذا الهوس بآراء الآخرين وأقوالهم.

ولا سعادة تُرجى، السعادة بصفتها مزيجا من راحة بال وطمأنينة، دون الحد من غلو هذا المحرك واختزاله في حدوده الدنيا القابلة للتبرير والتسويغ، ودون انتزاع الإنسان لهذه الشوكة التي تدمي روحه وبدنه. صحيح أن الأمر ليس بالهين لأنه بذلك سيفتح المواجهة مع نزوع طبيعي ومتأصل في بني البشر. وحتى أحكمُ الحكماء لا يتخلص منه إلا بشق الأنفس بعد أن يكون قد شارف التطهر من نوازع بشرية مماثلة. وهو ما أكده **تاسيتوس** نفسه لما قال: إن الولع بالمجد هو آخر النوازع التي يتخلص منها الحكماء أنفسهم". ولا طريق نحو ذلك، في تقديري، سوى الاعتراف بدءا بأن الأمر يتعلق في العمق بمس وجنون وهوس والإقرار بعد ذلك بأن آراء الناس بمجملها خاطئة وبعيدة عن الصواب ومغرقة في العبثية، وبالتالي فهي غير جديرة بأي اهتمام أو انشغال. وبعد هذا وذاك، على المرء أن يعلم علم اليقين بأن آراء الناس لا يُعتد بها في حالات وأوضاع كثيرة لأنها محكومة بالخلفيات، وتُضمر من الشر والخبث ما لا تُعلنه. فلو تناهى إلى سمع أحدهم كل ما يقوله عنه الآخرون، وبالنبرة التي يقولون بها ما يقولون في غيابه، لكان صريع سقم دائم ولهلك كمدا. نستنتج مما سبق أن ما يُدعى شرفا له قيمة غير مباشرة، وهذا كاف

ليكون تأثيره على الإنسان ضعيفا جدا إن لم يكن في حكم المعدوم. هو ذا ما يقول به عين العقل. فلو شُفِي الإنسان من هـذه الحماقـة الشائعة لربح من راحة البال والسكينة ما يعز نضوبه، وتحلى، بفضل ذلك، برباطة جأش عزَّ نظيرها، ولظهَر بالمظهر الطبيعـي والعفـوي المتحرر من كل الأغلال الاصطناعية؛ وبكلمة، سيغدو، بكل تأكيد، أكثر انطلاقا.

أولى الثمار اليانعة للعزلة هي راحة البال، وهي ثمـرة طبيعيـة للتحرر من واجب مخالطة الغير، والوقوع الدائم تحت وطـأة أنظـار الآخرين، وبالتالي التحرر من الانشغال الهوسي بآرائهم في الأشخاص وفي أشياء هذا العالم. وبذلك، يكون المرء قد ربح العودة إلى ذاتـه وإلى خُويصة نفسه، تلك العودة التي ستجعله في مأمن مـن جحـيم الآلام الواقعية المُتأتية، حصريا، من هذا المطمح المجرد، أو بـالأحرى من هذا العته المثير للشفقة المتمثل في الانشغال الزائد بـآراء الغـير. بالمقابل، سيربح، لا محالة، مزيدا من الوقت والطاقة يستعين بهمـا في اعتناءه بالخيرات والنعم القابلة للتذوق، والتركيز عليها دون سواها.

إن هذا العته المتجذر بالجِبْلّة البشرية هو المسؤول عـن ظهـور ثلاثة نوازع في المسلكية البشرية وهي: الطموح، الغرور، الكبريـاء. ونود، بدءا، الإشارة إلى الفرق بين النزوعين. فالكبرياء يعبّر بها المرء عن اقتناعه الراسخ بتفوقه وعلو كعبه في مجال من المجـالات، أمـا الغرور فيعبر من خلاله عن رغبته في توليد هذه القناعة، وبأي ثمن، في نفوس الآخرين، مصحوبة بأمل مستتر في امتلاكهم. معنى ذلـك أن الكبرياء تعبير من المرء عن تقديره لذاته تقديرا عاليا نابعا من ***داخله***، وبالتالي فهو مباشر. أما الغرور فتعبيرٌ منه عن رغبته في كسب هـذا

التقدير العالي من *خارجه*، وبالتالي فهو مُداور وغير مباشر. لذلك فالمغرور يكون ثرثارا، بينما الفخور والمعتد بنفسه يكون كتوما ومُقلاًّ في الكلام حد التقتير. وما كان ينبغي على المغرور أن يعرفه جيدا هو أن الصمت شرط كسب التقدير العالي والرأي الإيجابي الذي يتطلع إليه عند غيره، الصمت ثم الصمت ولو ألحّت عليك أشياء كثيرة ودفعت بك داخليا إلى الحديث والحكي، فهو شرط كسب التقدير. إن الكبرياء لا تكون أبدا من نصيب الراغب فيها، حتى ولو تظاهر بها الكثيرون. فسرعان ما ينكشف أمرهم لما يدركون بأنهم غير مهيئين لتقمص هذه الصفة، كما قد يتقمصون بيُسر أدوارا مستعارة أخرى. إن صفة الاعتداد بالذات تعبر عن اقتناع راسخ وذاتي من صاحبها بتوفره على مزايا رفيعة لا مراء فيها. قد لا يكون هذا الاقتناع صائبا، وقد يستند فقط على ثلة من المزايا الخارجية المتواضع عليها، إلا أنه من صنف الكبرياء والاعتداد بالنفس الجاد والواقعي. ومادامت صفة الكبرياء والاعتداد بالنفس متجذرة في *القناعة الشخصية* لصاحبها، فستظل، على غرار كل المقولات الذهنية، خارج *إرادته الحرة*، وسيظل الغرور هو عدوها اللدود ونقيضها المطلق. ذلك أن الغرور مشروط بموافقة الغير ليؤسس عليها المغرور رأيا رفيعا عن نفسه، عكس الكبرياء التي لا يُشترط في تمظهرها إلا القناعة الراسخة بها سلفا من قِبل صاحبها.

وقد جرت العادة على أن يستهجن الناس خصلة الكبرياء، لا لشيء إلا لأن معظمهم يعوزه ما يجعله جديرا بها. وقد تعوَّد الناس أيضا، تحت تأثير رغبائهم، على الاعتقاد بوجوب إظهار مزاياهم الشخصية واستعراضها أمام الأنظار، حتى لا تسقط في جب النسيان.

فالشخص الذي تدفعه طيبوبته إلى إخفاء وكتم مزاياه، سينتهي بـه الأمر، حتما، إلى أن يكون كبقية الناس لا يميزه شيء عنهم. غير أنني أنصح هنا أولئك الذين يتوفرون منهم على مزايا ذاتية، واقعية ورفيعة، بالحرص على إظهارها والإفصاح عنها والتذكير بها، كلما واتتهم الفرصة؛ لأنها مزايا نوعية تعلو قيمتها على كل المزايا الحسية المحصورة في شهوة الألقاب والأوسمة ومظاهر التشريف المختلفة. فهذا الحرص من شأنه أن يُبعد عنهم العوام والدهماء الذين ليسوا من طينتهم. فلو راودتْ أحدهم يوما فكرة ممازحة خادمه، فلن يتردد هذا الأخير باليوم الموالي في أن يكشف له عن مؤخرته! وقد قال **هوراس** ناصحا: عُضّ بالنواجذ على الكبرياء النبيلة والمستحقة، إن فعلتَ، فلن تكون أبدا ممقوتا في أعين العقلاء وموازينهم، بل سيرتفع قدرك عندهم. إن التواضع خرافة إبتكرها الأنذال حتى يتحدث الناس كافة بالطريقة نفسها كما لو كانوا متكافئين ومتساويين ومتشابهين، فيتوهم الجميع، جراء ذلك، بأن هذه الأرض لا وجود فيها إلا للأنذال.

غير أننا نلاحظ بأن الكبرياء الأكثر شيوعا بين الناس في جميع أنحاء المعمور هو الكبرياء القومي، لأن المتشدقين به يخفون به خُلُوّ جعبتهم وخواء وفاضهم من المزايا الشخصية، هذه التي تكون وحدها مصدر فخر ومبعث إعتزاز لبني البشر. ولتعويض ذلك النقص الجوهري فإنهم يستنجدون بمزايا افتراضية يتقاسمونها مع الملايين من بني جلدتهم. فصاحبُ المزايا الشخصية الأصيلة لن يتحرج، إذا اقتضى الحال ذلك، من فضح عيوب الأمة أو الشعب الذي ينتمي إليه، والمكشوفة للأنظار على كل حال. لذلك يتباهى المُفتقد لمزايا

شخصية يعتز بها بالكبرياء القومي دون أن يرف له جفن، كبرياء مزعومة لأمة وجد نفسه فيها بالصدفة. لذلك، لن يتحرج أبدا من تنصيب نفسه مدافعا شرسا ومجانيا عن عيوبها وعوراتها وحماقاتها بدل أن يتغاضى عنها، وذلك أضعف الإيمان. وأعتقد بأن هذا هو السبب الذي يجعل واحدا على خمسة فقط من الإنجليز لا يُجاريك عندما تدافع عن التعصب الغبي والمنحط لشعبه، ومما لاشك فيه أنه سيكون من زمرة الأفذاذ ومن ذوي العقول الكبيرة. أما الألمان، فلم تُصِبْهم هذه اللوثة اللعينة، لوثة الكبرياء القومي، ما جعلهم أكثر الشعوب إنحيازا إلى فضيلة النزاهة في التقدير والحكم حتى باتوا مضرب الأمثال في هذا الباب. قلةٌ منهم، من قوميين وديموقراطيين، هي التي تتبجح بمثل هذا الكبرياء، وتتملق الشعب طمعا في استمالته وكسب وده. وقد تساءل **لايشتبرغ** يوما في هذا الاتجاه قائلا: لماذا لا ينجح غير الألماني في أن يكون ألمانيا؟ ولماذا ينجح الألماني بسهولة في أن يكون فرنسيا أو إنجليزيا مثلا؟

نخلص إلى أن المزايا الشخصية أهم بكثير من مثيلتها القومية، وجديرة بما لا يقاس بأن تُؤخذ بالحسبان. وبصراحة متناهية أقول: لن تجد مزية عظيمة واحدة في الطبع القومي لشعب أو أمة مهما علا شأنها لأن صفة "القومي" تُحيل، أصلا، على معنى الغوغاء والدهماء. فما يُصطلح عليه بالطبع القومي لا يعدو أن يكون عصارة لصفات تجمع بين صغر العقل والطيش والنزق، وتتخذ أشكالا مختلفة باختلاف الأقوام والبلدان. وهذا هو السبب الأساسي الذي يجعل عموم الناس يخبطون خبط عشواء عند حكمهم على الطباع القومية، فيتذبذبون بين حدَّيْ الإنجذاب والنفور، بين المديح والهجاء، فإن

إشمئزوا من طبع كالوا المديح لغيره، وهكذا دواليك. ولا غرابة، بعد ذلك، إن كانت كل أمة تسخر وتلعن أختها، وكلها محقة فيما تفعله.

سنُرتب مضامين هذا الفصل حول تمثلات الغير، أي ما يُمثله المرء في أعين الآخرين وموازينهم، إنطلاقا من ثلاث قضايا محورية وهي: ***الشرف، المكانة، المجد***. وننوه إلى أننا سنتناول قضية المكانة بعجالة شديدة، رغم أهميتها القصوى في أعين الغوغاء وعموم الفلستينيين، وموقعها المركزي في دواليب الدولة لكي نخلص، بعد ذلك، إلى إستنتاجاتنا الأخيرة. إن المكانة أو المقام قيمة من القيم المتواضع عليها أي أنها اصطناعية، وينحصر مفعولها في جلب بعض الإعتبار المصطنع أيضا إلى صاحبها لتتلهّى به العامة. والأوسمة من هذا القبيل، فهي تُمنح لمن يسيل لعابه لها، وينفخ الرأي العام في قيمتها علما بأن هذه القيمة تتناسب، في كل الأحوال، مع قيمة مانحيها. وفي انتظار حسن استعمالها وحسن توزيعها، نشير بأنها كانت ستنتصب في هيئة مؤسسة سعيدة لو وُزِّعتْ بتجرد وإنصاف، أي بحسب الاستحقاق. كما نشير أيضا إلى أن قيمتها الرمزية تُعوض الأموال التي كان على الدولة أن تدفعها للمستفيدين منها. فالغوغاء لها فقط أعين وآذان وبالتالي فهي أعجز ما تكون عن إصدار أحكام سديدة، كما أن ذاكرتها القصيرة جدا لا تؤهلها لذلك. إنها أعجز ما تكون عن فهم الكثير من المزايا الحقيقية واستيعابها بينما هي قادرة على استيعاب ما دونها، بل تنبري للتصفيق لها والإشادة بها ما أن تظهر على السطح ثم سرعان ما تنساها. لذلك، لا أرى حرجا في تذكير الغوغاء، إن كانوا بحضرة ألمعيين ونوابغ، تذكيرهم بواسطة

صليب أو نجمة نُشهرهما في وجوههم قائلين لهم بصوت عال: الأشخاصُ الذين تُجالسونهم ليسوا أقرانا لكم ولا نظرائكم ولا هم من طينتكم، ولا قِبل لكم بمزاياهم! وفي عودة إلى مسألة الأوسمة وشتى مظاهر التشريف الرمزية نقول: إن التوزيع العشوائي والجائر والمفرط لها يُفقدها قيمتها الحق، ويُفرغها من محتواها الرمزي الكثيف. لذلك ننصح الأمراء وكل من هم في سدة الحكم بالتزام الحذر الشديد في توزيعها، كما يحذر التاجر، أشد الحذر، من توقيع كمبيالة. فكلمة "للاستحقاق" المنقوشة على صليب مجرد حشو لا داعي له، كذلك الأوسمة التي عوّضت الصُّلبان القديمة لا ينبغي منحها إلا لمستحقيها الحقيقيين، وبالتالي فلا داعي للإشارة إلى ذلك عليها.

والظاهر أن الخوض في مسألة الشرف سيطول وسيكون أكثر تعقيدا قياسا على مسألة المقام أو المكانة. لذلك، سنبادر إلى إعطاء تعريفنا الموجز والمركز للشرف: الشرف هو الضمير الخارجي والضمير (أو الوعي) هو الشرف الداخلي. ربما نال هذا التعريف إعجاب الكثيرين رغم افتقاده للدقة. وربما كان السبب في ذلك ألمعيته التفسيرية اللافتة. لذلك، وتوخيا لدقة أكبر، سأضيف إليه المعطيات الآتية: موضوعيا الشرف هو رأي الآخرين في قدْرنا، وذاتيا هو الخشية التي يبثها فينا هذا الرأي. وعلى هذا المستوى الثاني تجده يُمارس نوعا من التأثير الخَلَاصيّ على الناس، علما بأنه غير مؤسَّس على تسويغات أخلاقية قادرة على تبريره وتعليله.

وسنسعى في الصفحات الموالية إلى الكشف عن جذر وأصل هذا الإحساس الإنساني بالشرف والعار معا، إحساسٌ يتملك الأشخاص الذين لم تفسد طبيعتهم عن آخرها، وسنعمل أيضا على

الكشف عن الباعث المركزي على هذا الإحساس بالشرف بحسبانه قيمة سامية.

إن الإنسان لا يستطيع القيام بمفرده إلا بأشياء قليلة جدا، فهو أشبه ما يكون بـ **روبنسون** المهجور والمُتخلى عنه، لا حول له ولا قوة إلا إذا كان عضوا في جماعة. عندئذ يتملكه إحساس جياش بكونه أكبر وأكثر. يَشرعُ في إدراك هذه الحقيقة في اطراد مع تنامي وعيه، واستيقاظ الرغبة بداخله في أن يكون عضوا نافعا لمجتمعه، وقادرا على المساهمة في الفعل المشترك حتى يمكّنه ذلك من المشاركة والإستفادة من مزايا وإيجابيات الجماعة البشرية والإجتماع الإنساني. ولا يُفلح في ذلك إلا إذا برأ ذمته من دْين الجماعة عليه، واستجاب لكل ما تنتظره من شخص في موقعه، ووفّى بالمطلوب والمنتظر منه. ثم سرعان ما يدرك بأن الأهم في جماعته ليس هو أن يكون على هذه الشاكلة وبهذه المواصفات في تصوره الشخصي ورأيه الذاتي، بل أن يكون كذلك في تصور الآخرين ورأيهم فيه. وهنا، تحديدا، مكمَن لُهاث الأشخاص وراء الرأي الإيجابي للآخرين فيهم، والقيمة الكبرى التي يسبغونها عليه.

وأوُلى تمظهرات هذا الميل الإنساني إلى إرضاء الآخرين، وترك أثر إيجابي في نفوسهم -و هو ميلٌ متماهي مع أي إحساس فطري- هو الشعور بالشرف. واستطرادا، ضمن ملابسات محددة، الشعور بالخجل. إحساسٌ يجعل الخجول يتصبب عرقا وتحمر وجنتاه ما أن يدرك بأن قيمته تناقصت في أعين الآخرين لما ضبطوه في وضع ما، حتى ولو كان بريئا براءة الذئب من دم يوسف، أو لم يرتكب إلا جريرة بسيطة أو هفوة عابرة، لا تُخلٍّ، في شيء، بواجباته الأساسية تجاه جماعة انتماءه.

إن شجاعة إستمرار الإنسان في العيش ومواجهة تحدياته لا يرفدها بمزيد من القوة والدافعية إلا ذلك اليقين الراسخ المكتسب أو المتجدد في رأي جيد للناس تجاهه، فهذا الرأي، في تقديره، هو منبع إحساسه بالأمان والحماية والإغاثة، وكلها أمور ينتظرها منهم عند حاجته إليها ليتحصَّن بها ضد شرور الدهر وتقلبات الحياة، وما أكثرها.

فأنواع الشرف إنما تتوالد وتتكاثر من الروابط التي ينسجُها الإنسان مع الآخرين، فتجعله موضع ثقتهم، وهو ما يعبرون عنه من خلال تكوين فكرة جيدة عن شخصه، أو من خلال تشكُّلٍ تدريجي لرأيهم الإيجابي فيه. والأساسي في هذه الروابط ينتظم حول بؤرتين: **ما لي وما لك** والواجبات المتبادلة، فضلا عن العلاقة الجنسية المقترنة بـ ***الشرف البورجوازي***، ***والشرف المهني والشرف الجنسي***. وتتولد عن هذه الأنواع الكبرى من الشرف أنواع أخرى فرعية مشتقة منها وتابعة لها.

يحتل ***الشرف البورجوازي*** موقع الصدارة في هذه الأصناف، ومؤداه التسليم الجماعي بوجوب احترام الكل للكل، وبالتالي الإمتناع الكامل عن اللجوء إلى وسائل جائرة وغير جائزة خدمةً لمصلحة شخصية. فالشرف البورجوازي هو عماد المعاملات السليمة والمستقيمة مع الآخرين، يتجرد منه الشخص ما أن تقترف يداه فعلا مناقضا لجوهره ومخالفا لماهيته، وهو ما يستتبع عقابا طبيعيا له جراء ذلك يكون من جنس المخالفة. فالشرف يرتكز، دائما وبالمحصلة، على اقتناع راسخ بثبات الطبع الأخلاقي، وأي فعل مشين سيحكم عليه بالحكم الأخلاقي نفسه الذي يُصدره على الأفعال المشينة

الأخرى التي ستليه لو صدر عن مقترفه في الظروف نفسها والملابسات ذاتها. وهذه القناعة الأخلاقية الراسخة والفاعلة هي التي أسست لصفات أخلاقية كبيرة كـ ***السمعة والصيت والمصداقية والشرف*** وما إلى ذلك. وبالنظر إلى أهمية الشرف وعلو شأنه في أحكام الناس وموازينهم، فإن فقدانه يعتبر فقدانا نهائيا غير قابل لاستعادة ولا ترميم، إلا إذا كان فاقده ضحية بهتان أو قذف تعوزه الحجة، أو شبهات وتلبيسات لا ترقى إلى مصافّ اليقين. وتحسباً لذلك، أي لحمايته من التلاعبات، سُنَّت قوانين تجرِّم القذف والتشهير والمس بحرمة الأشخاص وتزجر الشتم والسب. فالشتيمة قذفٌ عام لا سند له ولا دليل عليه في الواقع، إنها قذف مختصر كما تقول عنه قولة إغريقية لا تجد لها صدى واقعيا في أي مكان. فالشتيمةُ، بنظري، غير واقعية بالمرة، وتعوزها الحجة الدامغة ليحقّ مضمونها على ضحيتها المفترضة. لذلك فالشاتم هو، دوما، في وضع لا يُمكِّنه البتة من تقديم عناصر أو عرض مقدمات تبرهن على صحة شتيمته من عدمها. ولو كانت بحوزته لقدَّمها بهدوء كامل وترك للمستمعين/ الشهود حرية استخلاص النتائج المترتبة عنها. لذلك فهو يتصرف خلافا لذلك وعلى نقيضه. فبتسْبيقِه الخلاصة على المقدمات، يحذوه أمل زائف بأن يُصدِّقه المستمعون/الشهود إعتمادا، فقط، على تشفير رمزي بسيط وسطحي يفتقر إلى الأدلة الدامغة التي لا يتقدم بها العقلاء إلا في أجواء هادئة.

يستمد الشرف البورجوازي صفته من الطبقة البورجوازية ولو أن سلطته سارية على كل الطبقات الأخرى بما فيها الطبقة النبيلة. فلا أحد بمنأى عن ضغطه، ولا أحد بمنجى من سطوته، فهو أمر جلل

وجاد لا مجال للاستخفاف به أو التقليل من شأنه. فكلُّ من خان الثقة وانتهك القانون، لن يكون أبدا، بعد ذلك، جديرا لا بثقة ولا بأمانة ولا بقانون، مهما كان، بل مهما فعل لاسترداد مكانته الأولى. فلْيستعِدّ الفاقد لشرفه لتجرُّع الثمار المرة لصنيعه منذ اللحظة التي زلّت فيها قدمه.

بهذا المعنى، يكون ***الشرف*** سالبا والمجد ***موجبا***. فالشرف ليس رأيا محددا في خصال فردية، بل هو رأي عام في خصال قائمة سلفا لا جدال حولها ومتواضع عليها. من المفروض أن يحرص الفرد، كل الحرص، على التحلي بها إرضاءً لجماعة انتمائه، ليكون ذلك الرأي العام شاهدا له على أنه لم يخرج عن جماعته و لم يشذ عن عوائدها. أما المجد فيشهد لصاحبه بالإستثناء والفرادة، وهذا ما يُفسر ركوب الناس للمستحيل بغية تحصيل المجد، وبذلهم الغالي والنفيس كي لا يخسروا الشرف.

يترتب عن ذلك كله أن غياب المجد مرادف للظلمة، ***للسالب*** بينما ذهاب الشرف ملازم للعار، أي *للموجب*، مع التنويه إلى توخي الحذر من الخلط هنا بين السالب والسلبي. فالشرف ذو طابع إيجابي جدا، أي أنه حيوي لأن الحفاظ عليه سلوك متواتر صادر عن ذات محدَّدة وقائم على سيرتها الخاصة، لا على سيرة غيرها أو على وقائع خارجية، وبالتالي فهو صفة داخلية. وسنبين، لاحقا، كيف أن الفرق بين الشرف الحقيقي والشرف الفروسي أو المزيف، يكمن، تحديدا، في هذه النقطة. فلن يكون الشرف عرضة لعدوان خارجي إلا إذا طاله قذف. وثمة طريقة واحدة للرد عليه هي دحضه العلني الكفيل بفضح المدعي المعتدي وإبطال مزاعمه توا. ومنشأ

الإحترام الذي يحظى به عموم المسنين هو اجتيازهم لاختبارات متتالية في حياقم دادوا فيها عن حمى شرفهم، بينما الشرف عند اليافعين والشبان لا يكتسي كل هذه الأهمية التي له عند المسنين، رغم استبطاهم له كفكرة وقاعدة أخلاقية عامة لازالت بحالة كمون وقابلية، فالشرف، عندهم، لم يتعرض بعد لما يكفي من الهزات والاختبارات الواقعية. لكن، يبدو أن هذه القاعدة العامة لا يُصدِّقها الواقع دائما. فلا السنوات الطوال لأعمار الناس، علما بأن الحيوانات قد تعيش حياة أطول من حياقم، ولا التجربة بصفتها معيارا لمعرفة عميقة وحميمة بمجريات الحياة، تبرران الإحترام الذي يكنه الشبان للشيوخ والمسنين، وهو من جنس الاحترام المطلوب في كل بقاع العالم. فالعياء والإنهاك الناتج عن التقدم في السن يستوجب، بنظري، المراعاة أكثر مما هو بحاجة إلى التقدير والتوقير. ومع ذلك، فالناس تعودوا على الاحترام التلقائي بله الغريزي لكل من اشتعل رأسه شيبا، ولا يكنون الاحترام نفسه لِمنْ كسته التجاعيد. لذلك درجوا على القول: شيبٌ يفرض الوقار والاحترام لصاحبه، ولم يدرجوا على قول: تجاعيد توحي بالوقار والاحترام!

غير أنني أعود فأكرر بأن الشرف ليست له إلا قيمة غير مباشرة، على اعتبار أن رأي الآخرين في الشخص -والذي به يتحدد الشرف الشخصي- لا قيمة له، إطلاقا، إلا إذا كان قادرا على التأثير في سيرقم تجاهه وتعاملهم معه. وهو أمر محقق طالما يعيش معهم ويوجد بين ظهرانيهم. ووجوده بينهم أمر طبيعي لأنه من شروط قيام حضارة تُمكّن المجتمع من توفير الأمن والأمان لأفراد عُزّل، وتمكينهم من خيرات وممتلكات. كما أن هؤلاء الأفراد بحاجة إلى بعضهم

البعض في الأعمال التي يُزاولونها، ولا غنى لهم عن الثقة المتبادلة كشرط مطلق للدخول في علاقات والإنخراط في معاملات. من هنا ينبع حرصهم الشديد على أن يُكوِّن الناس عنهم آراء إيجابية لا تشوبها شائبة وتعلو فوق كل شبهة. غير أنني لازلتُ متمسكا بأن هذه الآراء التي يحرصون عليها، أشد الحرص، ويُنزلونها منزلة عظمى ذات أثر غير مباشر وتأثيرها جانبي، وهو ما يشاطرني فيه **شيشرون** الذي أورد ما قاله **خريسبوس وديوجين** عن السمعة الحسنة، مِنْ أنها لا تستحق أن نحرك في سبيلها أصبعا واحدا لو صرفنا النظر عن المنفعة المباشرة التي تجلبها لصاحبها. أتفق تماما مع ما قاله الرجلان عن هذه المسألة. وقد أسهب **هيلفيتوس**، بدوره، في الحديث عنها بكتابه ***النفس البشرية***، وخلُص من ذلك إلى الاستنتاج الآتي: لا يسعى الناس وراء كسب التقدير لذاته، بل لِمَا يُدره عليهم من منافع ومكاسب. لكن، ما ليس معقولا هو تضحيتهم بالغاية في سبيل الوسيلة، واسترسل في الكلام إلى حين نطقه بهذه الحكمة البليغة والناهدة: قولُ الناس باستحالة الحياة بلا شرف مبالغةٌ كلامية لا أرى ما يُبررها. هذا في ما يخص ***الشرف البورجوازي***.

أما ***الشرف المهني*** فيتحدد في الرأي العام الذي يُكوِّنه صاحب مهنة عن نفسه فيتصور بمقتضاه أنه جدير به لجهة توفره على كل المواصفات التي يشترطها. وهذا اليقين الذاتي يحمله، باستمرار وفي جميع الظروف، إلى تبرئة ذمته من الواجبات المُطوّق بها والمهام المنوطة به. ويزداد عنده هذا الحرص إذا كان يعمل في إحدى دواليب الدولة. فبقدر ما تتسع دائرة حركة الشخص، تزداد أهميته ويرتفع شأنه، وبقدر ما يكون المنصب الذي يشغله سياسيا ومُؤثرا، بقدر ما

يتعاظم الرأي العام الذي يتكون عن مواصفاته ومناقبه الفكرية وشيمه التي أهَّلته لشغل ذلك المنصب. وعليه، لا بد أن تكون مرتبة الشرف التي يُنزله الناس فيها أعلى وأسمى، ويزداد تقديرهم لــه ومراعــاقم لشخصه على نحو مطرد فينعكس ذلك على الألقاب والأوسمة المُنْعم بها عليه.

إن موقع الشخص هو الذي سيحدد، على نحو منتظم ومتواتر، المرتبة الشرفية التي يضعه الناس فيها ويعتبرونه جديرا بها، مرتبةٌ تتغير بتغير مقدار اليُسر الذي ستدرك من خلاله الجموع أهمية الموقع مــن عدمه. وعموما، يحظى القائم بواجبات خاصة وفريــدة بالشــرف الأعظم قياسا على نصيب البرجوازي البسيط منه المرتكز، أساســا، على مواصفات ومناقب سالبة.

كما يتطلب *الشرف المهني* من صاحبه تقدير المهام التي يقــوم بها، والمنصب الذي يتولاه تقديرا يشهد له به زملاءه وخلفاءه. ولكي ينجح في هذه المهمة، عليه، بدءا، أن يبرئ ذمته من كل الواجبــات الملقاة على عاتقه ثم التأهب الدائم لرد الصاع صاعين على كل مــن سولت له نفسه النيل من شخصه أو منصبه. فمن واجب الموظف أن يكون دوما على أتم الإستعداد لقطع الطريق وتفويت الفرصة علــى كل ادعاء يُشكك في قيامه بواجباته المهنية على الوجه الأكمــل، أو على كل ادعاء يزعم بأن هذه الواجبات نفسها لا تعود بــأي نفــع يُذكر على الوطن. على الموظف، متى حصل ذلك، أن يطالب القضاء بمحاكمة المدعي، ويبدي له إستعداده الكامل لتقديم دفوعات وحجج على بطلان هذه الاقامات والمزاعم، مطالبا إياه بإنزال العقوبة المناسبة على المفتري الأفّاك.

كما يشمل ***الشرف المهني*** كل الوظائف الأخرى كخدم الدولة والطبيب والمحامي والأستاذ، وكل الوظائف المشمولة بنظام الترقية، وكل الموظفين الذين شُهِد لهم، رسميا، بالكفاءة التي تخوّل لهم مزاولة أي عمل ذهني، فيغدون ملزَمين، بمقتضى ذلك، بالقيام به على أحسن وجه. عموما الشرف المهني يعني كل المحسوبين، رسميا، على ***الموظفين العموميين***، كما تشمل هذه الفئة كل الذين يقع على عاتقهم واجب صون ***الشرف العسكري***. ومؤداه أن كل من إلتزم بالدفاع عن الوطن بعد التأكد من توفره على الصفات الضرورية لذلك، كالشجاعة والإقدام والقوة، فهو مُلزم، في كل الظروف، بأن يكون على أتم استعداد للدفاع عن حرمة ووحدة الوطن حتى الموت، كما هو ملزم بالتفاني في خدمة العلَم الذي أقْسم بأن يبقى مرفوعا ومرفرفا في عنان السماء. وقد تعمدت، كما قد يتضح، توسيع دائرة ***الشرف المهني*** التي درج البعض على حصرها في النطاق الضيق لوجوب إحترام الموظفين للوظائف المسنودة إليهم والمناصب التي يشغلونها.

أما الآن، فسأتطرق إلى ***الشرف الجنسي***. وأقِرُّ، بَدْءا، بأنه جدير، لوحده، بدراسة دقيقة حول أصوله وجذوره. إذ سيتأكد، لاحقا، بأن كل شرف يستمد مسوغاته، في نهاية التحليل، من إعتبارات الجدوى والمنفعة التي يُحققها.

ينقسم الشرف الجنسي في سياقه الطبيعي إلى نوعين: شرف نسوان وشرف رجال، ويشتركان في إسقاط حمولات نفسية على الجسد تتمحور حول الوجوب المطلق لعفّته. ويتفوق الشرف النسوي، في هذا الباب، على مثيله الذكوري لكوْن العلاقة الجنسية

هي من الأمور الرئيسية جدا في حياة المرأة. على هذا النحو، يتحدد الشرف النسوي في التزام الفتاة بعدم تسليم نفسها لرجل، وفي التزام المتزوّجة بعدم تسليم نفسها إلا لبعلها. وترتكز أهمية هذه القاعدة العامة على الاعتبارات الآتية:

بِمَا أن الإناث ينتظرن كل شيء من الذكور ويُطالبْنَهُم بكل شيء، أي ما يرغبن فيه ويعتبرْنهُ ضروريا، فإن الذكور يشترطون عليهن، مقابل ذلك، شرطا واحدا هو الحفاظ على عفّتهن. ولن يتحقق لهم هذا الشرط إلا إذا تكفلوا، فضلا عن ذلك، بالمواليد الذين هم ثمرة الزواج. وكل رغد العيش النسوي يدين في وجوده لهذه التسوية الأولى. وأول شروط تنزيلها، حفاظ النسوان على عفتهن والإمتناع عن تقديم أنفسهن إلا لأزواجهن. بمقتضى ذلك، تتبدى النسوة في هيئة امرأة واحدة، متراصَّات كالبنيان المرصوص في مواجهة الحشد الذكوري، كما لو كُنَّ في مواجهة عدو مشترك أهَّلته قواه الجسمانية والعقلية للإستفراد بخيرات هذه الأرض. وبالتالي، فلا خيار أمامهن إلا الزحف على قلاعه وكسر شوكته طمعا في كسب تلك الخيرات والتمتع بها.

لهذا الغرض، إبتكرن **الشرف الأنوثي** الذي يُحرِّم على الرجل أي اتصال جنسي خارج نطاق الزوجية لإجباره على الجنوح للزواج، كشكل من أشكال التنازل، الذي سيُمكّنهن من الإقتران بذُكران. وهو تنازل لن يتحقق إلا إذا تقيد الرجل تقيدا صارما بهذه القاعدة الأخلاقية:

مقابل التزامه هذا، تلتزم الأنثى بالحفاظ على عفتها، والإخلاص لبعلها. وكلُّ أنثى خرقت هذا الالتزام، ومارست الجنس خارج نطاق

الزوجية، تتهمها بنات جنسها بخيانتهن جميعهن، وتُعاقبْنها على فعلتها بإقصائها من جماعتهن ورميها بالعار المطلق. ذلك أنها تجرأت فعرَّضت عيشتهن الهنيّة لخطر الخسران المبين. وقضت العوائد اللغوية بالقول، تفاديا لأن تَزِرَ وازرتها عموم الإناث، فقدتْ شرفها، وتستحق من بنات جنسها، جراء ذلك، مقاطعتها وإفرادها كما يُفرَد البعير المعبد أو المجذوم. المآل نفسه ينتظر المومس لأنها نقضت العهد مع بعلها، مما قد يحمل الرجال كافة على الإستنكاف عن الإلتزام بهذا الميثاق/العهد الذي يَرْهنُ خلاص الإناث كافة. وحيثُ أن هذه الفعلة تنطوي على جُرميْن، جرم الخيانة وجرم نقض العهد، فإن الفاعلة تفقد شرفها الجنسي وشرفها البورجوازي معا. لذلك، جرت العوائد اللغوية على القول، في محاولة لالتماس الأعذار للفتاة التي وقعت في المحظور، فتاة كبَتْ، ولكل فتاة كبوة. لكن، لا نقول أبدا: إمرأةٌ كبت، فكبوةُ المرأة لا يعادلها إلا هذا العقاب المضاعف. فالرجل الذي أغوى الفتاة وغرر بها، قد يصلح زلته وكبوتها بتزوجه منها. بينما المتزوجة يُوقعها جرم الزنا تحت طائلة الطلاق كإجراء لا رجعة فيه.

نخلص، بعد هذا التمهيد الوجيز، إلى أن الشرف النسوي قائم بالمطلق على شرط العفة الجسدية التي هي مناط خلاص الأنثى وتَحقُّقِ ذاتها. عفةٌ ضرورية أيضا لاعتبارات مصلحية غير مُصرّح بها تُحسَب لها حساباتها الخاصة. صحيح أن النساء يُسبغن أهمية كبرى على هذا الشرط المطلق، إلا أنه نسبي، في تقديري، لأنه لن يرقى، في كل الأحوال، إلى القيمة المطلقة للحياة نفسها وغاياتها، ولن نقبل أبدا أن نُقايض قيمة نسبية بالوجود برمته. لهذا السبب، لن أساير أبدا

ما ذهب إليه كل من **لوكريس وفيرجينوس** في هذا الشأن، بينما أستشعر قرابة شديدة مع آراء **كلارشن** في مؤلفه ***Egmont***. أعتقد بأن المبالغة في تقدير الشرف الأُنوثي تعود، كغيرها من المبالغات، إلى تفريط في الغايات مقابل إفراط في العناية بالوسائل. لذلك، حوّلهُ الناس إلى قيمة مطلقة والحال أنه نسبي جدا، بل هو شأن مُتواضع عليه بينهم، أي له قيمة اتفاقية ومواضعاتية. وهذا ما تبين عند اطلاعي على كتاب **طوماسيوس** ***"المعاشرة الحرة"*** أو ***الإستسرار***، والذي أكد فيه أنها كانت من العادات الشائعة في كل الأمصار والأزمان، مُباحة ولا يُجرِّمها قانون ولا عرف إلى حين قيام حركة الإصلاح مع **مارتن لوثر**. أكثر من ذلك، كانت تحظى بتشريف وتبجيل متواصل، هذا فضلا عما ذكره **هيرودوت** عن **ميليتا بابل** على سبيل المثال لا الحصر. زد على ذلك مواضعات إجتماعية جارٍ بها العمل بغرض التحايل على الزواج الكاثوليكي الأُحادي الذي يُحرّم الطلاق تحريما باتا وكان يكبح الإندفاع الشهواني للملوك والأمراء، غير أنه لم يكن ليمنعهم من الارتباط بَمحظياتهم ارتباطا تشده عروة أخلاقية أوثق، في زعمهم، من تلك التي تشدهم بزوجاتهم. وهناك حالات تطمع فيها الذرية "غير الشرعية"، الناتجة عن مثل هذا الإرتباط، في خلافة الأب على عرش المُلك، خصوصا عندما لا يخلف هؤلاء الملوك والأمراء ذرية شرعية. وكان ذلك سببا في نشوب حروب أهلية على قلتها وندرتها. هذا مع العلم أن هذا الزواج غير المتكافئ (زواج معقود بين ملك وامرأة من عامة الشعب مع حرمانه لها من حقوقها السياسية) المعقود ضدا على كل المواضعات الاجتماعية، هو تنازل واضح من الرجل للنساء

والقساوسة. هؤلاء الذين يتعين على الرجال، بخاصة، أن يحرصوا أشد الحرص على عدم تقديم أي تنازل لهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. والملك في بلده لن يرضيه سريان هذا الأثر الطبيعي ليشمل الجميع، وعلى قدم المساواة، قانون إقتران الرجل بأي امرأة يختارها على امتداد البلد الذي يبسط عليه سيادته. لكن مادامت الأعراف قضت بأن يكون "خادم البلد"، ويُحلّل ما يريده بمنطق الدولة أو مصلحة الأمة، فإنه يستفيد من مثل هذه الزواجات. غير أننا، في غمرة هذا التحليل، ننسى بأن الملك هو، قبل كل شيء، بشر قد يقوده قلبه إلى حيث يشاء ويهوى. لذلك، فمن عدم الإنصاف ونكران الجميل، بل وتعبيرٌ عن ذوق سمج جدير ببورجوازي صغير، عدم مؤاخذته على معاشرة محظيته دون تمكينها من مشاركته في تدبير الشأن العام والتمتع بحقوقها السياسية. فأخلاقيا، لم تمنح نفسها إلا لرجل، ولرجل يبُادلها حبا بحب، لكن المواضعات الاجتماعية الجائرة قضت بألاَّ يُجاهر هذا الرجل باقترانه بها، واختزاله لها في زوجة سرية وغير شرعية.

هذا دليل واحد، من بين أدلة أخرى، على أن الشرف الأنوثي ليس شعورا طبيعيا وفطريا، بل صار ما هو عليه بفضل التضحيات الكثيرة، والدموية أحيانا، التي بُذِلت في سبيله، من قبيل قتل المواليد "غير الشرعيين" وانتحار أمهاتهم ونتائج مأساوية أخرى. صحيح أن الفتاة التي تُسلّم نفسها لغير زوجها تخون ثقة جنسها، إلا أن هذه الثقة تبقى ضمنية وغير متوافق حولها، أي لم تكن نتاج عهد قطعته على نفسها أمامهن، أو قَسَمٍ أدته أمام الملأ وعلى رؤوس الأشهاد. لذلك، فالمتضرر الرئيسي والمباشر، في هذه الحالة ومثيلاتها، هو

مصلحتها، إذ يُنْظرُ إلى ما اجترحته كخيانة لهذه الثقة الضمنية وهي حماقة، بحسب هذا الحكم المسبق، تُضاهي في كارثيتها فاحشتها الخاصة.

والشرف الذكوري تابع لنظيره الأنوثي لجهة تعهُّده بالحفاظ على عفّة مقابلة، بمقتضى المعاملة بالمثل. وعليه، فالرجل المتزوج، أي الرجل الذي تنازل هذا التنازل الكبير الذي يخدم أساسا مصلحة المرأة، مُلزَمٌ باحترام مقتضيات هذا التنازل، والسهر على رعايتها حفاظا على هذا "الميثاق الغليظ" الجامع بينهما. فبعد أن أعطى الرجال بسببه كل ما يملكونه، فإنهم لا يطمعون، بالمقابل، إلا في الاستفراد بزوجاتهم. ويُلزِم هذا الميثاق وشرف الاقتران عموم الرجال بتطليق زوجاتهم في حال ثبوت خيانتهن، علما بأن الطلاق هو العقوبة الدنيا في هذه الحالة. أما إن تجاوز الرجل عنها وصفح، فإن كل أبناء جنسه سيرمونه بالعار الذي هو، بكل الأحوال، أخف وطأة من فقدان الزوجة لشرفها الجنسي (عذريتها). ويعود ذلك إلى أن الشرف الجنسي مسألة ثانوية في حياة الرجال الذين يرتبطون بعلاقات أخرى كثيرة أهم بكثير من العلاقات الجنسية.

تطرق الشاعران الأكثر دراماتيكية في العصر الحديث، **شكسبير وكالديرون**، إلى موضوع الشرف الرجالي مرتين: الأولى في **أوتيليو وحَدُّوثة الشتاء**، والثانية في **جابرُ شرفه المكسور والعار المكتوم والثأر السري**. والملاحظ أن عقوبة الثأر التي تنزل على المتزوجة الخائنة لزوجها لا تطال العشيق أو الخليل الذي شاركها في الفعل، وهو ما يؤكد الأصول الذكورية لهذه العقوبة والقائمة على تصور ذكوري للعفة، والتي تعني الأنثى بالدرجة الأولى.

والشرف بأنواعه ومسوغاته التي تقدم ذكرها موجود ونافذ عند كل الشعوب وفي كل الأزمنة، مع تغيرات طفيفة في المبادئ والمسوغات العامة المُؤطِّرة للشرف الأنوثي تبعا لأمكنة وأزمنة.

وثمة تصور عام آخر عن الشرف سائد ونافذ في أصقاع كثيرة لا يعرف عنه الإغريق والرومان شيئا، بل والصينيون أيضا والهندوس والمسلمون. وجد مرتعه الخصب في أوروبا المسيحية خصوصا في أوساط الطبقات الراقية ومجايليها، يتعلق الأمر بـ **الشرف الفروسي**، أو ما يمكن تكثيفه في **مناط الشرف**، والقاعدة التي تحكمه مغايرة تماما لكل أنواع الشرف التي تناولناها حتى الآن، إن لم تكن نقيضها المباشر من نواح عدة. فالتصور العام الأول ينتج عنه **الإنسان المشرِّف**، بينما الثاني يصنع **إنسان الشرف**. سأحاول أن أعرض لمبادئهما على ضوء القانون العام المُؤطِّر لـ **الشرف الفروسي**.

1) لا يتحدد الشرف برأي الغير في استحقاقه من عدمه، بل بالتعبيرات الخارجية المادية عن هذا الرأي سواء كان صادقا أو كاذبا، يستند على أسسٍ أو تُعوزه. فمن الوارد أن يكون للناس كافة رأي سلبي جدا في شخص بسبب سيرته، ومن الوارد أن يمقتوه أشد المقت جراء ذلك، إلا أن ذلك لا ينال، إطلاقا، من شرفه ماداموا غير قادرين على التعبير عن ذلك جهارا نهارا، أمام الملأ وبأعلى صوت. فيستمر في فرض تقديرهم له تقديرا عاليا على علاّته. لكن، لو قام شخصٌ واحد وعبَّر عن مقته العلني له، حتى ولو كان من أرذل الناس، فقد نجح في تلطيخ شرفه وأضر به ضررا بالغا، لا بل قد يفقد شرفه، بالمرة، إنْ لم يبادر إلى استعادته توا.

ويؤكد هذا المعطى أن الأمر لا يتعلق هنا بالرأي بحد ذاته، بل

بجرأة التعبير العلني عنه. لذلك، ما أن يسحب الفاعل ما ألحق به الضرر بشرف غيره من شتمٍ أو قذف ونحوه، ويعتذر من المتضرر حتى تُطوى الصفحة، وكأنَّ شيئا لم يقع. لا يهمُّ بعد ذلك إن كان الرأي، مصدر الضرر، قد تغير وما الذي جعله يتغير، بل المطلوب، فقط، هو محو أحد تعبيراته العلنية، والعدول عنه بصفته شرطا مطلقا لعودة الأمور إلى نصابها والمياه إلى مجاريها. المشكلة ليست في جدارة الشخص المتضرر بالإحترام من عدمه، بل باستكثاره عليه والإخلال به على رؤوس الأشهاد.

2) لا يرتبط شرف الشخص بأفعاله، بل بما يفعل به الآخرون، أي بأفعالهم تجاهه، وبما يحدث له ويَعرِضُ له من نوازل. تناولنا، حتى الآن، بالدرس والتحليل التصور العام السائد عن الشرف، فتبين، من خلال مبادئه ومسوغاته، بأنه يتوقف على أقوال وأفعال الشخص. غير أن الأمر خلاف ذلك في **التصور الفروسي** للشرف. فهذا يتوقف على ما يقوله فلان عن علان وما يفعله به، ومشروط به. فهو شرف يتحكم به الآخرون، ويتقلب بين أيديهم، وتلوكه ألسنتهم؛ يكفي أن يخوض فيه أول قادم بالسوء، أو ينال منه بالفعل، حتى يكون بمهب الريح ما لم يُبادر المتضرر توا إلى إبراءه واستعادته ولو بالقوة. تحدثنا آنفا عن الطرق الكفيلة بإبراء الشرف المطعون في ذمته واستعادته، وتبين أنها قد تُعرِّض حياة سالكها لخطر محقق، أو تعيق حريته، أو قد تلحق أضرارا جسيمة بماله وثروته، أو تشوِّش على راحة باله وتُكدِّر صفوه. وحتى لو كانت سيرة المطعون في شرفه من أنبل وأشرف السِّير، ومن ذوي الروح الأصفى والأنقى، بل وفي عداد النوابغ، إلا أن شرفه ليس أبدا في مأمن من تربص المتربصين به.

وقد يكون أحد هؤلاء سفيها أو نذلا أو من أغبى الناس أو كسولا أو قمَّارا، وعموما من لا يستحق حتى أن نلقي عليه نظرة، فعنَّ لـــه، في لحظة ما، أن يتجاسر على هذا الشرف النبيل، ففعل. فقـــد جـــرت العادة بأن تكون هذه الطينة من بني البشر هي التي يستهويها شـــتم غيرها، والنيل منهم والتعدي، بلا موجب حق، عن حرمتهم. وكـــم كان **سينيكا** مُحقا حين قال: كلما كان المرء منبوذا وممقوتا، كلمـــا تجاسر بلسانه على غيره وأطلق له العنان بالقول المعيـــب. وهدفـــه المُفضَّل هو الأرفع قدرا بين الناس، وأكثرهم نبوغا وألمعية. فالأضداد بطبيعتها تتكاره عفويا، والخصال الحميدة والشيم الرفيعة توقد نـــار سعار أهوج في نفوس البائسين، يقول **غوته**:

لِمَ تشْكُ من أعداءك؟

فلن يكونوا أبدا أصدقاءك،

شخصُك وحده، فضحٌ خفيّ وأبديّ

لحقيقتهم.

واضح إذن أن مبدأ الشرف له فضل كبير على هذه الفصـــيلة الوضيعة من بني البشر إذ تجعلها على قدم المساواة مع المتفوقين عليها بما لا يقاس. فلو أطلق أحدهم العنان للسانه، وشتم غيره بأي صـــفة مرذولة وخسيسة، فلن يكون للمشتوم إلا خيار واحد هو الردّ، الردّ لمحو العار الذي لحقه، ولو بإراقة الدم إن اقتضى الحال. وإن لم يفعل فسيُزكّيه إلى حين ولو كان عاريا عن الصحة ومفتقرا للحجة، هـــذا إن لم تُكتب له الحياة إلى الأبد لو باركه مرسوم قانوني نافذ. سيغدو المشتوم إذن، في أعين وموازين رجالات الشرف، هو ما تلفَّـــظ بـــه الشاتم بحقهم ولو كان من أرذل الأراذل وأحطّهم قيمة. والسبب هو

أن المتضرر فضَّل أن يبتلع الإهانة ويلتهم الشتيمة على حد تعبير العبارة المتداولة. ومنذئذ، سيمقته "رجالات الشرف" أشد المقت، وسيتهربون منه كما لو كان مجذوما، وسيتفادون حضور اللقاءات والإجتماعات أو أي مكان يحضر فيه. ولا يساورني أدنى شك في أن هذا "الشعور المحمود"يرقى وجوده إلى العصر الوسيط. فقد ذكر **راتشر** كيف أن المُتَّهَم لا المُتَّهِم هو المطالب بتبرئة ذمته مما اتُّهِم به في المحاكمات الجرمية إلى حدود القرن الخامس عشر، من خلال أداءه قسما بهذا الشأن يزكيه "شهود مساعدون" يُقْسمون أيضا على صدق قسم المُتَّهَم. أما إذا لم يتداركه هؤلاء، أَو طَعَن المُتَّهِم في ذمتهم، فسيوكل أمر الحكم الأخير للرب من خلال المبارزة بين الطرفين. فإلى هنا، يكون "المشتوم" معنيا بالفعل بالتهمة-النقيصة، وثبتت عليه الشتيمة، ويغدو مطالبا بإبراء ذمته منها بطريقة أخرى غير طريق التقاضي. هو ذا الأصل التاريخي لموضوعة الشتيمة وحيثياتها، والإجراءات التي تشملها والتي لازالت سارية المفعول، إن لم يُبطل القسَم والقسَم الداعم مفعولها المُضرّ. وهذا ما يفسر السخط الشديد الذي يتملك "رجالات الشرف" لما يتجاسر أحدهم عليهم فيتهمهم، زورا وبهتانا، بما ليس فيهم من نقائص ورذائل. كما يفسر عمليات الثأر الدامية التي يلجؤون إليها، في أحايين كثيرة، لرد الاعتبار لذواتهم. وهو أمر بمنتهى الغرابة إذا استحضرنا كيف بات الكذب والبهتان عند الكثيرين عملة يومية. فقد تبوأ الكذب سُدّة "البدعة/الخدعة" الكثيرة الشيوع والشديدة التجذر في الحياة اليومية للبريطانيين على سبيل المثال. وجرت العادة بأن يُشهر المرء سيفه في وجه كل من إتهمه بالكذب، هو الذي تعهد بالإمتناع عن الكذب

طيلة حياته. ثمة إجراء عام يُحتكم إليه في جلسات المحاكم التي تبت في مثل هذه النوازل، وهو أن يرد المُتَّهَم على المُتَّهِم بالقول: كذبت. بعدها، يحتكم مباشرة إلى "حكم الرب" مُمثَّلا في الإستعانة بالسلاح لأجل تبرئة النفس من جريرة الكذب، وهو من الأمور الثابتة في قانون الشرف الفروسي.

هذا في ما يتعلق بالشتيمة. إلا أن هناك ما هو أسوأ منها، شيء مرعب، أستسمح "رجالات الشرف" بألاَّ يجعلوه نافذا إلا في حالة **الشرف الفروسي**. فأنا على يقين بأن مجرد تصوره ستقشعر له أبدانهم. هذا الشيء هو منتهى الأذى وأعظم الشرور، إنه مفزع أكثر من الموت وأدهى من التنكيل، وأقصد تلقي شخص لضربة، صفعة كانت أو لكمة أو ما شابه. فتلك إهانةٌ ستُسقط شرفه بكل تأكيد. فإن كان ممكنا مداواة الجروح الناتجة عن دفاع عن شرف ملطخ، فالعلاج الوحيد في حالة الإهانة يتلقاها المرء، بواسطة الضرب، هو قتل مُهينه لأجل إعادة الاعتبار لشخصه.

3) إن مصدر قلق المرء على شخصه ليست خشيته على مساسٍ ما بصفاته الذاتية، أي ما هو بذاته ولذاته، ولا حتى التساؤل إن كان الشرط الأخلاقي لجانبٍ من كينونته ينالها تغير حالما مس بشرفه، وغير ذلك من المزاعم المدرسية، بل هو **الشرف الشخصي**. فلو أصابه مكروهٌ أو ضاع ولو للحظة، فهناك فرصة لاستعادته كاملا في حينه شرط القطع مع التردد والإسراع في الرد. ولا ترياق لهذا المصاب الجلل إلا الاحتكام للمبارزة. أما إنْ كان المعتدي لا ينتمي إلى الطبقات الاجتماعية التي تتقيد بقانون الشرف الفروسي، أو إن ثُبت انتهاكه له في الماضي، فليس أمام المعتدى عليه إلا القضاء عليه

بقوة السلاح فور قيامه بعدوانه، أو ساعةً بعد ذلك على أبعد تقدير. فذاك هو الإجراء الوحيد الناجع. بذلك، سيكون قد استعاد شرفه المفقود سواء كان العدوان عليه لفظيا أو ماديا. وهناك من يتفادى اللجوء إلى هذه الطريقة في الثأر تجنبا لمشكلاتها والمضايقات الناتجة عنها، مُفضِّلا بدلها هذا الإجراء: فإن كان المعتدي مشمولا بقانون الشرف الفروسي، يلجأ إلى حل وسط هو: **هذه بتلك**، فإن شتمه المعتدي رد عليه بالشتيمة عينها، أو بادره بالضرب إن لم تُوقفه الشتيمة عند حده وتعود به عن غيّه. وفي حال الرد بالضرب، تكون إعادة الاعتبار بردود أشد وعلى نحو تصاعدي. فالرد على الصفعة يكون بضربة عصا، والرد على ضربة عصا يكون بالضرب بسوط الصيد، والرد على السوط يكون بالبصق على الوجه، وهو رد أثبت نجاعته. وان لم تؤتي كل هذه الوسائل أُكلها في ردع المعتدي، فلا خيار بعد ذلك إلا إراقة الدم. وهذا التدرج في الرد من الخفيف إلى العنيف يحكمه منطق الحكمة.

4) فالشاتم حين يشتم يكون مدفوعا بمُستلزمات الشرف، بينما المشتوم يلحقه العار ويكسوه إلى حين رفعه عنه. لكن، لو ثبت صدق الشتيمة، فليس للمشتوم إلا أن يبلع لسانه ولو كان ذا مزايا ومناقب رفيعة. في هذه الحالة، يُغير الحق والشرف معسكره ليصير بجانب الشاتم، ويكون الفاقد لشرفه مُطالبا باستعادته. ولا استعادة إلا بحد السيف أو طلقات الرصاص لا بكلام عن الحق ونداء العقل. من منظور الشرف الفروسي، لا شيء يعلو على الفظاظة والبذاءة، هما القيمة العملية المطلقة. فالأكثر فظاظة وبذاءة هو المحق في كل الأحوال. فمهما ارتكب الشخص من حماقات وأفعال غير لائقة، بل

وفضائح يندى لها الجبين فإن الفظاظة والبذاءة تمحوهما وتسحبان عليها مشروعية خاصة. هبْ أن شخصا أبان في مناقشةٍ عن معرفة عميقة ودقيقة، وتشبث بالحقيقة، وقدرة على الحكم السديد ورجاحة عقل، وبكلمة أبان عن تفوق عقلي، فإن مُحاورَه سيموت خجلا أو يلوذ بالصمت أو يتوارى في الظل، ثم سرعان ما يتحول إلى شخص فظ وعدواني لعجزه عن طمس تفوق محاورِه مقابل إخفاء ضحالته الفكرية، متوهما بذلك أنه يمارسا تفوقا بديلا. فليس للحجج الرصينة إلا أن تحزم أمتعتها عندما تحل الوقاحة في التعبير والسلوك، فالوقاحة تحكم على الفكر بالانزواء. ولو أحجم من كان هدفا لها عن الرد عن صاحبها، فسيُضاعف من جرعاتها جريا وراء تحقيق السبق والتفوق المعكوس على غريمه، الذي يمده بإحساس عارم بالانتشاء والزهو والجدارة بشرف. عندئذ، لن يكون أمام الحقيقة والثقافة وكل رجاحة عقل العالم وصواب الحكم والذكاء إلا أن يحزموا حقائبهم، والانسحاب من مواجهة الوقاحة العارية. لذلك، ما أنْ يعبر شخص عن رأي مخالف لرأي أحد "رجالات الشرف"، أو أبان عن رجاحة عقلية أكبر من خلال مناقشة حتى يمتطي هؤلاء صهوة هذا الفرس المتخصص في هذه المعارك. إنْ أعوزتهم الحجة في الرد على مجادلهم، إستعاضوا عنها بالفظاظة والفحش الذي يكون، دوما، رهن إشارتهم، ويضطلع، بزعمهم، بالدور نفسه، أي إثبات التفوق معكوسا، وضمان خروجهم من المجادلة مزهوِّين ومنتصرين.

وبعد، أليس مبدأ الشرف هو المسؤول الأول عن غلبة نبرة النبالة في كل الميادين الإجتماعية، حتى بات القاصي والداني يعتقدان بأنهما قطعا من سلالة النبلاء؟ فالقاعدة الأخلاقية العامة المُوجِّهة

لهكذا مبدأ، والتي توسعنا فيها إلى هذا الحد، ترتكز بدورها على قاعدة أخرى هي أسُّ وروح الشرف كما تقدم شرحه.

5) إن كل المنازعات حول الشرف والمعروضة على أنظار محكمة العدل العليا لها صلة بقضايا العنف الجسدي، أي بالجانب الحيواني للمُتقاضين. فكل بذاءة في السلوك إستفزاز لحيوانية الإنسان في الإنسان، وإقرارٌ بالعجز الأخلاقي للعقل، وبالتالي فهي دعوة إلى المواجهة البدنية. وقد كان **فرانكلين** محقا، إلى حد كبير، عندما عرَّف الإنسان بالحيوان الصانع للأدوات. وهذا النوع من أنواع الصراع بين بني البشر لا يتحقق إلا من خلال المبارزة التي تستعمل فيها أسلحة صُمِّمت، خصيصا، لهذا الغرض، وتُسفر عن حكم نهائي غير قابل لنقضٍ ولا استئناف. وهذا المعطى العام له إسم خاص هو **حق القوة**، والذي ينطوي على دلالة تهكمية واضحة، ففي الألمانية يدل على معنى العبث واللامعقول Aberwit. لذلك، يبدو لي أن الصواب هو تسمية الشرف الفروسي بـ **شرف القوة**.

6/في معرض تناولنا للشرف البورجوازي، لاحظنا تركيزه على **مالي ومالك**، وعلى الواجبات المُتعاقد حولها، والتعهد الشفاهي، أما قانون الشرف الفروسي فيتمحور كله حول التطبيق الحرفي لمبادئ النبالة. والالتزام الشفاهي بهذا لقانون وبعدم الإخلال به هو "كلمة شرف" تفرض على صاحبها أن يختم دائما التزاماته بلازمة "على شرفي". وكل من أخلَّ بتعهداته، من سلالة النبلاء، يغدو، بمقتضى هذا القانون، مشتبَها به وغير جدير بثقة. وفي حال الإخلال به، يتم الاحتكام إلى الفيصل، وهو قانون المبارزة أملا في استعادة الشرف الضائع، يُبارز فيها المتَّهم بالإخلال مُتَّهِميه بنكث عهوده وعدم الوفاء

بتعهداته. كما يُستعاد بِما يسمى في قانون الشرف بـ "فدية الشرف" المُتحصِّلة من لَعبة متفق عليها بين الطرفين. وغيرها من الفديات يختلسها النبلاء من اليهود والمسيحيين دون أن ينال ذلك من شرفهم.

لا شك في أن كل من يمتلك ذرة عقل راجح ونية حسنة، سيُدرك، بيسر، غرابة هذا القانون وشذوذه، بل وهمجيته أيضا؛ إنه قانون يستحيل أن ينبثق من طبع إنساني سليم، أو طريقة سوية في تدبير العلاقات بين الناس. وتلك حقيقة تؤكدها محدودية المجال الذي طُبِّق فيه، والعصر الذي سرى فيه مفعوله، أي العصر الوسيط وتحديدا بين النبلاء من طبقة العسكر ومُجايليها. فلا وجود له عند الإغريق والرومان وكل الأقوام التي قطعت أشواطا معتبرة في التحضر بآسيا، كما لا نجد له أثرا في التاريخين القديم والحديث. كل هذه الحضارات، لا تعرف شيئا عن هذا النوع الغريب جدا من الشرف والمبادئ التي تُوجِّهه، بل تنحصر معرفتها في الشرف البورجوازي. وبمقتضاه، تتحدد قيمةُ الإنسان وشأنه في سيرته وأفعاله، لا في ما تتفوه به الألسن المنفلتة لكل من هب ودب. فما يقوله ويفعله شخص هو الذي يرفع شأنه وشرفه أو يصيبه في مقتل، ولا دَخْلَ لشرف الغير في هذه المعادلة. على هذا النحو، كان يُنظر إلى اللكمة عند أشياع الشرف البورجوازي كلَكمةٍ لا أقل ولا أكثر. قد يتلقاها إنسان من آخر، أو من حيوان، وقد تصيب ضحيتها بنوبة غضب، وتُؤجج فيه الرغبة بالانتقام الفوري، لكن لا علاقة لها، إطلاقا، بشيء مجرد وفضفاض يُدْعى شرفا. فلا وجود عند هذه الأقوام والشعوب المتحضرة لمُصنفات تُرتَّب فيها الضربات والشتائم بحسب درجة

خطورتها، كما هو معمول به عند شيعة الشرف الفروسي، أو تُصنَّف فيها الإشباعات التي لا تختفي إلا بإرضائها وتحققها. فتصوُّر هذه الشعوب للبطولة وازدراء الحياة لا علاقة له البتّة بالتصور السائد بأوروبا المسيحية إبان العصور الوسطى.

فلا يُنازِع إثنان في أن الإغريق والرومان كانوا أبطالا كاملين، ومع ذلك، فلا علم لهم، إطلاقا، بشيء يُدعى **مناط شرف**. المبارزة، عندهم، هي من صنيع المُصارعين والعامة والعبيد المتخلى عنهم والمجرمين الذين جرَّمَهُمْ القضاء، وليست بالمرة من شيم النبلاء. فقد كان الرعاع يُهيَّجون ليتناوبوا على مصارعة الحيوانات المفترسة بغية الترويح عن الجماهير التي تتخذهم فرجة مُسلّية. وبظهور المسيحية، اختفت ألعاب المصارعة لتحل محلها مبارزة أخرى إعتبرتها المسيحية، في عز تمكُّنها، الحُكْم الأخير للربّ وقضاءه المحتوم وقدَره المكتوب. وبينما كانت ألعاب المُصارعة الحرة تتقدم بالقرابين الفظيعة على مذبح الفرجة العامة، كانت المبارزة المسيحية لا تقل عنها فظاظة وفظاعة، إن لم تكن تُضاهيها. فقد كان الأحرار والنبلاء هم وقودها، والمثال الذي يتعين الإقتداء به فيها. والحال أن حطب ألعاب المصارعة اليونانية والرومانية كان من عتاة المجرمين والعبيد والمساجين.

ثمة أدلة تاريخية غزيرة على الغياب المطلق لهذه العادة الاجتماعية في المجتمعات القديمة، ومن ذلك ما قاله **ماريوس**، ردّاً على زعيم توتوتي (من سكان جرمانيا الشمالية)، لمّا دعاه إلى المواجهة: إنْ سئمتَ من الحياة، فاشنقْ نفسك. بل دلّهُ على مصارعٍ شرس يُصارعه على هواه! وروى بلوتارك أن **أويبياديوس** قائد الأسطول البحري أشهر عصاه في وجه **تيميسطوكليس** بعد تلاسنٍ حادّ

بينهما، وهو ماردّ عليه هذا الأخير ببضع كلمات دون أن يُشهر أي سلاح في وجه غريمه، بل اكتفى بالقول: إضربْ لكن اسمع!

فلو سمع أحد المتعصبين لقانون الشرف هذه الرواية، كما جاءت على لسان **بلوتارك**، لثارتْ ثائرته لأنه حذف منها مقاطعة كل الضباط الأثينيين لـ**تيميسطوكليس** المسكين بعد هذه النازلة عقابا له على تخاذله عن الدفاع عن نفسه! لذلك قال كاتب فرنسي حديث، ومعه الحق في ذلك: لو تجرَّأ أحدهم على القول بأن **ديموستينوس** من رجالات الشرف، لسخِر منه الجميع حد الشفقة. قال **أفلاطون** في ما كتبه عن **وسائل العنف**، بأن الأقدمين لم يكونوا يعرفون شيئا عن هذا الشعور الحاد المؤجِّج لعاطفة الشرف النبيل كما هو معمول به عند النبلاء. فسقراط مثلا المعروف بمشاجراته الكثيرة وجد نفسه، غير ما مرة، في مواقف كان فيها عُرضة للضرب والإذلال البدني تحمَّلها بهدوء كامل ورباطة جأش. يُذكر أن أحدهم رَكَلَهُ بعنف ذات يوم فتقبّل الأمر بهدوء، وأجاب أحد الحاضرين الذي استغرب لرده بقوله: فهل كلما ركلني حمار أسرع الخطى لتقديم شكاية ضده؟ (رواه ديوجين). وفي حادثة أخرى، أجاب شخصا قال مُستغربا من رده الهادئ في موقف مماثل: هذا الذي أمامك يذمُّك ويحطُّ من قدرك ويُهين كرامتك.. فردّ عليه **سقراط** بالقول: كل ما قاله عني لا أجده في نفسي! نقرأ مقطعا طويلا **لموسنيوس** عند **سطوبي** يكشف فيه النقاب عن الطريقة التي كان الأقدمون يتعاملون بها مع الشتائم والإهانات، ويُذكر أهم ما كانوا يجدون عزاءً لهم ولا إنصافا من ظلمها إلا بلجوئهم إلى العدالة لتقتصَّ لهم من مُهِينيهم، بل إن الحكماء منهم كانوا يزدرون حتى هذه

الطريقة. في محاورة **جورجياس**، يقول **أفلاطون** بأن اللجوء إلى القضاء هو وحده الكفيل بالإقتصاص وردّ الإعتبار للمصفوع والمضروب، وستجد بها رأي **سقراط** مُفصَّلا في الموضوع. نجد واقعة مماثلة في ما رواه **أولوجيل** عن المدعو **لوسيوس فيراتيوس** الذي كان يتلهى، بلا موجب إلا الباعث العدواني، بصفع المواطنين الرومانيين الذين يصادفهم بالشارع العام. وتجنبا لأي ملاحقات قانونية، والمعروفة بطولها وتعقدها، جرَّاء ما اقترفت يده، كان يُرافق في "غزواته" عبدا يحمل كيسا من النقود النحاسية يدفع منها لكل من صفعه 25 آس كغرامة نقدية قانونية لو احتج على صنيعه! وقد صفع المغني **نيكودورم** الفيلسوف **كراتيس** صفعة قوية تورَّم منها خدّه وازرقّ دمه، فلم يزدْ عن تعليق لوحة صغيرة على جبينه، كتب عليها: نيكودورم هو من فعل بي هذا! وهو ما ألحق خزيا وعارا بعازف الناي بقية حياته جراء فعله الشنيع برجلٍ تُبجِّله أثينا من أقصاها إلى أدناها تبجيلها لرب البيت المعروف في الأساطير الإغريقية. وبحوزتي رسالةٌ بعث بها **ديوجين** إلى **ميليسيبوس** يذْكر فيها أن أثينييْن ثمليْن ضرباه ضربا مبرحا لم يُحرك فيه شعرة. أما **سينيكا**، فقد خصَّص الفصل العاشر من كتابه **رباطة الجأش** لعرض واف عن **الإهانة**، خلص فيه إلى القول بأن الإهانات، بشتى أنواعها، يمقتها الحكيم أشد المقت. ومن جملة ما قاله في هذا الباب بالفصل الرابع عشر: كيف سيرُدُّ الحكيم حين يصفعه أحدهم؟ فأجاب: لن يستشيط غضبا، ولن يُقيم الدنيا ولا يقعدها، بل لن يثأر حتى من الفاعل ولن تُراوده حتى فكرة الصفح عنه، بل سيُنكر، أصلا، وقوع الحادثة! ورُبَّ معترض يقول: ولكن هؤلاء الذين تحكي عنهم من

زمرة الحكماء والصفوة؟ وأجيبهم بكلمة: ومن أنتم؟ جماعة مجانين، فليكُن!

نخلص إلى إقرار الغياب المطلق لمبدأ الشرف النبيل، الشرف الفروسي في تصورات الأقدمين لأنهم كانوا ينظرون إلى الأمور نظرة واقعية خالية تماما من قوة الأحكام المسبقة المغالية، ولم تكن تخدعهم المزايدات المشؤومة الجديرة بالرثاء التي يُسيَّج بها الغلاة هذا المبدأ وتصوُّرهم المعطوب للشرف. لذلك، كانوا يرون في الضربة ضربة لا أقل ولا أكثر، أي أذى بدني صغير بينما يرى فيها المُتأخرون أمرا جللا وكارثة عظمى وفضيحة بجلاجل، وفي كلمة مأساة حقيقية. وهذا التصور الحديث للإذلال البدني هو الذي نقرأ عنه أمثلة في رواية **كورناي Le cid**، وفي رواية ألمانية بعنوان **ظروف قاهرة**، وكان الأجدر عنونتها بـ **قوة الحكم المسبق**. فهبْ أن أحدا صفع آخر في الجمعية الوطنية الفرنسية، فإن أوروبا كلها ستهتز للحدث المزلزل.

من المؤكد أن كل هذا الموروث التقليدي، والأمثلة من التاريخ القديم لن تروق لمزاج "رجالات الشرف"، لذلك ننصحهم في الأخير بقراءة **جاك القدري** لديدرو عسى أن يجدوا في قصة **السيد ديسغلانس** ضالتهم وترياقا لِعلّتهم. فلاشك بأنهم سيجدون فيها صيغة حديثة وغير مألوفة للشرف النبيل أقدر على إدخال البهجة إلى نفوسهم، ورفدهم بشتى العبر التي تهفو إليها أرواحهم.

تبين مما تقدم أن مبدأ الشرف ليس معطى مركوزا في الطبيعة الإنسانية، بل من صنع الإنسان وابتكاره، وبالتالي فهو اتفاقي ومواضعاتي وهو ما من شأنه تسهيل الكشف عن أصوله التاريخية.

فقد شهد ولادته الأولى في العصر الذي راجت فيه اللكمات أكثر من النطحات، وكان القساوسة يكبِّلون فيه عقول الناس بأغلالهم المُحكمة. وبكلمة، فقد كان المبدأ إياه إبنا شرعيا لعصر طالما بجَّله وامتدحه الأوروبي، ونوَّه بالنبالة فيه. عصرٌ لم يكن فيه المؤمنون خاضعين لمشيئة الرب فحسب، بل كان الربّ يتدخل ليحكم في ما اختلفوا فيه وتنازعوا حوله، وكان القضاء يبث في قضايا شائكة تُعرض عليه بأحكام إلهية لاراد لها، أغلبها يتخذ شكل مبارزات غير مقصورة على النبلاء بل تشمل البورجوازيين أيضا. وهو أمر يؤكده مقطع آسر في هنريIV لـ **شكسبير** (الجزء 2).

إن المبارزة هي الحكم الأخير، حكم الرب الذي لا يقبل تحويرا أو إستئنافا أو نقضا، وبمقتضاه تحل القوة واللياقة البدنية -أي الطبيعة الحيوانية- محل العقل، فهي الحُكم الأخير والقضاء النهائي. والمشكلة أنه لا يبث في ما اقترفته يد الإنسان بل في ما عرض له واقترفته يد غيره بحقه لِيُقرر مصيره ويحسم في ما إن كان مُحقا أو مُخطئا. وهذا الإحتكام إلى القوة العارية هو الذي لازال **الشرف النبيل** يعمل به إلى يوم الناس هذا.

وإنْ كانت الشكوك لازالت تنتاب البعض حول أصل المبارزة ومساطرها، فما عليه، ليُبدِّدها، إلا أن يقرأ، بتمعن، الكتاب القيم لـ **ميلينغين** بعنوان **تاريخ المبارزة** الصادر سنة 1849. وإلى يوم الناس هذا، لازال ثمة من يعمل بمقتضيات هذا القانون، ولازال ثمة أيضا من يعتقد بأن نتيجة المبارزة هي حكمُ الرب وقضاءه الأخير في المنازعات بين الناس. والمؤكد أن المُعتقدين في ذلك ليسوا هم الأكثر تعلما والأرجح عقلا بين الناس كافة. أما الواقع التاريخي فيقول بأن

هذا المعتقد الراسخ لا يعدو أن يكون رأيا بشريا ما كان له أن يتجذر في الناس، جيلا بعد جيل، لولا تلقينه لهم وتوريث عوائده ومساطره ومسوغاته.

وبصرف النظر عن أصل وفصل هذا المبدإ، فهدفُه المباشر هو الحصول من أفواه الناس على شهادات تقدير، وهو من جنس التقدير الذي لا يتيسَّر الحصول عليه عن جدارة، فيُستعانُ على كسبه بالترهيب، بل وعلى كسب الفائض منه. الأمر أشبه بشخص يُدفِّئُ بيديه مِحراره ليبرهن بذلك على أن غرفته جد دافئة مادام الزئبق صاعد. وتوضيحا للفكرة العامة التي نحن بصدد مناقشتها، نُقرر هذه المقارنة:

بِما أن الشرف البورجوازي يُعطي الأولوية المطلقة لسيادة الروابط السلمية بين الناس، فإنه يتحدد بكونه ذلك **الرأي الجدير بأشخاص جدارة ثقة وصدق، لجهة احترامهم المتبادل لحقوقهم المشتركة**، وبما أن الشرف النبيل يتحدد بكونه **رأيا يجعل الرازحين تحته يتوجسون خيفة، على الدوام، من سلب حقوقهم عنوة، فإنهم يحسبون كل صيحة عليهم، ويندفعون، عند أول استثارة، للدود عنها بشراسة منقطعة النظير**. ويكون العمل في سياقه بالقاعدة العامة التي تقول: من الأفضل أن تكون مبعث خوف من أن تكون مصدر ثقة. فهي القاعدة الصحيحة، بل والوجيهة، التي يُعتد بها في قانون الشرف، لأن عدالة البشر لا يُعوَّل عليها كثيرا، هم المنغمسون في **حالة الطبيعة** التي لا يحفل فيها كل واحد إلا بشخصه وبالدود الشرس عن حقوقه، أو ما يُزعم على أنه كذلك. وفي عصر محسوب على الحضارة والتمدن، عصرنا، كان من المفروض أن تختفي هذه

الحالة، حالة الطبيعة، بعد أن تكفلت الدولة القوية بحماية مواطنيها كافة وصون ممتلكاقم. فالقاعدة التي تُشرعنها هذه الحالة أشبه ما تكون بقصور الأبراج الكبيرة الموروثة عن العصر الذي سادت فيه **قوانين مانو**(*). قصورٌ بلا جدوى، مهجورة عن آخرها وسط بلدات تكسوها خضرة خلابة وتخترقها مسالك معبدة دافقة بالحيوية والنشاط، بل والسكة الحديد أيضا. وبما أن تعاليم الشرف النبيل تُلقِّن، وتحضُّ على التقيد بهذه القاعدة العامة فهي مسؤولة مسؤولية مباشرة عن إلحاق أضرار بالغة بضحاياها والتي تتلكأ الدولة في معاقبة مرتكبيها، وإنْ عاقبتهم فعقابا خفيفا لا يردع ولا يدفع. وهي من جنس الأضرار التي تُدرجها في الجنح التي تترتب عنها أضرار طفيفة لا تكاد تعتبر. بل، الأدهى أن تُصنفها ضمن المضايقات العادية والتنكيد المألوف في كل اجتماع بشري.

ولكي يضع الشرف النبيل نفسه فوق الدولة، بالغ في تقدير الشخص حتى بوأه مرتبة القداسة ضدا على كل السنن الطبيعية والجبلّة البشرية. من هذا المنطلق، قدَّر بأن العقوبات التي تُنزلها الدولة على المتجاسرين على إهانة الأشخاص غير كافية ليتولّى بنفسه معاقبتهم عقابا بدنيا يصل أحيانا حد الموت. لا لشيء إلا لكون المتهمين تجرؤوا على العبث بشرف النبلاء. وهذه الدعوى "النبيلة" إنما هي خدعة مغرضة رقّاها النبلاء إلى درجة العصمة وهي دليل قاطع على الكبرياء المغالي المتأصل فيهم، وعلى الصلف المثير للغضب الذي عُجِن فيه طبعهم.

(*) واحد من 14 شخصية أسطورية في الهند يُعتقد أنها ستتناوب على حكم العالم، مانو السابع هو الذي يحكم بحسب الأسطورة اليوم وهو واضع قوانين سميت باسمه قبيل التاريخ المسيحي.

ولأجل التصدي لهذا الشطط في استعمالهم للقوة، علينا، معشر المتحضرين، العمل بهذه القاعدة:

كل من عقد العزم على التشبث بمقتضيات الشرف النبيل وتطبيقها عنوة، رافعا شعار: القتل هو جزاء كل من ضربني أو شتمني، من واجبنا العاجل نفيه من كل البلدان والأمصار (3). صحيح أن المتعصبين لمقتضيات هذا الشرف يتحججون بكل الذرائع لشرعنة هذا الكبرياء الجامح، وتقديمه في حلة تسر الناظرين وتدغدغ السامعين، لكن هذا شأنهم. ومن جملة ذرائعهم الواهية، هذا المثال المفترض: هبْ أن احتكاكا أو مشاداة وقعت بين شخصين عنيدين فرفض أحدهما التنازل إلى أن تطور الاحتكاك إلى تبادل للشتائم والشتائم إلى تبادل للضرب لينتهي بالمأساة، أي بقتل أحدهما للآخر. ألن يكون من الأفضل القفز على كل هذه المراحل، والمرور، مباشرة، إلى المواجهة بالسلاح؟!

وبقية الإجراءات التفصيلية سنَّها المتعصبون لهذا المبدأ من خلال منظومة متكاملة من المزاعم الخرقاء والإدعاءات الرعناء تضم ترسانة من القواعد والقوانين هي، بلا جدال، التمثيلية الهزلية الأكثر مدعاة للهم والغم في عالم الناس. العاقل من الناس، سيتبينُ فيها قمة الجنون البشري.

من الواضح تماما أن المقدمة العامة لهذا الاستدلال خاطئة جملة وتفصيلا. ففي كل الخلافات البسيطة والنزاعات التافهة (مادامت المنازعات الكبيرة تُحال على أنظار المحاكم)، نجد واحدا من المتنازعين أقل عنادا ومستعدا للتنازل، هو أحكمُهما وأرجحهما عقلا. أما رأي الناس في تنازله فلن يلتفت إليه بالمرة. وهناك أمثلة كثيرة عن ذلك إنْ

في أوساط العامة أو الخاصة، وبخاصة في الطبقات الاجتماعية التي لا تجعل من المبدأ الإطلاقي للشرف النبيل دينها وديدنها. فالخلافات والنزاعات في مثل هذه الحالات تأخذ مجراها الطبيعي البعيد عن كل مغالاة، ولا تتجاوز نسبة القتل فيها 1000/1، بل إن الخناقات والمشاجرات فيها تُعد على رؤوس الأصابع. ويضيف المتعصبون لهذا المبدأ ذريعة أخرى مؤداها أن المبارزة ضمانة لاستدامة الآداب الحميدة والعوائد المحمودة في المجتمع، وصمام أمان ضد المفاسد بكل أنواعها، بل وهي الحصن المنيع ضد تجاوزات العنف الأهوج واستفحال مظاهر الوقاحة. والكلُّ يعلم أن أثينا وكورينثو وروما هي حواضر شهدت نشأة مجتمعات راقية، وبروز طرق في العيش أنيقة ومهذبة، والتعامل بأدب جم بين مواطنيها، دونما حاجتها، بالمرة، إلى زرع بذور الشرف النبيل في تربتها لتضطلع بدور البعبع الرادع لعبث العابثين وتجاوزات المتجاوزين. صحيح أن النسوة لم يكنَّ متسيّدات في هذه المجتمعات، كما هن اليوم، إلا أن هذه الحجة قاصرة عن تبرير إشاعة قيم الشرف الفروسي النبيل، لا لشيء إلا لتفاهتها وخلوها من الجدية. هذا مع الإقرار المسبق بأن حضورهن المكثف في المجتمعات الحديثة ساهم، بنصيب وافر، في إعلاء المجتمع من شأن الشجاعة الفردية على نحو مفرط ومبالغ فيه. فهذه الأخيرة لا تعدو أن تكون خصلة ثانوية جدا، فضيلة من بين الفضائل البسيطة التي يتحلى بها ضابط صف لا غير، لا لشيء إلا لأن الحيوانات تتفوق فيها على الإنسان بما لا يُقاس. ألَمْ يعتد الناس في كلامهم على تشبيه الإنسان الشجاع بالأسد الهصور؟! غير أن ما يسعى المبدأ الطنان للشرف النبيل إلى طمسه أدهى وأمر. ففي النوازل الخطيرة يحتمي

بسلطة الخبث والشر، وفي الصغيرة يجد ضالته في السفه والفظاظـــة. فقد جرت العادة بأن يتحمل الناس كما هائلا من التجاوزات المعيبة حتى لا يُلقوا بأنفسهم إلى التهلكة لو أصروا على معاقبة مرتكبيهـــا. وأكبر دليل على صحة دعوانا أن المبارزات الدموية إنما تجد مرتعهـــا الخصب في الأمم التي تعاني بها الروابط السياسية والإقتصـــادية مـــن إختلالات ضخمة تنعكس سلبا على الروابط الجامعة بين أفرادهـــا، وعلى حسهم المدني وثقافتهم الاجتماعية المتدهورين. بكلمة، تلـــك الأمم التي لها باعٌ طويل في استلهام النماذج السلبية والسيئة.

كل الذرائع التي يتذرَّع بها دعاة شرعنة الشرف النبيـــل واهيـــة. وكل ما في الأمر أن الكلب يهر إن هررناه، ويُداعبُنا إن داعبناه، كما يعادي إنسان من عاداه، ويهتاج ويخرج عن طوره إن عُومل بـــازدراء وقلة مراعاة. تلك معادلة عقلية غاية في البساطة والوضوح. وقد سبق لـــ **شيشرون** أن عبر عن فكرة مشابهة بقوله: كل إهانة هي غُصـــة في الحلق وشوكة واخزة، حتى العقلاء والحكماء يعانون الأمرين ليغـــالبوا وخزها. "لن تجد مكانا بالعالم يتحمل فيه النـــاس الإهانـــات بهـــدوء كامل، باستثناء ثلة من الطوائف الدينية الشديدة التقى والورع، فمـــا بالك إن كانتْ ضربا ولكما ورفسا؟! غير أن الطبيعة نفسها لا تقضي في مثل هذه النوازل إلا بالقصاص، أي أن تكون العقوبة مـــن جـــنس المخالفة (الإهانة)، ولا تقول أبدا بسفك دم كل مـــن يتـــهم أحـــدا بالكذب أو الجبن أو السفه. والمعادلة القانونية الجرمانية القديمـــة الـــتي تنص على أن جزاء الصفعة هو طعنة خنجر حجة خرقاء من حجـــج الشرف النبيل المهيج للأعصاب. فثأر الإنسان للإهانات التي تلحقـــه موكول إلى القوة الغضبية، لا للشرف أو لواجب الإنتســـاب لطبقـــة

النبلاء. فالملامة لا تُهين الموجهة إليه إلا إذا كانت صادقة، وأيُّ تلميح إليها لابد أن يجرح المعني بها، وهو ما لن يحصل لو كانت مجرد ادعاء تُعوزه الحجة والدليل. فأيُّ شخص يُلام عن طريق الخطأ والادعاء لا يمكن أن يُحس تجاه لائمه إلا بالازدراء وسيُعامله باستخفاف ولامبالاة. أما إن كان مبدأ الشرف هو الذي يوجهه، فسيُسايره ويسقط في فخ الانتقام منه جراء الإهانة التي ألحقها به، حتى ولو كانت بردا وسلاما على نفسه. فعندما يصرف المرء سواد وقته في تفنيد تقولات ومزاعم الناس التي تُشكك في قدره وتحط من شأنه، فهذا معناه أنه ليس واثقا من نفسه، مُدركا لقدره، فيهتز لأي عارض ويضطرب لأي طارئ يستهدف شخصه. إن التقدير الحقيقي للذات، متى توفر للشخص، يمده بأسباب السكينة والثقة بالنفس الناتجة عنها مقابل ازدراءه المطلق لكل الإهانات والتبخيسات التي قد تستهدفه بين الفينة والأخرى. وحتى لو غاب عنه هذا التقدير الذاتي فإن التبصر والتربية الحسنة ينوبان عنه في ذلك فيرفُدانه بما يكفي من القدرة على ضبط النفس وكظم الغيظ. ولو نجح الناس في التخلص الجماعي من خرافة مبدأ الشرف ومستلزماته، وما عاد الواحد منهم يُصدِّق بأن إهانةً ما من شأنها أن تنال من شرفه أو تستعيده، ولو أيقنوا بأن الخطأ والتعنيف والبذاءة أفعال لا تبرر، مطلقا، عراكا ولا شجارا ولا جريا وراء إشفاء غليل ضغينة، لو رجحت كفة هذه القناعات بينهم، لغدا المنهزم هو المنتصر عند كل احتكاك أو عراك ناتج عن تجريح أو إهانة. بل ستغدو الإهانات كلها شبيهة بطقس الطواف الكنسي الذي يقفل عائدا إلى نقطة انطلاقه، أي إلى مصدره. وعليه، فلا يكفي أن تصدر بذاءة عن نكرة حتى يكون محقا، فلرجاحة العقل وسداد الحكم رأي

آخر مغاير تماما في الموضوع، إنه سلطة مضادة. لهذا السبب، فالعقلاء يحرصون أشد الحرص، قبل أن يتكلموا، على عدم التلفظ بما من شأنه أن يُوقعهم في صدام مع ذوي العقول الصغيرة وآراء البلهاء التي تشمئز منها النفس ويمجها الذوق الرفيع ما أن تخرج إلى حيز الوجود.

فلو كانت الغلبة في المجتمعات الإنسانية للنباهة العقلية، وهو المأمول، لتصالح معها النوابغ والألمعيون، ولانتفتْ كل الحجج التي يتحججون بها للإبتعاد عنها والإنسحاب منها. ولكن الكفة الراجحة فيها اليوم، وإن بطرق مقنَّعة ومُواربة، هي كفة الغلبة الجسمانية والوقاحة المُلامسة للفظاظة. فلو انقلبت المعادلة في اتجاه الإحتمال الأول لكان ذلك إيذانا بصعود نجم **آداب حقيقية** تؤسِّس لـ **مجتمع راق** كالذي وُجد له نظائر بأثينا وكورنيثا وروما. وأنصح الراغبين في الإطلاع على عيّنة من مظاهر العيش فيها بقراءة كتاب ***المأدبة*** لـ **كزينوفان**.

ويقول لسان حال الحجة الأخيرة المُناصرة لقانون الشرف النبيل ما يلي: فلْيوجِّه كل من آنس في نفسه قدرة على ذلك ضربة لمن يشاء، متى شاء وأنّى شاء، والحافظ هو الله! وسأبادر بالرد عليها كالآتي: إن هذه الضربات في كل الاتجاهات كانت سلوكا رائجا بكل مجتمعات الدنيا التي لا تحتكم إلا لقانون الضرب بنسبة 1000/999، لكنها لم تكن أبدا سببا كافيا ومقنعا ليدفع المرء حياته قربانا على مذبحها. وكل الذين يتقيدون، حرفيا، بتعليمات قانون الضرب، تُساوي عندهم ضربة واحدة موتا محققا.

وبما أني عزمت على تناول معضلة قانون الشرف بعمق، فإنني اجتهدت في البحث بالطبيعة الحيوانية والعقلية لبني البشر عن سبب

واحد معقول ومقنع قائم على أفكار دقيقة ومتمايزة، ولـــيس علـــى ألاعيب لغوية، سببٌ واحد يبرر هذا الاعتقاد الأعمى في صـــلاحية قانون الشرف النبيل، فعدت من بحثي بخفي حنين. فالحس الســـليم يقرر بأن الضربة ضربة لا أقل ولا أكثر، أي أذى بدني طفيف يمكن لأي واحد أن يُلحقه بغيره، أذى يستحيل أن يُثبت مرتكبه من خلاله شيئا آخر سوى أنه الأقوى والأمهر في توجيه الضربات، بينما غريمه أقل قوة ومهارة منه لأنه لم يبادر بالضربة الأولى، أو لم يرد عليها في حينه، أو لم يُؤت من القوة واللياقة البدنية ما يجعله قادرا على الـــرد بالمثل أو بما يُضاهيه. هو ذا التحليل العقلاني الهادئ للمسألة وغـــيره هراء. فقد شاهدتُ بنفسي فرسانا نبلاء من الذين يعتقـــدون بـــأن الضربة كارثة عظمى ومأساة حقيقية، يتلقون عشرات الضربات أشد عنفا وفتكا من خيولهم، فيُلملمُون جـــراحهم ويجـــرون ســـيقاهم ويكظمون آلامهم المبرحة، وهم يكررون بالفم الملآن ألاّ شيء وقع، لاشيء! فالمبالغة في تقدير الضربة لا تكون إلا عندما يتلقاها إنســـان من إنسان مثله. لكن، ما أن بدأت أطمئنُّ لهذا الفرض حتى شاهدتُ بأم العين نبلاء تُسدَّد لهم طعنات بسيوف طويلة في ألعاب المصـــارعة والمُسايفة. وإذا بهم يؤكدون، مجددا، بأن الأمر تافـــه ولا يســـتحق التحدث عنه ولا الوقوف عنده. وبعد ذلك، علمتُ بأن الضـــربات بالصّحن المعدني ليست، في العرف الاجتماعي، أكثر خطـــورة مـــن ضربات العصا، بل إنّ طلاب المدارس العسكرية لازالـــوا، إلى يـــوم الناس هذا، يتبادلون هكذا ضربات على سبيل العقوبة. أكثـــر مـــن ذلك، فضربُ فارس نبيل بصحن معدني مبعـــث فخـــر وشـــرف في ناظريه.

وبعد تدقيقي النظر في المبررات النفسية والأخلاقية للمسألة، تأكدتُ بأنها محض خرافة ضاربة في القدم، متوارثة بغباء، ومتجذرة في وعي أهلها وضحاياها. إنها من الخرافات التي يعتقد فيها السواد الأعظم دون أن يطلبوا حجة عليها ولا دليلا مقنعا. ففي الصين مثلا، يُعاقَب الموظفون، بمختلف رُتبهم، جراء ارتكابهم لمخالفات مدنية ومهنية بالضرب بالعصي، والذي بات من العقوبات الطبيعية والمعمول بها في هذا البلد دون اعتراض يُذكر. هذا مثال ملموس على أن الطبيعة البشرية لا تتحدث لغة واحدة، بل لغات متضاربة وممجوجة حتى عند الأقوام التي قطعت أشواطا جبارة على طريق التحضر والتمدن [4].

فبعد الفحص الدقيق والموضوعي للجبلّة البشرية، سيتبيّن للدارس بأن **الضرب** سلوكٌ بشري طبيعي جدا، كما هو ***العضّ*** عند الحيوانات الضارية، **والنطح** عند ذوات القرن. فالإنسان يُعرَّف على أنه ***حيوان ضارب***. وهذا ما يجعله يستشيط غضبا عندما يعلم بأن إنسانا مثله عضَّ إنسانا آخر، ولا ينتابه الإحساس نفسه عندما يسمع بأنه ضربه لأن الضرب سلوك بشري طبيعي جدا لشدة تواتره. لذلك نفهم ونتفهم جيدا تفادي الأشخاص الذين تلقوا تربية جيدة وراقية مثل هذه المواقف، من خلال حرصهم الشديد على ضبط النفس ولجْم اندفاعاتهم الطبيعية والعفوية. فمن قبيل الكارثة أن تعتقد أمّة بكاملها، أو حتى جماعات منها، بأن تلقي ضربات هو أمر جلل ومصيبة عظمى لا تُمحى آثارها إلا بسفك الدم إنتقاما لشرف مهدور. فالعالم يعج بما يكفي ويزيد من الشرور الواقعية حتى نضيف إليه، طوعا، شرورا أخرى خيالية تقود، حتما، إلى شرور واقعية

إضافية. والحال أن هذا الاتجاه هو الذي تدفع إليه مقتضيات الشرف النبيل ومترتباته. يتعلق الأمر بحكم مسبق عنيد وشرير تجترُّه جماعات بشرية إجترارا وتذهب ضحية له، ولا تكاد تفيق ولا تستفيق! من هذا المنطلق، فإني من أشد المعارضين للحكومات والأجهزة التنفيذية التي ترعى وتسند وتُساند هذا الحكم المسبق بتحمُّسها الشديد لإلغاء العقوبات البدنية في القانونين المدني والعسكري معتقدة بهذا الصنيع بأنها تعمل لِما فيه مصلحة الإنسان بينما تكرس هذه الضلالة المشؤومة والشاذة التي سدرت فيها الإنسانية وقدَّمت على طريقها أفواجا من القرابين والضحايا. فأولُ ما يتبادر إلى ذهن إنسان يبتغي الاقتصاص من أذى لحقه من نظيره، إذا استثنينا الأذيات والأخطاء الجسيمة، هو توجيه ضربة إليه. وهذا رد فعل طبيعي جدا، إرتكاسي ومنسجم مع الفعل الذي سبقه. فمنْ لا ينصاع لمشيئة العقل لابد أن ينصاع لضربات اليد. وعندما يلجأ أحدهم إلى "خدمات" عصا يُمسكها بيده يضرب بها نظيرا له حاول سرقة ماله، أو النيل من حريته، أو إبتزازه، فإنه بذلك تصرف تصرفا عاديا جدا لا يحتمل اعتراضا. والتحجج المتداول بـ *الكرامة الإنسانية* بهذا الشأن غير مقنع، إنْ هو إلا ذريعة أخرى من الذرائع المتهافتة للحكم المسبق الذي تقدم ذكره. وثمة معطى طريفا آخر يسعى إلى تكريس سلطة هذا الحكم يزعم بأن دولا عدة استبدلت ضربات اللوحِ بضربات العصا بين عساكرها بزعم كونها أقل مسا بشرف المُعاقَب ولئن كانت تُؤلمه بدنيا كما تُؤلم ضربات العصا. إن الذين ينفخون في هذا الحكم المسبق هم المسؤولون عن تشجيع العمل بمقتضيات الشرف الفروسي التي تقود إلى متوالية من المبارزات والمنازلات، في الوقت

الذي تُبذَل فيه جهود حثيثة لإلغاء المبارزة إلغـاءً نهائيا بموجب قانون[5]. لذلك، لا غرابة إن كانت هذه الجزئية الأساسية في هذا القانون المتعلقة بحق الأقوى قد إخترقت كل العصور، منذ العصر الوسيط وصولا إلى القرن الحديث مرورا بالقرن التاسع عشر، وعلى نحو مكشوف ومفضوح. ولي اليقين بأنه آن الأوان لاجتثاث هذا الحق المزعوم لأنه وصمة عار على جبين البشرية جمعاء. ففي الوقت الذي مُنع فيه منعا كليا طقسُ تهييج الكلاب والدّيكة، وبات جُرما يعاقب عليه القانون بإنجلترا مثلا، لازال تهييج البشر للإقتتال حتى الموت جار على قدم وساق بمقتضى قوة الديمومة التي يتمتع بها هذا الحكم المسبق العجيب، وهذا المبدأ العبثي للشرف النبيل وأبطاله الأغبياء. هؤلاء الذين لا يترددون، عند أول احتكاك بائس بين أفراد، في إلزامهم، بدعوى ضرر مزعوم، بالتناحر الثنائي بغية استعادة اعتبار مفقود أو حرمة مهدورة. وهنا، أقترح على فقهاء القانون الألمان تعويض كلمة مبارزة Duell المُشتقة من الكلمة الإسبانية Duello، ومعناها تباعا: عقوبة/شكوى/تظلم، وليس من الكلمة اللاتينية Duellum، أقترح تعويضها بكلمة مناسبة هي Ritterhetze، ومعناها الحصري هو تناقر الدّيكة أو إقتتال كلاب الحراسة. الحق أن مظاهر البهرجة المفرطة التي تُحَاط بها هذه المبارزات الحمقاء مادةٌ خصبة للتندر والسخرية. هذا فضلا عن أن هذا المبدأ، بقوانينه العبثية والمثيرة للسخط، يتحول إلى *دولة داخل دولة*. دولةٌ لا تعترف إلا بقانون الأقوى الذي يبث الرعب في الطبقات الاجتماعية الخاضعة لجبروته لأنه ينتصب في هيئة محكمة دائمة ومفتوحة. كل من هب ودب بمقدوره استدعاء غيره للمثول بين يديها، ولن تُعوزه الأسباب

والدواعي التي سرعان ما تتحول إلى صكوك اتهام، ثم إلى أحكام بالموت على الطرفين معا: المدعي والمدَّعى عليه! فلا تستغربنَّ بعد ذلك إن تجرأ أحقر الناس، مادام ينتمي إلى الطبقات الإجتماعية المشمولة بقانون الشرف، على تعريض خِيرتهم وأنبلهم لخطر الموت لا لشيء إلا لأنه يُكنُّ لهم كرها بلا حدود. لكن، بِما أن العدالة والشرطة خُوِّل لهما اليوم ما يكفي من سلطة الردع، فالمفروض، أخلاقيا وقانونيا، ألاَّ يتجرأ أول نذل وقاطع طريق على اعتراض سبيل الناس صائحا في وجوههم: النقود أو الحياة! بالمثل، آن الأوان لعودة الحس السليم إلى حياة بني البشر كي لا يتجرأ أحقرُهم، في أي وقت، ليُفسد عليهم عيشهم ويُكدِّر صفوهم صارخا في وجوههم: الشرف أو الحياة! ومن واجب القيِّمين على أمورنا أن يُخلِّصُونا، نحن معشر المتميزين بعقولهم، من هذا الكابوس الضاغط على أنفاسنا، ومن القلق المُلازم للخوف على حياتنا المرتهِنة للرعونة والبذاءة والحماقة والشر الذي قد يصدر، في أي وقت وحين، من شخص يجد متعته المريضة في إلحاق الأذى بغيره. فمِن غير المحتمل، بل من العار، أن نستمر في رؤية مشاهد لشباب طائش وعديم التجربة يعتقد اعتقادا راسخا بأن حل أبسط نزاع يكون بالدم وبتعريض حياته حياة غيره للتهلكة وأن ذلك من أوجب واجباته. فاعتقاده الخاطئ هذا هو أكبر دليل على تغوُّل الطغيان الذي تمارسه هذه "الدولة" داخل الدولة، وتغلغل سلطة هذا "الحكم المسبق" الصفيق في نفوس أفراد المجتمع. إذ بسببه تصلنا أخبار محزنة عن أناس، بل شاهدناهم بأم العين وقد استبد بهم اليأس الأسود، لأنهم فشلوا في استعادة شرف لطّخته الإهانة، لأن المهين ينتمي إلى الطبقة العليا أو إلى الطبقة الدنيا،

أو لأي سبب آخر من أسباب اللاتكافؤ الطبقي التي تحكم على المبارزة بالإستحالة. أوَ ليس هذا الموت الذي يتجرعونه، يوميا، هو الموت الذي تمتزج فيه المأساة بالملهاة؟

فلابد للمتناقض والمتهافت من الأمور أن ينفضح يوما. وبِما أن مقتضيات وشرائط الشرف النبيل هي كذلك، فلا بد أن تنكشف حقيقتها وينتهي أمرها عاجلا أم آجلا. فتناقضاته الصارخة لا ولن يقبلها عقل سليم ولا نفس سوية، ومن مظاهرها، على سبيل المثال لا الحصر، منع المبارزة على الضابط العسكري، ومعاقبته على رفضه المواجهة والفرار منها.

ولا بأس من أن أذهب أبعد من ذلك في تناول هذه النقطة، مادمتُ في صلب الموضوع. فلما تفحصتُ، بكامل العناية والتجرد، البون الشاسع بين الإجهاز على العدو في معركة معلنة أُستُعملت فيها أسلحة متكافئة بين الطرفين والإجهاز عليه في كمين، وهو المعمول به في هذا القانون، إستنتجت بأنه ليس معمولا به إلا لكونه يستمد شرعيته ومسوغاته من هذه "الدولة داخل الدولة" التي لا اعتراف فيها سوى بقانون الأقوى. قانونٌ جعلت منه قاعدتها الشرعية التي رقّتها إلى مناط الحكم الإلهي النافذ. وما درج المتشيعون لقانون الشرف النبيل على تسميته بالمعركة المشروعة، لا يُكرس إلا شيئا واحدا هو **قانون الأقوى والأمهر**. فاشتراطهم حصول أطوار المبارزة أمام الملأ ما هو إلا تسويغ مسبق لهذا القانون الذي يحظى، لوحده، بالإعتراف على الأرض. غير أن ما يُخفيه هكذا تسويغ ضمني هو النصف الآخر من الحقيقة الذي يُقرر ما يلي على لسان الأقوى: إذا كان غريمي في المبارزة لا يُحسن الدفاع عن نفسه، فقد مكّنني، عمليا، من القضاء

عليه، وكوني أقدر منه، قوة ومهارة، لا يمنحني الحق في القضاء عليه. فهذا ***التبرير الأخلاقي*** لا يصدر إلا عن التبريرات العامة التي أسوقها لتبرير القضاء عليه. وهب أن هذه الأخيرة جاهزة سلفا وكافية، فليس ثمة من داع وجيه للخوض في الأمور الفرعية، من قبيل: مَنْ منا يُحسن استعمال السيف أو المسدس، إذ يستوي الإجهاز في هذه الحالة بالسلاحين معا، وسواء كان من أمام أو من خلف. فقانون الأقوى ليس أهمّ، في هذا السياق، من قانون الأمهر أو الأمكر الذي يكون نافذا في حال نصب كمين لغريم أو عدو. القانونان معا يتساويان، قانون القبضة وقانون الخدعة، وفي المبارزة، كلاهما نافذ. فالمناورة في المسايفة ليست سوى خدعة. فإن كان المُبارز مقتنعا إقتناعا راسخا بوجوب الإجهاز على غريمه، فمن الحُمق أن يرهن ذلك بالحظ إن كان غريمه يُتقن استعمال السلاح أحسن منه، لأنه سيكون هو المؤهل، سلفا، للقضاء عليه بعد أن نجح في إهانته. يقول **روسو** بأن الانتقام من الإهانة لا يكون بالقبول بمبدأ المبارزة، بل بالقتل المباشر. وقد عبر عن هذا الرأي مشفوعا بدزينة من المحاذير في المقطع21 من كتابه **إيميل** (الفصل الرابع) الذي يكتنفه الكثير من الغموض. ومن كلامه، يتضح أنه لازال واقعا تحت إغراء هذا الحكم المسبق الذي يُشرعنه قانون الشرف النبيل، خصوصا عندما أجاز للشخص في المقطع نفسه قتل مُتّهِمه بالكذب. وكان على **روسو**، قبل ذلك، أن يدرك بأنه لا يوجد على وجه الأرض من لم يرتكب هذه الجريرة في حياته، ولعديد المرات بدءا به هو نفسه الذي فعلها على أعلى المستويات. طبيعي إذن أن يشترط هذا الحكم المسبق إجهاز المُهان على المهين في مواجهة علنية يتسلح فيها الطرفان

بأسلحة متكافئة. فقانون القوة ينزل في الواقع منزلة القانون، بينما المبارزة هي الحكم الإلهي النافذ والذي لا راد له ولا مُعقب عليه. صحيح أن الأول أشد مكرا إلا أنه أخف شرا من الثاني. ورُب معترض يقول: قتل الشخص لغريمه في مبارزة يوجبه سعي هذا الأخير لفعل الشيء ذاته لو تأتى له ذلك، وأرد عليه بالقول: لكن، إن كان هو من بادر إلى استفزازه، فلم يترك له خيارا آخر إلا الدفاع المشروع عن النفس، أما إن كانا معا في حال الدفاع المشروع عن النفس، فسيجتهدان، بالحماس نفسه، للبحث عن ذريعة "مُقنعة" للقتل. وسيجدانها في المسوغ الثاوي في هذه القاعدة العامة: الأذى الذي يُلحقه شخص بآخر فيتقبله ليس أذى، فالغريمان هنا يكونان قد دخلا، عن طيب خاطر، غمار مواجهة يخاطران (يقامران) فيها بحياتيهما. أما ردُّنا على هذه الذريعة المسنودة بمسوّغها، فهو كالآتي: تعمُّدُ إلحاق الأذى بالغير هو، بالأصل، سلوك ممقوت. والطغيان الذي يمارسه مبدأ الشرف النبيل على عقول ضحاياه ونفوسهم، كما وقانونه المجافي للعقل، هما اللذان باتا يضطلعان بدور "مفوّض شرطة" يسوق "البطلان"/الغريمان، أو أحدهما، إلى المحكمة الدموية للمبارزة.

سيُلاحظ القارئ بأنني أسهبتُ في مناقشة مبدأ الشرف النبيل، من جميع أوجهه، بتجرد ووفاء لروح الفلسفة القادرة، لوحدها، على دحر الغيلان المتدثرين بالأخلاق والفكر على هذه الأرض. ثمة مسألتان تميزان المجتمع الحديث عن القديم، وتسحبان عليه مسحة قاتمة ومشؤومة من الجد المفرط لا نجد لها مثيلا في المجتمعات القديمة. تلك المجتمعات التي يغلب عليه المظهر الساذج والمشرق معا، تبدو للناظر فيها كصباح الحياة، وهاتان المسألتان هما: قانون الشرف النبيل وآفة

مرض الزهري. وقد سمَّمتا كل علاقات الحب والكره بين الناس في المجتمعات الحديثة. فتأثير مرض الزهري عليها كان كارثيا بكل المقاييس، وتعدت أضراره الأجساد لتشمل النفوس والأخلاق. فمنذ أن باتت السهام المسمومة رمزا للحب حتى تسرب عنصر غريب وخطير، بل وشيطاني إلى العلاقات الجنسية على نحو جعلها ملفوفة في أردية من الريبة المخيفة والقاتمة. وصارت الآثار المباشرة لهذا الفساد، الذي نخر الأساس الذي تقوم عليه كل جماعة بشرية، من الأمور الواضحة وضوح الشمس من خلال العلاقات الاجتماعية الأخرى. وسيقودني تعمقٌ فيها، لا محالة، إلى أبعد مدى. والمفاسد الناجمة عن مبدأ الشرف النبيل مماثلة لمفاسد الحب، ولو كانتا من طينتين مغايرتين. ففِرية الشرف النبيل التي تظهر بمظهر جاد مفرط بجديته، والتي لم يكن لها وجود مطلقا في المجتمعات القديمة، جعلت المجتمعات قاسية وكئيبة، يكسوها الحزن ويسحقها اليأس لِهوس الأفراد فيها على تقليب كل كلمة عابرة من جميع أوجهها، والإستغراق في اجترارها، وياليت الأمر توقف عند هذا الحد! فلقد تحول هذا المبدأ إلى مذبح كوني يبتلع، سنويا، أفواجا هائلة من أبناء الأسر النبيلة على امتداد التراب الأوروبي. لذلك، أقولها وأكررها: آن الأوان للتصدي، بكامل الحزم، لهذه الفرية التي تحكم على البشر بالمواجهة الجسدية ولا تترك لهم خيارا آخر. فهل سيشهد القرن التاسع عشر النهاية المحتومة لهذين الغولين اللذين روَّعا العصر الحديث؟

يحذونا الأمل في قضاء الطب على آفة الزهري في أقرب الآجال، أما آفة الشرف النبيل فلا أمل في زوالها إلا إذا تدخلت الفلسفة على الخط، وانصرفت إلى إصلاح العقول وتقويم الأفكار

وتقويض المُسلَّمات الخاطئة والمُضلِّلة، وهو ما فشلت فيه الحكومات بكل تعديلاتها التي أدخلتها على القوانين. وحده المنطق الفلسفي المبين قادر على اجتثاث هذا الشر المستطير من جذوره. وان كانت الحكومات جادة، فعلا، في القضاء المبرم على الإحتكام الأخير إلى المبارزة، هي التي أبانت عن عجز مريع في هذا الاتجاه رغم ما تحقق فيه من نجاحات طفيفة جدا، فلن أبخل عنها باقتراح قانون مضمونة نجاعته. قانون لن يحتاج في تنزيله لا إلى مواجهات دامية، ولا إلى مشانق ومنصات إعدام منصوبة، ولا إلى حبس مؤبد. يتعلق الأمر بالعلاج على الطريقة الصينية، العلاج بالمثل ومؤداه: كل من دعا جهارا نهارا إلى الاحتكام إلى المبارزة أو قبِل شروطها، يتولى العريف جلده ست مرات أمام مخفر حراسة، وجلد من قبِل دعوته بالعدد نفسه من الجلدات وعلى رؤوس الأشهاد. ويتكفل القانون الجنائي بمعالجة الحالات المرتبطة بمبارزات حاصلة سابقا. ورب معترض من النبلاء يصيح معترضا، بعد إنزال هذه العقوبة عليه: كثُرٌ هم "رجالات الشرف" الذين سيفضلون ألف مرة إحراق أنفسهم على تحمل هذا الإذلال، وأجيبه: أفضل ألف مرة أن يقتل هؤلاء الحمقى أنفسهم على أن يفعلوا بالآخرين ما شاؤوا، متى شاؤوا وكيفما شاؤوا. غير أن المشكل هو أن الحكومات غير جادة في القضاء المبرم على هذه الآفة لأن رواتب الموظفين المدنيين، سيما الضباط منهم باستثناء ذوي الرتب الرفيعة من بينهم، زهيدة جدا لقاء ما يقومون به من مهام. والفرق بين عملهم وأجرهم يحصلون عليه من خلال تشريفهم بالألقاب والنياشين والأوسمة، أو من الشرف الرمزي للوظيفة التي ينتسبون إليها. والحال أن قانون المبارزة يجني أعظم

الفوائد من هذا التصور الخصوصي للشرف الذي يُروَّض عليه الأشخاص منذ الجامعة. وضحايا هذا التصور الضيق يُسددون من دمائهم ذلك العجز الحاصل في رواتب الموظفين المدنيين القائمين على حفظ الأمن العام.

وفي السياق نفسه، لابد من التطرق إلى مسألة **الشرف القومي**، أي شرف شعب بصفته شعبا من الشعوب وعضوا في محفل الأمم. وبما أن هذا الأخير لا يعترف إلا بالقوة، فكل عضو فيه مطالب بالدود عن حقوقه بنفسه. فشرفُ أمة لا يُقاس بجدارتها بالثقة فحسب، بل بكونها قوية ومرهوبة الجانب. ما يفرض عليها أن تتصدى بحزم لأي محاولة تروم النيل من هيبتها أو هضم حقوقها. معنى ذلك أن الشرف القومي يجمع في خلطة واحدة بين جوهر الشرف النبيل وجوهر الشرف البورجوازي.

والآن، سنعرض لمسألة **المجد** في التمثلات العامة والجماعية، ونبادر إلى القول بأن الشرف والمجد توأمان، الأول فان والثاني باق. فالشرف هو الأخ الفاني للمجد الباقي والأبدي. والمجد المقصود هنا هو ذلك المجد الرفيع والحقيقي المدعوم بالحجة والمسنود بالقرينة. هذا فضلا عن أن ادعاء الشرف لا يتطلب من المدعي إلا استيفاء جملة من المناقب ضمن أوضاع وملابسات محددة، بينما المجد يشترط في مُدعيه التحلي بجملة من الخصال غير متيسرة للجميع، وليس يجوز أنْ يُطالَب بها الجميع. فالشرف له صلة بالمزايا التي يمكن لكل واحد أن يدعيها لنفسه علنا، بينما ادعاء امتلاك مزايا المجد غير كاف ليتحول الإدعاء إلى حقيقة. إن الشرف لا يتجاوز الدائرة الضيقة للفرد، أما المجد فيتحقق لصاحبه الجدير به حتى قبل أن يُدرك أهليته له، فيحمله

إلى مدى أبعد ما كان ليرِد على باله ولا ليُصدّقه. الكل قد يدعي وصلا بالشرف، إلا أنه ليس كل من يدعي وصلا بالمجد يُقر له بذلك، إذ لا يكون إلا من نصيب الأفذاذ القادرين على تحقيق إنجازات ومأثرات تدخل في باب الفرادة والأصالة والإستثناء. وقد تكون أفعالا أو نتاجات أدبية وفكرية أو هما معا. وتلك الأفعال والنتاجات هما عجلتا المجد التي بهما يسير ويسري. والقلب الكبير يُؤهل صاحبه لإتيان هذه الأفعال، كما أن العقل الكبير يرشحه لمواصلة مسيرته نحو مزيد من الإنتاج العقلي والعطاء الذهني. والفرق بين الأفعال والنتاجات هو أن الأولى تمر بينما تبقى الثانية لتكون مندورة للأبدية. فمهما كان نبل الفعل إلا أن تأثيره مؤقت، في حين تستمر النتاجات العقلية في الذاكرة الإنسانية، وتمتد في الزمن لتمارس تأثيرها الخيِّر والمحمود على النفوس وترتقي بها طردا نحو مدارج الكمال والجمال جيلا بعد جيل، وعلى امتداد العصور والأحقاب. فالأفعال، ومهما كان نبلها الكبير وعلو شأنها، لا تبقى منها، مع الزمن، إلا ذكريات عامة وفضفاضة سرعان ما تتلاشى وتذبل إلى تنمحي كلية، إن لم يتكفل التاريخ بتدوينها، والسلف بنقلها إلى الخلف، عكس النتاجات العقلية والعطاءات الفكرية المندورة حتما للخلود خصوصا المحفوظة بين دفتي الكتب. فاسم وذكرى **الكساندر لوغران**، مثلا، هما كل ما تبقى منه، في حين أن **أفلاطون وأرسطو وهوميروس وهوراس** هم أنفسهم الحاضرون بيننا بكتبهم، معنا يعيشون وفينا يُؤثرون على نحو مباشر. كذلك هو الشأن مع المرجعين الكبيرين **الفيداس واليوبانيشاد**، بحيث أن كل المنجزات الأخرى العظيمة التي تحققت في العصر الذي كُتبا فيه لم يصلنا منها إلا النزر

اليسير[6]. جانبٌ سلبـــي آخر في المنجزات العملية هو أنها مشروطة بمناسبتها وسياقها الخاص ومرتهنة بـــه. لـــذلك، فمجـــدها يُقـــاس بالظروف التي تحققت فيها ومكّنتها من نصيبها من الأهمية والتـــألق، وليس بقيمتها الذاتية التي تعلو على الزمان والمكان. فضلا عن طابعها الشخصي، أي ارتباطها بفاعليها على غرار الحروب، ما يجعل الأمجاد المتحصلة منها مشروطة دائما بشهادة ثلة من الشهود الذين عاينوها. وهؤلاء، يكونون في عداد الموتى عندما نحتاج إلى شهاداتهم، أو غـــير منصفين، متحيزين ومغرضين في تقديمهم لهذه الشهادات إن هـــم لا زالوا على قيد الحياة. هذا جزء فقط من المشكلة، أما جزءها الآخـــر فيكمن في أن الأفعال البشرية موضوع مفتوح على أحكـــام النـــاس وتقويماتهم، وذاك مناط امتيازها ظاهريا. إذ يُمكّنها من أن تُقدَّر حق قدرها، وتحظى بنصيبها من الإعتراف حال وقوعها، مـــا أن تتـــوافر معطيات دقيقة حولها، وخصوصا عن البواعث التي حركتها والتي هي شرط فهمها. أما إن قُوّمت بعد وقوعها، بفـــارق زمـــني قصـــير أو طويل، فهناك احتمال كبير بألاّ يكون تقويمها نزيها وموضوعيا. هذا خلافا للنتاجات العقلية التي ليست مشروطة مطلقا بظروف نشـــأتها وسياق تأليفها، بل فقط بمُنتجها (مؤلفها)، وتحتفظ، على الـــدوام، بقيمتها منذ لحظة ظهورها إلى أبد الآبدين. الصعوبة الوحيـــدة الـــتي تواجهها هي توفر الناس من عدمه على ملكة الحكم المناسبة للحكم لها أو عليها على نحو موضوعي ومنصف، وتتضاعف هذه الصـــعوبة كلما كانت ذات مستوى رفيع وراق. ففي هذه الحالة، ستقل أعداد القادرين على تقويمها تقويما نزيها وموضوعيا، وبالتالي إحلالها المكانة اللائقة بها. وشرطا ذلك هما النزاهة والتجرد، ونحـــن نعلـــم أنهمـــا

شرطان نادران جدا في كل الأزمنة والأمكنة. هذا فضلا عن أن البث في فرادها من عدمها، وهو شرط دخولها إلى عالم المجد، لا يكفي فيه حكم واحد، بل يتطلب أحكاما وتقويمات مسترسلة ومتواترة. فإذا كان صدى الأفعال الفريدة يصل من السلف إلى الخلف المباشر، أي إلى الأجيال التالية، فإن النتاجات العقلية هي التي تصل بنفسها وبلا وسيط. تصل كما هي لحظة نشأها وولادها إلا من نتف وشذرات سقطت منها بفعل الزمن أو العامل البشري. وهو ما يكون سببا في تعرُّض معطياها للتحريف والتحوير. إلا أن هذا التأثير البشري السلبي فيها لا بد أن يتلاشى ويختفي بمرور الوقت. وسيتكفل الزمن بإظهار الصفوة من ذوي الكفاءة والتجرد القادرين على تقديرها حق قدرها وإنزالها المكانة اللائقة بها. فالأفذاذ هم وحدهم المؤهلون للحكم على نظرائهم، أو الذين يبزُّوهم في هذه الصفة، يصوتون عليهم أفواجا أفواجا في مكاتب الإقتراع التاريخي إلى أن تنتصب أصواهم الممنوحة، مع الزمن، في هيئة حكم رصين ورزين ووازن ليستحيل على المستقبل، بعد ذلك، دحضها أو إبطال مفعولها. معنى ذلك أن النتاجات العقلية لا بد أن تحصد، عاجلا أو آجلا، المجد المضمون الذي تستحقه والخليق بصُناعها، والذي يستحيل أن ينال منه الزمن والتقادم. وحصولهم على هذا المجد قيد حياهم رهين بتضافر شروط خارجية عدة وبعامل الحظ أيضا. لكن بالمجمل، كلما كانت العطاءات العقلية راقية جدا ونوعية، كلما تضاءلت شروط وحظوظ الإعتراف بها وتكريس مجدها بالزمن الذي ظهرت فيه. لذلك قال **سينيكا**، وبحق،: المجد يقتفي أثر الاستحقاق كما يقتفي الظل أثر صاحبه، قد يسبقه وقد يتعقبه، لكن يظل لصيقا به. وبعد أن

أفاض في شرح الفكرة، أضاف قائلا: إن سكت معاصرو الأماجد عن تقديرهم حق قدرهم، والإعتراف بفضلهم بدافع الحسد وغيره، فسيخلفهم خلف يُنصفهم بلا خوف ولا طمع ولا نفاق ولا تزلف".

تكشف هذه الكلمات البليغة وجود فن قائم بذاته بين الناس، هو فن الخنق الخبيث والطمس المُتعمّد لمزايا ومناقب بعضهم، خنقُها بحبل الصمت والتجاهل بغية مواراة الجيد وصرف الأنظار عن المميز، مقابل المغالاة في إظهار الرديء وإبراز السيئ. تلك ممارسةٌ درجت عليها الدهماء في عصر **سينيكا**، وسار على سكتها أنذال كل العصور. والحسد الأسود والأعمى هو الذي يجعلهم يبلعون ألسنتهم في الوقت الذي كان عليهم أن يفكوا عقدها.

جرت العادة بأن يتأخر ظهور المجد المستحَقّ ويتكرس، وهو ما يرشّحه لأن يكون ممتدا في الزمان ككل شيء شهي ولذيذ لا ينضج إلا على مهل. فالمجد المندور للخلود شبيه بالبلوط الذي تنمو بذرته الأولى ببطء شديد، بينما المجد السهل والعابر أشبه ما يكون بالحشائش التي تنمو بسرعة بالغة. لذلك، فالمجد الزائف هو كالحشائش الضارة التي يجتثها الناس وهي لا زالت تنمو أمام ناظريهم. ويعود ذلك إلى أن كل إنسان مندور للخلود، أي مندور للإنسانية كافة، محكوم عليه بأن يكون غريبا في زمانه وبين أهله، لأن منجزه ليس مُوجَّها لهؤلاء ولزمانهم على وجه الخصوص، بل إلى الإنسانية قاطبة التي لا يمثل فيها معاصروه إلاقطرة في بحر متلاطم الأمواج. لذلك، فإبداعات ومنجزات السابقين لزمانهم غير مصطبغة ومتلونة بعصرها ومصرها، بل قد لا تثير فضولهما بالمرة، ولا تحرك فيهما ساكنا. فقد يحدث أن تميل أهواؤهما إلى مسائل عابرة وغارقة

باليومي، أو مُدغدغة للعواطف ذات الغلبة في حينه. فتكون مِلكا مطلقا لذلك العصر والمصر، تحيا بحياتهما وبموتهما تموت وتندثر، وينتهي الأمر!

يفيدنا تاريخ الفن والأدب بأن النتاجات الراقية والنوعية غالبا ما تكون عُرضة للإعراض والتجاهل، بل وللإزدراء إلى حين ظهور ثلة من العقول الراجحة التي تنجذب إليها انجذابا مغناطيسيا، لتعترف بقيمتها وفضلها، وتُحيطها بما يليق بها من مظاهر التقدير والتوقير التي ستظل ملازمة لها أبد الآبدين.

ولو دققنا النظر في هذا المعطى، لأدركنا أن الناس بوجه عام لا يستوعبون ولا يثمِّنون إلا ما ينسجم مع طبيعتهم، ويتجاوب مع انشغالاتهم. والحال أن المنسجم مع المحدود فكريا وعقليا هو المحدود، ومع التافه هو التافه، ومع المضطربة أفكاره والمشتتة خواطره هو المضطرب والمشتت، ومع الفاقد للعقل الراجح هو كل ما يدخل في الباب الكبير للعبث. فكل واحد من بني البشر، لا يُفضِّل ولا ينحاز إلا إلى ما يُشبهه من أعمال وآثار، لأنهما من الطبيعة نفسها والأرومة عينها.

وقد سبق للشاعر الرائع **إيبكارم** أن نظم أبياتا تتغنى بهذه المعاني التليدة والعريقة يقول فيها:

لا غرابة في كلامي عن الأشياء
كما أفهمها وأتمّثلها،
فالُمعجَبون بأنفسهم حد الهوس،
يتوهمون دائما وأبدا
إمتلاكهم لمزايا فريدة

وفضائل فذة،

كالكلب، لا أجمل عنده من الكلب!

والثور، لا أجمل عنده من الثور!

والحمار والخنزير... وهكذا..

فحتى السواعد المفتولة إن قذفت بأجسام خفيفة فإنها لا تسقط إلا في أماكن قريبة جدا من نقطة رميها لأن خفتها تحول دون استعمال تلك السواعد لكامل قوتها المركوزة فيها، فيتهاوى الجسم المقذوف عند أقرب نقطة لا يلوي على شيء. والسبب هو افتقاده للكتلة المادية التي تؤهله لاستقبال قوة خارجية مندفعة، وبكامل عنفوانها. هو ذا، للأسف الشديد، المآل عينه الذي تنتهي إليه كل الأفكار العظيمة والجميلة وأمهات الكتب والنتاجات العبقرية، ما أن تتلقّفها عقول صغيرة وخاملة تُسيء فهْم كل شيء. وهذا المآل الحزين هو الذي اشتكى منه، وبصوت واحد، حكماء كل العصور والدهور. فقد رُوي عن يسوع قوله: الحديثُ مع أحمق كالحديث مع نائم، ما أن يفرغ المتحدث إليه من كلامه حتى يبادره بالسؤال: ماذا كنت تقول؟! وفي **هاملت**، نقرأ: أجملُ الكلمات وأروعها ترقد في أذن معتوه، لا تبرحها. وقال **غوته**: أسعدُ الكلمات وأجمل العبارات تمجُّها الأذن التي تسيء استقبال كل شيء، ويضيف في موضع آخر: لا فائدة من تحريك السواكن وحلحلة الراقد، ولا تأسفن على ذلك! فكيف تأمل من حصية ترميها في مستنقع آسن أن ترسم دوائر؟ ويقول **لايشتبرغ** في كلمات معبرة: لو إرتطم كتاب برأس بشرية، وتردد صدى أجوف، فلا يُعقل أن نُحمِّل المسؤولية في ذلك للكتاب. وبموضع آخر، تجده يقول: إن النتاجات الراقية شبيهة

بالمرايا، لو حدّق فيها قرد، فلا تنتظر أن تعكس وجه قديس". ونختم هذه الإقتباسات بالشكوى المؤثّرة والآسرة التي جاءت على لسان البابا **جيلبيرت**، فهي جديرة بالتدبر والتي يقول فيها: غالبا ما لا تحظى المناقب الرفيعة إلا بإعجاب قلة من الناس، وكثيرٌ منهم يميل ميلة واحدة إلى الرديء جدا فيجعله حسنا! تلك طامة كبرى لم يَخْلُ منها عصر من العصور. فما السبيل إلى اجتثاث هذه الآفة؟

أشكُّ في أن يأتي على الناس يوم تختفي فيه تماما من العالم وإلى غير رجعة. هذا غير ممكن وجد مستبعد إلا إذا تحول المجانين كلهم إلى عقلاء وحكماء. لكن، ماذا أقول؟ فهذا لن يحدث أبدا. إن حشود المجانين تجهل القيمة الحق للأشياء، وتحكم بعيونها لا بعقولها على علاّتها، فهي ما تفتأ تكيل المديح لصغائر الأمور وتوافهها لجهلها المطلق بماهية الجيد والحسن.

ينضاف هذا القصور العقلي الراسخ في طبائع الناس، كما قال غوته**، والمسؤول عن ندرة الأعمال الراقية والجحود بما تَوفَّر منها، إلى فساد أخلاقهم، وهو ما يُظهرونه في حسدهم الشديد. إن المجد المتحصِّل من الإستحقاق إيذان ببروز إنسان متفوق في بني جنسه، تفوقٌ يدفعهم إلى الإحساس الضاغط بدونيتهم الواخزة. فكل استحقاق بشري ينتزع مجده المُستحَقّ على حساب عديمي المزايا مِمَّنِ لا جدارة لهم ولا قيمة، وهذا ما جعل **غوته** يقول:

كلما شرفنا الآخر إلا وأحسسنا بدونية تجاهه. وهذا هو السبب الرئيسي في تحالف كل ألوان الرداءة ضد الأعمال المتفوقة والمتألقة في كل جنس وتخصص. يتراص أهلها في صف واحد للحيلولة دون شيوعها، ولأجل خنقها في مهدها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. إن

كلمة السر الجامعة بينهم هي: فليسقط الاستحقاق. بل حتى الذين حققوا مجدا سابقا في مجال من مجالات الحياة، لا ينظرون بعين الرضا إلى الحاملين الجدد لمشعل المجد المستحق خوفا من أن يسرقوا منهم الأضواء أو أن ينالوا من وهج مجدهم السابق الذي لازالوا يقتاتون منه. وقد عبر **غوته** مرة أخرى عن كلام ينحو هذا المنحى: لو عولت على من يجود علي بولادتي،

ما كنت في هذا العالم.
فلتفهموا لَمَ يتدافع الحساد ويتكاثفون،
حتى لا يكون لي مكان تحت الشمس،
لا بل هم على أتم الاستعداد لمحوي من الوجود!

لذلك، إن كان الشرف محظوظ نسبيا لأنه لا يعدم قضاة منصفين لا يبخسونه حقه، ولا تتربص به آفة الحسد الدوائر، ويمكنه أن يكون من نصيب الناس كافة، فان المجد يُنتزع بعد كفاح مرير ومستميت ضد الحساد والمتربصين، ولا ينال اعترافا وامتنانا من محكمة يرأسها قضاة غير أكفاء للقيام بهذه المهمة الجسيمة. قد يقتسم المرء امتياز الشرف مع غيره، بل قد يرغب في ذلك، لكنه يحترس بالغ الاحتراس من تقاسم المجد مع الآخرين لأنه لا يطيق أن يزاحموه في حظوته التي نالها بعد جهود مضنية وعن جدارة. وقد يرى في مزاحمتهم له ما سيفرض عليه مضاعفة الجهد للحصول على مجد مستحق. زد على ذلك أن صعوبة الوصول إلى ذرى المجد بفضل العطاء الفكري إنما مَردّه إلى قلة "الجمهور" المفترض الذي يتجه إليه ذلك العطاء المميز، ولذلك أسباب بديهية سهلة الفهم. فمنتجو هذا العطاء يلاقون العنت الكبير على طريق عملهم بغية تثقيف الناس

والرفع من مستواهم الفكري، عنت يفوق بكثير الجهد المبذول في إنتاج مواد ترفيهية تُوجَّه لجمهور بغرض التسلي بها وتمضية الوقت. ويزداد هذا العنت، ويتضاعف الجهد في الانتاجات الفلسفية، ذلك أن معطياتها مشكوك أصلا من قبل العامة في قيمتها وجدواها كما أنها تخاطب في بداية ظهورها جمهورا محدودا جدا من المنافسين لمؤلفيها. وهذه الصعوبات الجمة التي تعترض طريق المجد الشاق هي السبب في ندرة النتاجات الفكرية المرشحة للخلود التي قد يخلو منها نهائيا عصر من العصور ويغدو عقيما فيها. فظهورها مشروط بالولع الشخصي بها من قبل أهلها، وتعلقهم بها لذاتها لأجل تحقيق ذواتهم فيها. وتلك هي شروط حصولهم على المجد الذي تعدهم بها وتكفلها، والكفيل بتحفيزهم على مزيد من الاجتهاد. هذا فضلا عن أن كل من نجح في تقديم الجيد والنوعي، وطلق الرداءة يضرب في مقتل مسلمات الجموع، ويزعزع وجودها المادي، فتنبري لتُواجهه بالمقت والازدراء. إن المجد، وكما قال، بحق، **أوسوريو** في كتابه ***بصدد المجد***، لا يكون أبدا من نصيب الباحثين عنه واللاهثين خلفه، فهو يقتفي أثر الذين يتجاهلونه ولا يحفلون به. ويعود ذلك إلى أن الباحثين عنه يجارون الذوق العام لعصرهم، بينما المتجاهلين له يقفون له بالمرصاد.

وإذا كان الوصول إلى المجد صعبا، فإن الحفاظ عليه سهل، ما يجعله على النقيض من الشرف. فهذا الأخير بمتناول الجميع بمن فيهم من ليسوا أهلا له، وكل من تحصَّله يسعى جاهدا للحفاظ عليه، وهو ما ليس بالهين. ذلك أن أبسط حركة أو فعل غير لائق من شأنه أن يجرده من شرفه العابر إلى غير رجعة. أما المجد فيتملكه الجدير به

بصفة نهائية من غير تهيب من فقدانه، سيغدو ملازما له لأن النتاجات الفكرية التي جعلته جديرا به ستدوم أبد الآبدين. فالمجد الأول يلازم صاحبه حتى إن لم يُضف إليه شيئا يجدده أو يؤكده مرة أخرى. أما إن خبت جذوته وصاحبه لازال على قيد الحياة، فلأنه مجد زائف لم يكن يستحقه، أو بُني على تقديرات مبالغ فيها وعارضة. وهو من طينة المجد الذي تحقق لـ **هيغل** واستهجنه **لايشتنبرغ** لأنه استمده من "زمرة من أصدقاء ومريدين طبَّلوا وزمروا للرجل، فصدقت العقول الفارغة هذه الزفة. لكن، ما أن يرثه الخلف عن السلف حتى يخيب ظنه عند اكتشافه لخواءه. لن يجد حينها سوى أقفاصا من العبارات المنمقة والأعشاش المزركشة تعشش فيها عبارات بالية، وبيوتات تقيم فيها مواضعات منتهية الصلاحية. عندئذ سيتفطّن إلى أنه مجد أفرغ من فؤاد أم موسى، ولن يجد فيه فكرة واحدة تستحق التبني والإحتضان، ولن يتحرج، بعد ذلك كله، في القول بشفتين مزمومتين: تفضَّل، إحزم أمتعتك وأغرب عن وجهي!

خلاصة القول أن مجد شخص يُعرف من خلال مقارنته بأمجاد غيره، أي أنه نسبي في جوهره، وبالتالي لجهة قيمته. وهذه الخاصية تجعله عرضة للتلاشي والتواري عندما يزاحم فيه أشخاص آخرون شخصا سبق وأن تحصَّل عليه، وباتّوا ممجَّدين بدورهم وذائعي صيت. والمجد لا يكون عابرا للأزمنة والأمكنة إلا إذا حافظ على قيمته المطلقة التي تنسحب على صاحبه وتلازمه، فيغدو ومجده سيان. هذا الاستحقاق الثابت هو الذي يمد صاحبه بقيمة مطلقة تعلو على الزمان والمكان، فتغمر وجدانه وعقله بفائض من الغبطة والسرور. لذلك، فأعزُّ ما يُطلب في هذه الحياة هو المجد المستحق، لا أي مجد!

فشروط الإستحقاق هي جوهر المشكل، لا المجد ذاته الذي ليس سوى عرَضا للشخص المُمجَّد يكرس ويتوج التصور الرفيع الذي كوَّنه عن ذاته. فالمجد أشبه بنور غير قابل للرؤية إلا إذا انعكس على جسم، إنه تكريس لتفوق يزكيه ويباركه. والعرَض لا يكون دائما مقياسا ومؤشرا على مجد حقيقي وجوهري، مادام هناك مجد بلا استحقاق واستحقاق بلا مجد. في هذا الاتجاه عبر **ليسينغ** عن معنى جميل وجليل إذ قال: ثمة مشاهير، وثمة من هو جدير بأن يكون منهم!

لا شك فيه أننا نحيا حياة بشرية بائسة لأن الناس فيها يبالغون في تقدير آراء الآخرين وأحكامهم. وهو أمر لا يستثني حياة الأبطال والنوابغ الذين يتوقف مجدهم أيضا على تزكية الغير ومباركته. والحال أن كل واحد يوجد، أول ما يوجد، بنفسه ثم يسعى لأن يوجد لنفسه، أي أن يكون حقيقة ذاته ويعمل على تحقيقها. فإن كانت للشخص قيمة، فإن فضلها يعود عليه قبل غيره، وإن كان يُعتد بهذه القيمة، فسيُعتد به هو أيضا ويُقام له ويُقعد. أما صورته في عقول وموازين غيره فهي مسألة ثانوية جدا، فرعية وظنية ليس لها تأثير مباشر على جوهره وحقيقته. فضلا عن أن العوام أصحاب عقول بائسة لن تَسَع أبدا أحلام النوابغ في السعادة ورغد العيش. غاية ما يمكن أن تحتويه شبه سعادة، سعادة مخادعة ومخاتلة. وجُلْ بناظرك في هذا الخليط من البشر المقيم في هيكل المجد العالمي، والذي يضم قادة عسكريين ووزراء ودجالين ومشعوذين وراقصين ومغنين ومليونيرات ويهودا، وكلُّهم يغمرهم إحساس عارم بالفخر يفوق مثيله المتحصل من الجدارة الفكرية التي لا تنتزع من السواد الأعظم من الناس إلا

اعترافا شفويا، لا يكاد يبارح الشفتين! معنى ذلك أن المجد، من منظور مبحث السعادة، قطعة نادرة ولذيذة تدغدغ مشاعر الفخر والغرور في الناس كافة، حتى وإن كان جلهم يجهد لإخفاءها بالكاد. بل نجدها مُعشِّشة في من تحصلوا على المجد على نحو متأخر، وكانوا، قبل ذلك، يرتابون في تفوقهم وعلو كعبهم حتى واتتهم فرصة وضع قدراتهم على المحك، فاعتُرف لهم بمجد. وحتى ذلك الحين، كان يستبد بهم إحساس ضاغط بعدم إنصاف الغير لهم(7).

نعود فنكرر بأن الإنسان جُبل على المبالغة في تعظيم آراء غيره فيه، أمر دفع **هوبز** إلى الإدلاء بدلوه في الموضوع بعبارات قوية هي الصواب عينه، فقال: مشكلة الإنسان الكبرى هي هوسه بالمقارنات، يقارن ما لديه من متع روحية وشتى النعم بما لدى غيره، وعلى أساس هذه المقارنات الفاسدة يكوِّن فكرة عن نفسه ويتكون لديه رأي في شخصه".

والقيمة العظمى التي يسحبها الإنسان على المجد، والتضحيات الجسام التي يكابدها لأجله، مصدرها هذا الإنهمام المغالي بآراء الغير. هكذا يلهث، بلا توقف، وراء الحصول على مجد. وفي هذه النقطة، يقول **هوبز** مجددا: حبُّ الشهرة هو المهماز المحرك للنوابغ، وهو آخر نقطة ضعف في النفوس النبيلة، وبسببها ينقطعون إلى العمل الدؤوب ويزدرون متع الحياة". ويخلص قائلا: يقسو المرء على نفسه أشد القسوة حين يمضي سواد عمره في تسلق الوهاد، للوصول إلى القمة التي يتوهج فيها هيكل الشهرة."

لذلك، لا غرابة إن كان أكثر الأمم غرورا وتشدقا هو الذي لا يتوقف عن لوك كلمة "مجد"، ويرى فيها محركا سحريا للإنجازات

الكبرى والأعمال العظمى. وبِما أن المجد ليس إلا صدى، صورة، ظل وعَرَض للإستحقاق الفعلي، ولا مناص من تفوق موضوع الإعجاب على الإعجاب ذاته، فما ينبغي أن يجعل الشخص سعيدا هو ما يُدرّه عليه المجد من جدارة، لا المجد ذاته، وبعبارة أدق قابليته للتأسيس لجدارته العقلية والأخلاقية. فأفضلُ ما في الإنسان يستمده من ذاته ولذاته. أما ما ينعكس منه على الآخرين، وما يُمثله في تمثلاتهم ويزنه في موازينهم، فأمر ثانوي جدا وبلا منازع، وكذلك جدواه المحتملة. فالشخص الجدير بالمجد و لم ينله، يمتلك، سلفا، الأساسي في ذاته ويجد فيه كل العزاء والعوض. ليس الجمهور العريض هو الذي يقر للشخص الكبير والعظيم بأنه كبير وعظيم، فهو أعجز ما يكون عن إصدار الأحكام السديدة واتخاذ المواقف الوجيهة، وغالبا ما يخبط خبط عشواء لأنه أعمى البصيرة وفاقد للقدرة على التمييز. الكبير كبيرٌ لأنه كذلك بالفعل، شاء من شاء وأبى من أبى، ولذلك فهو لا يجد سعادته القصوى في ترديد الخلَف لاسمه، جيلا بعد جيل، بل في إنتاجه لأفكار جديرة بالاحتضان والتأمل على مدار الأزمان والأحقاب. وهذا ما لا يستطيع أحد منازعته فيه أو انتزاعه منه، والبقية الباقية هراء وهذاء.

أما عندما يتحول الإعجاب إلى شأن ذاتي، أي إلى غرور، فتلك هي الحجة الدامغة على أن المُعجب بنفسه غير جدير إطلاقا لا بمجد ولا بإعجاب. وهذا ما يصدق على المجد الزائف، أي غير المستحق. وكل من تحصَّل عليه، لابد أن يقنع به ويستغني عما سواه لأنه يعدم الخصال التي لا يمثل المجد إلا عرَضها وانعكاسها البسيط، وسينتهي به الأمر إلى أن يشمئز بنفسه من هكذا مجد. لا بد أن يأتي حينٌ من

الدهر يصيبه فيه الدوار وهو على هذه الذرى، ذُرى المجد التي ليس جديرا بالإقامة فيها رغم كل مشاعر الغرور التي تستبد به وتفعل به الأفاعيل. لابد أن يوقظ فيه هذا المجد الزائف شكوكا في جدارته بمجد حقيقي، وأن ما يتلهى به ليس سوى نحاسا مطليا بذهب! عندئذ، سيستبد به الخوف من افتضاح أمره، ونيله الإهانة التي يستحقها بالفعل، وسيتهجى، منذ ذلك الحين، مفردات حكم الخلَف عليه منقوشة على جباه حكماء وعقلاء عصره، فما أشبهه بوارث بموجب وصية زائفة. قد لا تصل أبدا أصداء المجد الحقيقي إلى سمع وعلم الجدير به وهو على قيد الحياة، ومع ذلك تجده يرفل في حياة ملؤها السعادة والغبطة، لأنه مدين في مجده لقدراتها النوعية وملكاته الرفيعة، ويقضي سواد وقته في تنميتها وترقيتها، سالكا بذلك طريقا منسجما مع سجيته وطبعه. لا ينشغل إلا بالأمور التي يحبها، وتجلب له المتعة والحبور فيرفل في سعادة موصولة. في هذه الأجواء، يبدع ويعطي وينتج ما يقوده، حتما، إلى ذرى المجد وثريا الإعتراف والتكريس. مصدر سعادته هو نفسه الكبيرة وذكاءه الوقاد وخياله الخصب الذين ينعكسون في عطاءاته فيثيرون إعجاب الأجيال القادمة، فضلا عن أن أفكاره ستغدو مادة ثرة لتأملات ستجلب لذوي العقول النبيلة من بعده مباهج لا حصر لها ولا قِبل لهم بها. فالمجد المستحق هو الذي يهب هذه الفئة من الناس ما تستحقه من شأن وشأو، ويكافئهم بالجزاء الأوفى الذي يستحقونه أيضا، بلا تجمُّل ولا منة من أحد. وهذا لا ينفي وجود أعمال كثيرة نالت مجدا أدبيا منقطع النظير في زمانها، ومن قِبل معاصريها، إلا أن الفضل في ذلك يعود، أساسا، إلى ظروف عارضة جدا لا يمكن المراهنة عليها

دائما، وبالتالي فإنها لا تكتسي أهمية قصوى. فمعظم الناس يعــوزهم الحكم السديد، وتنقصهم القدرات العقلية الــتي تؤهلــهم لتقــدير الأعمال الراقية والصعبة الإنجاز تقديرا مناسبا ومنصفا. لذلك، فهــم يقتفون دائما أثر سلطة الغير. ومُنتهى المجد يُقِرُّ به لمُستحقّه، وبصدق، 100/99 من المُعجبين الممتدين في الزمان والمكان. فــالقبول الــذي يتلقى به معاصرون لأعمال جديرة بالتمجيد هذه الأعمــال، ولــو كانوا كثر، له قيمة ضئيلة جدا في عين المفكر. لا يتبين فيه إلا أصواتا معدودة لقلة تصرفت تحت التأثير المباشر للحظة. فالعازف الماهر لن تغمره، قطعا، مشاعر الفخر والرضى إذا علم أن الجمهــور الــذي يصفق له، وبحرارة، ليس إلا جماعة من الصم باســتثناء فــردين. ولا يصفقون إلا بنية التمويه، أي لإخفاء عاهة الصــمم عــن بعضــهم البعض، فيشرعون بالتصفيق ما أن تقع أعينهم على أحد الســامعيْن، أو كليهما، يحرك يديه. لكن، ماذا لو علم العازف بــأن المصــفِّقين ليسوا سوى عصابة من المأجورين جيء بهم لخلق أجواء من النجــاح الباهر، أي النجاح المزيف لأسوأ عازف على الكمان!؟ هي ذي العلة العميقة لاستحالة أيلولة المجد الذي عاشه الشخص قيد حياته إلى مجد خالد إلا في ما ندر. وضَّح **دالامبيرت** هذه الفكرة من خلال وصفه الرائع لهيكل المجد، والذي قال عنه: هيكلٌ لا يقيم به إلا الموتى الذين لم يقيموا به قيد حياتهم، وثلة من الأحياء طُردوا منه بعد وفاتهم".

فإقامة نُصب تذكاري لشخص قيد حياته ضمانة علــى عــدم إقامته له بعد وفاته، ودليل ارتياب في حصوله على تقدير واعتــراف من الناس الذين سيأتون من بعده. وحتى لو تفيَّأ الشخص ظلال المجد قيد حياته، ريثما يعترف له به الخلف، فإن ذلك لن يتحقق له حــتى

يبلغ من العمر عتيا. ولا ننكر وجود استثناءات عن هـذه القاعـدة العامة تضم فنانين وشعراء وثلة من الفلاسفة. والصور التي أخِـذت لمشاهير، وقت تكريسهم وتكريمهم، تؤكد هذه القاعدة العامـة، إذ يظهرون فيها وقد كسا الشيب رؤوسهم خصوصا الفلاسفة منـهم. ولو نظرنا إلى المسألة، من منظور **مبحث السعادة**، لوجدنا، فعلا، ما يبررها. فالمجد والشباب لا يجتمعان لشخص، ولو اجتمعا له فسينوء من ثقل أحدهما ولن يُطيقه. إن الحياة البشرية هي من العوز والفاقـة بحيث يتعين على البشر أن يكون حريصا أشد الحرص على توزيـع خيراتها، ولن يتحقق له ذلك إلا بالإقتصـاد والمراعـاة والإدّخـار. والشبان لديهم ما يكفي ويَفْضُل من خيرات كي يزهـدوا في مـا عداها، بينما تذبل المتع ومباهج الحياة في طور الشيخوخة، كما تذبل الأشجار في فصل الشتاء. وشجرة المجد لا تُزهر ولا تينع إلا في شتاء العمر، والمجد أشبه بالإجاصّ المتأخر الذي يُزهِر صيفا ويُؤْكَلُ شتاء. فالعزاء الوحيد للشيخ هو شبابه الذي أفناه في إعطاء أحسن ما لديه، أي نتاجه الفكري العصي على الشيخوخة والذبول.

والآن، سندقق النظر في السبل المُفضية إلى ***المجد العلمي***. وبما أن العلوم هي المعرفة الأقرب إلى الفلسفة، فسنُبادر إلى تطبيـق هـذه القاعدة العامة عليها. لذلك، سنقرر، بدءاً، بأن التفـوق الفكـري، الذي يزكيه ويكرسه المجد العلمي، عربون مثـابرة صـاحبه علـى التوليف والجمع بين معطيات ومعارف غزيرة تنتمي إلى تخصصـات ومجالات شتى. والمجد مشروط بالقدرة على الجمع بينها. وهذه القدرة هي التي ستُسهِّل انتشارها بين الناس علـى اخـتلاف مسـتوياتهم واهتماماتهم. فإن كانت هذه المعطيات عبارة عن أرقـام وخطـوط

بيانية أو مسائل رياضية أو في مجال علم الحيوان أو النبـات أو ذات صلة بالتشريح أو تحقيق المخطوطات والمنقوشات، فالمجد المتحصِّل من بيانها لن يبارح الدائرة الضيقة لتخصصها، أي الحلقة الصغيرة لثلة من المُحالين على المعاش والمتخصصين اللاهثين وراء مجـد مهـني. وإن كانت هذه المعارف من الصنف العام الذي يهتم به عامـة النـاس، والذي يشمل الأمور العقلية والعاطفية والطبيعية التي لا يفتأ الإنسان يكتشف آثارها على الأرض، فإن المجد المتحصل من بيانها وتعميقها، من خلال توليفات نوعية، سيتردد صداه ويمتد إشـعاعه إلى كـل الأقوام المتحضِّرة. فكلما كانت المعارف في متناول الجميـع، كلمـا كانت توليفاتها وتجميعاتها في متناولهم أيضا. والمجد يسير طـردا مـع كثرة الصعوبات التي يتعين التغلب عليها، والعقبـات الـتي ينبغـي تذليلها. وإن كانت معارف من الصنف المعـروف لـدى الغالبيـة العظمى من الناس، فإن التركيب الجديد والموفق لها لابد أن يكـون صعبا، مادامت عقول كثيرة سبق لها أن قامت بالعملية نفسها لمرات عدة، فتكون بذلك قد استنفدت كل صـيغ التركيـب والتوليـف الممكنة. أما المعارف غير المُيسَّرة للعامة، والتي لا نتحصل عليهـا إلا بالمثابرة، فقابلةٌ لتوليفات جديدة إن اشتغل عليها عقل مُسدَّد ومزود بأحكام سليمة، أي عقل متوسط الذكاء. غير أن المجد المُتحصل مـن إنجازها سيظل محصورا في المدار المحدود التي تُتداول فيه هذه المعارف. ويُعزى ذلك إلى أن إشكالاتها تتطلب عملا كثيرا ودراسة معمقـة، بدءا بالإحاطة بها وتجميعها. أما المعارف المنتشرة بين غالبية النـاس والمُيسَّرة لهم، فإن المجد المتحصل من الإشتغال عليها، تنقيحا وإضافة وتوليفا، أعلى مرتبة وأرقى شأنا. وكلما تطلبت المعرفة جهدا أقل في

استيعابها وتمثلها، إشترطت عملية توليفها موهبة أكبر ونبوغا أرقـــى. هذا علما بأن الأعمال التي يتحكم فيها عنصرا الموهبـــة والإقنـــاع تُفسدها المقارنات الرامية إلى المفاضلة بينها أو تقويمها.

لذلك، على النوابغ الحرص على ألاّ تثبط عزائمهم وتفل هممهم أمام الدراسات الطويلة والأبحاث الشاقة. ولو نجحوا في التغلب عليها لتفوقوا على الذين يتوفرون حولها على معطيات معروفة ومتداولـــة. وهذا ما سيُؤهلهم للوصول إلى أعلى المراتب في معرفتـــها والتضـــلع فيها، والتي لا يصلها إليها إلا الجهابذة بجهدهم الموصول ونشـــاطهم الذي يصل الليل بالنهار. ومرد ذلك إلى أن المتنافسين على الـــتمكن منها هم بعدد أصابع اليد في المجتمع الواحد. ويكفي بروز نابغة فيها حتى يضع يده على تركيبة جديدة كل الجدة، وسيستمد اكتشـــافه تميزه وجدارته من قدرته على تذليل الصعوبات التي اعترضته علـــى طريق الوصول إلى هذه المعارف التركيبية. والعامةُ لـــن تُـــدرك، في حينه، الطفرة التي حققتها مثل هذه الأعمال والفتوحات العقلية، بل سيدركها العلماء المتخصصون الذين لن يترددوا حينـــها في إنـــزال أصحابها المنزلة التي تليق بهم. والآن، سنبين صنفا آخر من المعـــارف القمينة بالتأسيس للمجد خارج كل التوليفات الممكنة، ومن جملتـــها المُتأتيّة من السفر إلى الديار البعيدة والغريبة عن معظم الناس، ومـــن إكتشافهم لها، يستمد زُوّارها القلائل مجدهم، وهو مجد غير ناتج عن التفكير في موضوع، أو طرح مشكلات، أو صياغة توليفات، بل من رؤية أمكنة لم يراها غيرهم ولا كثرة كاثرة من النـــاس. ومكْمـــنُ الإمتياز في هذه الوسيلة، سهولة تبليغ المعطيات المُشاهدة، ومقارنتها بأخرى كانت، فقط، موضوعا للتفكير ومادة للتأمل إلى ذلك الحين.

كما أن الجمهور العريض يجد سهولة كبيرة في استيعابها قياسا على المعطيات العقلية، كما تُقبِل عليها أعداد كبيرة من الناس مقارنة مع عدد المهتمين بأمور الفكر والتأملات. وقد سبق لـ **أسموس (ماثياس كلوديوس)** أن إنتبه إلى هذا الإمتياز الثاوي في المعرفة المرئية، في قوله: نحكي الكثير بعد سفر كبير.

لكن، إن قُيِّض لنا التعرف مباشرة على هذه الطينة من المشاهير فلنحرِصْ على استحضار هذه الحكمة البليغة لـ **هوراس**: قد نغير الجو بالسفر إلى ما وراء البحار، ولكن لن نغير الطبع!

أما النابغة القادر على حل المشكلات وتذليل المصاعب المكتنفة للمسائل العامة والعالمية، فمدعوٌّ باستمرار إلى توسيع مداركه لتمتد إلى كل الاتجاهات دون أن تستغرقه المسائل التخصصية المتروكة لقلة من المتخصصين. فهو مُطالَبٌ بتجنب الخوض في التفاصيل الدقيقة للعلوم وجزئياتها المِجهرية التي يختص بها أهل الاختصاص. فالإستغراق في المسائل الشائكة ليس شرطا لازبا للانتماء إلى جمهور المتنافسين والدارسين لتخصصات بعينها. ولِمن شأن المعطيات العامة أن تَمُدَّ الدارس بالمادة الضرورية لصياغة توليفات جديدة ونوعية. وبنجاحه في ذلك، سيبرهن على جدارته العلمية لعموم العارفين بهذه المعطيات، ولا بد أن تكون توليفاته وخلاصاته التركيبية موضع ثناءهم، خصوصا وأنهم يمثلون السواد الأعظم.

ها هنا مكمن البون الشاسع بين المجد الشعري والفلسفي من جهة، والمجد الفيزيائي والكيميائي والمتحصل من علوم التشريح والمعادن والحيوان واللغة والتاريخ وغيرها من التخصصات المحدودة، من جهة ثانية.

الفصل الخامس

حقائق عامة
وتوجيهات أخلاقية

في هذا الفصل، لن أكون جامعا مانعا، وستتخلل كلامي جمهرة من القواعد الأخلاقية المرعية في **فن العيش** المعروفة بوفرتها وجودتها. قواعد هي عصارة تأملات مفكرين ينتمون إلى عصور مختلفة، منذ **تيكونيس وسالومون** وصولا إلى **لاروشوفوكو**. كما سأجد نفسي مضطرا لإيراد جمهرة من الأفكار والحقائق العامة التي أشبعت نقاشا ومساءلة. وبما أنني لا أسعى لأن أكون جامع مانعا، فإنني طرحت جانبا أي انشغال بنظام نسقي أعرض فيه أفكاري حول الموضوع. ولاشك بأن ذلك سيرضي القارئ، على اعتبار أن التناول النسقي المفرط للموضوع لابد أن يوقعه في الملل. لم أعرض في هذا الفصل إلا ما تبادر تلقائيا إلى ذهني، وما بدا لي جديرا بالطرح والتبليغ. وقدرت، في حدود ما أعلمه، أن هذه المسائل لم تدرس بالقدر الكافي، أو كما كان ينبغي أن تدرس. فعملي في الفصل بين يديك لا يعدو أن يكون قطفا لثمار يانعة ودانية من حقل شاسع وممتد سبق لغيري أن شبع فيه قطفا وجنيا!

ولكي يتحقق بعض التناسق والسلاسة في هذا العرض المتنوع للآراء والتوجيهات، آثرت ترتيبها وفق حقائق أو حِكَمٍ عامة وخاصة تخص معاملة النفس ومعاملة الغير، والموقف إزاء حركة العالم ومآله.

1- حقائق عامة

1/ أنطلق، لأجل بيان القاعدة السامية لكل حكمة ممكنة في هذه الدنيا، من المسألة التي صاغها ***أرسطو*** في كتابه ***الأخلاق إلى نيقوماس***، وتقول: غاية الحكيم ليست حياةً مُترعةً باللذة، بل خالية من الألم. يستند جوهر هذه الحكمة العامة على حقيقة مؤداها أن كل لذة (متعة)، وكل سعادة ذات طبيعةٍ سالبة بينما الألم ذو طبيعة موجبة. توسّعت، تحليلاً وبرهنة، في هذه الأطروحة بكتابي الرئيس ***العالم بما هو إرادة وتمثل*** (الجزء الأول). واستعنتُ في ذلك ببيانات تفصيلية مستقاة من صميم الحياة اليومية. فعندما يكون بدن المرء بصحة جيدة إلا جزء منه صغير يتألم، فإن وعيه وكل اهتمامه ينصبُّ على هذا الجزء المتألم، على صغره، صارفاً النظر عن باقي البدن المُعافى، فيحرم بذلك نفسه من اللذة المُتحصِّلة من الإحساس الكلي والممتلئ بالوجود. بالمثل، إن كانت كل أمور حياته تسير على ما يرام وعلى النحو الذي يُرضيه إلاّ شأنا صغيرا جدا، فإن هذا الأخير يُكدّر صفوه ويُنغِّص حياته وتجتره هواجسه، غافلاً بالمرة عن الشؤون الكثيرة الأخرى المُرْضيّة. المؤكد في الحالتين أن إرادة الشخص هي المتضررة، في الحالة الأولى بسبب تموقعها في البدن، وفي الثانية بسبب تمركزها في ربقة الجهود المبذولة. وإرضاء الإرادة في الحالتين يكون على نحو سالب، أي لا يستشعره الشخص على نحو مباشر، بل يتحقق في وعيه من خلال منعكس شرطي. بالمقابل، فالحيلولة دون تحقق وتسيُّد الإرادة هي مسألة موجبة ذات مفعول مباشر. وكل لذة يتحصّلها الشخص هي محوٌ لهذه الحيلولة الموجبة، أي للتفادي. لذلك، من الطبيعي جدا أن تكون مدة هذه اللذة أو المتعة قصيرة وعابرة.

هو ذا الأساس الذي ترتكز عليه القاعدة الأرسطية الممتازة التي تقدَّم ذكرها، والداعية إلى تركيز الاهتمام، لا على المتع وشـــهوات العيش، بل على الوسائل الكفيلة بتجنُّبها والإفلات مـــن قبضـــتها، والإنعتاق من نيرها بما هو شرط للتخلص من الشرور الكثيرة المحفوفة بها. وبِما أن هذه القاعدة الأرسطية صحيحة جملة وتفصـــيلاً، فـــإن الحكمة الفولتيرية القائلة "السعادة حلمٌ والألم حقيقة"، حكمة لا تقل عنها صحة ووجاهة. لذلك، يتوجّب على الإنسان، عنـــدما يُقـــيّم حصيلة حياته، أن ينطلق من معيار الشرور والآلام التي تجنّبها، لا من المتع والمباهج والشهوات التي تذوقها وعبّ من رحيقها. كما يجـــب عليه أن يتعلم من المبحث الفلسفي للســـعادة، أول مـــا يـــتعلم، أن السعادة مجاز، لعبة لغوية، وأن الحياة السعيدة حقا هي الحياة التي فيها شقاءٌ أقل وقابلة للتحمُّل. على هذا الإنسان أن يُدرك جيدا بأن هذه الحياة لم تُخْلَقْ ليستمتع بها، بل ليتحمّلها ويتخلّص منها في النهايـــة. تلك حكمة بليغة نجد جوهرها في العديد مـــن اللغـــات اللاتينيـــة والإيطالية والألمانية فيما يُشْبه الإجماع. الحق أنـــه لعـــزاءٌ كـــبير في شيخوختنا أن نتخلص من تكاليف الحياة وشقاءها، ونرميها خلْفنـــا. فأسعد الناس هو الذي عاش حياةً لم تُعكِّرها آلام شديدة إنْ في نفسه أو بدنه، وليس من عبَّ من أفراحها ومسراتها ومتعها الباذخة حـــتى الثمالة. فعندما يتخذ الناس هذه الأخيرة معيارا يحكمون بـــه علـــى حياتهم بالسعادة أو التعاسة، فإنهم يرتكبون بذلك خطأً فادحا. ذلك أن المتع كانت ولازالت وستظل سالبة. وحينما يعتقد النـــاس بأنهـــا مصدرٌ لسعادتهم، فإنهم يعيشون في وهْمٍ كبير يتغذى من الشـــهوات الجامحة التي ستُعاقبهم هي نفسها في نهايـــة المطـــاف. إن الإنســـان

يستشعر الألم على نحو حقيقي وواقعي، وبالتالي فإن خُلوَّ حياته منه هو الدليل الأكبر على سعادته. وإذا خلت حياته من الألم والملل معا، فسيكون أسعد الناس، وسيبلغ السعادة القصوى. فحَذارِ، أيها الإنسان، من أن تشتري المتع والشهوات بالآلام والمشاق، وأبْعِدها عنك حتى إن كان من المُحتمل فقط أن تُنغِّص عيشك وتُعكِّر صفو حياتك. ولو اشتريت هذه بتلك، فإنك اشتريتَ السالب والوهمي بالموجب والواقعي. بالمقابل، فالإنسان سيُجني فوائد عظيمة عند تضحيته بالمتع لقاء تجنُّبه للآلام. ويستوي في ذلك أن تكون هذه الآلام سابقة أو لاحقة للمتع. فغاية الحمق الإنساني هي إرادة تحويل هذا المسرح الكبير، الذي هو مزيج من مشاهد البؤس المتلاحقة، إلى مكان للنزهة، والإصرار على ملاحقة المتع والشهوات بدل الحرص على تجنُّب العدد الأكبر من الآلام وصنوف العذاب النفسي والبدني. ومع ذلك، فأغلب الناس ينساقون وراء هذه الحماقة دون أدنى تبصُّر! ينساقون وراء هذه الخطيئة الكبرى التي قلَّما يقترفها أولئك الذين ينظرون إلى هذا العالم نظرة متوجسة ومتشككة، ويرون فيه قطعة جحيم، فيكون شغلهم الشاغل هو توفير بيتٍ يقيهم من لهيب نيرانها. هو ذا حالهم، بل دينهم وديْدنهم، أما الأحمق الغر، فلا ينِي يُطارد سراب المتع لينتهي به الأمر، مرة تلو الأخرى، إلى الإحباط والخيبة. أما الحكيم فيُكرِّس كل طاقاته لتجنُّب الشرور والآلام. وإذا لم تُكلَّل جهوده بالنجاح أحيانا، فاللوم لا يقع عليه بل على القدر البائس. أما إن أتَتْ أُكلها، فسينجو من الوقوع في شَرَك الإحباطات المتتالية لنجاحه في إبعاد الآلام والعذابات عن طريقه، وهي أمور واقعية لا من بنات الخيال. وحتى إن كانت الطريق التي اجتازها نحو هذا

الهدف طويلة وشاقة، وتضحيّته بالكثير من المتع والشهوات، إلا أنه، في الواقع، ربح الكثير ولم يخسر شيئاً. ذلك أن المتع والشهوات محض أوهامٍ وخيالاتٍ، والتأسف على إضاعتها سلوكٌ ينمّ عن صغر العقل وضيق الأفق، فضلاً عن كونه سلوكا مُستغْربا.

لكن، ما أن يتجاهل الإنسان هذه الحقيقة البسيطة، وينساق وراء تفاؤلٍ أجوف، حتى يفتح الباب على مصراعيه أمام الكوارث. إن المُنغمِسَ في لُجّة الشهوات والمتع يعلو مُحيّاه قلق ظاهر، ويسطع بريق سعادة وهمية من عينيه، لأنها سعادة تفتقر إلى سندٍ واقعي مكين، فتتحول إلى مصدر للألم المُحقّق لا إلى مجرد ألمٍ وهمي. عندئذ، تجده يتحسر على إضاعته للحال الأول الذي كان يعيش فيه بلا ألم، وها هو الآن تركه وراء ظهره كجنّةٍ نفقدها بسبب الإهمال. ثم يسعى جاهداً فقط لدرء الأسوء والأكثر شؤْما القادم لا محالة. هذا الشخص لا يلومَنّ إلا نفسه لأن هذا ما جنته يداه. وكأني به يتربص به شيطانٌ شريرٌ يصنع المستحيل لانتزاعه من حالٍ خالٍ من الألم، وهو حال السعادة القصوى، ليزُجَّ به في أتون ودوّامةٍ السراب الخادع للمتع والملذات العابرة. إن الشاب اليافع يتخيل، للوهلة الأولى، أن هذا العالم خُلِقَ له ليأكل من ثمراته حتى الشَّبع، ويزدرد ما لذّ منه وطاب. يتخيله وكأنه مقرٌّ دائمٌ للسعادة الموجبة، تلك السعادة التي لا تكون، في خياله، إلا من نصيب الجَسور، وقد فاز باللذة الجسور، كما قال شاعر! والحال أن هذا هو عين الوهم الذي زرعته الروايات والأشعار والمظاهر الخادعة في كل نقطة من هذا العالم.

سأعود إلى هذه النقطة في القادم من الصفحات. تغدو الحياة، بمقتضى هذا الوهم، مطاردة متواصلة لسعادة موجبة وهاربة تتخلّلها

نسب متفاوتة من حذرٍ وتحوُّطٍ، سعادة خيالية تنغل بالمتع الموجبة أيضا. وسالك طريقها عُرضة لسلسلة من المخاطر لا يُستهان بها، وليس له من خيارٍ آخر إلا أن يتحمل عواقبها. هذه المطاردة أشبه ما تكون بالحماس الذي يبديه الصياد عندما يركض وراء طريدة خيالية، فينتهي به الركض إلى السقوط في حفرة، والمعادل الواقعي لهذه الحفرة هو السقوط بين مخالب الشقاء والتعاسة. شقاءٌ هو جُماع كوارث تشمل الألم والمعاناة والمرض والخسائر والهمّ والغمّ والإفلاس والهوان، وفقدان "ماء الوجه".

هي ذي العواقب الحتمية لهذه المطاردة الحمقاء، والتي لا يستفيق ضحاياها من أوهامهم إلا بعد فوات الأوان. ولو التزم الإنسان بالقاعدة الأخلاقية الأرسطية التي افتتحنا بها هذا الفصل، لكان هدفه الأول والأخير وغاية مُناه، هو تفادي الآلام والمعاناة المصاحبة لها. فبعد نجاحه في إبعاد شبح الحاجة والمرض وما شابه، سيكون هدفه الموالي هو العيش في حياة خالية من الألم. وهو هدف واقعي، سيسعى لتحقيقه من خلال خطة واضحة وبخطى ثابتة، لا يكدِّرها ولا يشوِّش عليها ذلك اللهاث الأحمق وراء سعادة موجبة. وهذه الفكرة تلتقي في الصميم مع ما جاء على لسان **ميتلر**، *وهو المنشغل دوما بسعادة الغير في* ***الوشائج الحميمة لغوته***، *إذ يقول فيما يُشبه البوح:*

"مَنْ يسعى للتحرر من كلكل الشرور التي تتربّص به
عارفٌ ممتاز لِما يريد.
أما من يطمع في وضْعٍ "أفضل"،
فعلى بصره غشاوة داء المياه البيضاء".
وما قاله الرجل يذكّرنا بالمثل الفرنسي الرائع:
"الأفضل عدوّ الجيد".

ومن المثالين، نستنتج تلك الفكرة المركزية التي حركت دوما الفلاسفة الكلبيين ومؤداها الرفض المسترسل للمتع، وازدراءها جملة وتفصيلا نظرا لاقترانها الدائم بألم وشيك، قريب أو بعيد. لذلك، درجوا على بذل المجهود لأجل تفاديها لا لتحصيلها. ولاقتناعهم الراسخ بطبيعتها السالبة، فإنهم يبذلون قصارى جهدهم لتجنب الشرور من خلال تمرين أنفسهم على الاستغناء الكلي والطوعي عن المتع التي لا يرون فيها إلا فِخاخ منصوبة على طرق الألم، ولاشيء غيره.

مما لاشك فيه أن الناس يولدون في أجواء تغمرها الأوهام الساذجة، كما قال *شيللر*، ويتطلعون إلى حياة ملؤها السعادة والرخاء، ويُمنّون أنفسهم بهذه الأمنية الخرقاء طيلة حياتهم. لكن، سرعان ما يخيب ظنهم في الحياة برمتها، وينزل عليهم القدر بحكمه الذي لا رادّ له كالصفعة الموجعة، مذكّرا إياهم بأن الإنسان لا يملك من أمره شيئا، وأن كل شيء بين يدي الأقدار التي تُقرِّر في ما سيملكه من زوجة وأطفال، وما سيكون عليه سمعه وبصره وفؤاده ويداه ورجلاه، بل ستُقرر حتى في الأنف الذي يتوسط وجهه!

لا يمر وقت ولا تنصرم لحظة دون أن تؤكد لنا التجارب المتتالية بأن السعادة واللذة سراب في سراب، سراب يحسبه الظمآن ماء، فإذا جاءه لم يجده شيئا. بالمقابل، المعاناة والألم أمران واقعيان، مباشران، ولا يحتاجان إلى وسيط، ولا يَعِدَان بالوهم ولا بما سيُسفر عنه الانتظار. وأكبر دليل على أن المرء استخلص ما يكفي من الدروس من هذه التجارب، هو توقفه الفوري عن الركض وراء السعادة واللذة، وقطعه الطريق، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، على كل صنوف

الألم وضروب المعاناة. عندئذ، وعندئذ فقط، يدرك إدراكا جازما بأن أفضل ما يمكن لهذا العالم أن يهبه له هو حياةٌ خاليةٌ من المعاناة، حياة هادئة، حياة قابلة للتحمُّل. ولن يسعى بعد ذلك إلا إلى تكييف متطلباته معها كما هي، ليستمتع بها الاستمتاع الحق، وعلى الوجه الصحيح والأفضل. فلا تطلبْ بأن تكون أكثر سعادة، فتكون أكثر شقاوة، وكُنْ على يقين بأن هذه المعادلة مؤكدة. وهذه الحقيقة هي التي اعترف بها ***ميرك*** صديق ***غوته*** في شبابه، عندما قال:

"إن الطمع في سعادة خيالية هو الذي يُفسد كل شيء على صاحبه في هذه الفانية. ولن يتخلَّص منه إلا القانع بالقِسْمة بين يديه".

فمن باب الحكمة والتعقل ألاّ يرفع المرء سقف طموحاته، ويتجنّب الإفراط في طلب المتع، والركض وراء الشهوات والملذات والمتع الفانية والجاه والسلطان ومظاهر الشرف والأبّهة وما شابه. فهذا التكالب المحموم على سراب السعادة وبريق المتع هو الذي يُسَبِّب للمرء خسائر فادحة، ويُلحق به انكسارات غير قابلة للجبر. هي ذي السيرة المُجملة التي يتوجب على المرء العضَّ عليها بالنواجذ، وهي عين العقل. والحياة تؤكد له، غير ما مرة، أنه من السهل جدا أن يكون تعيسا، ومن الصعب، بل من المستحيل أن يكون سعيدا جدا. وقد قال الشاعر كلمات بليغة في هذا الشأن:

ومن الناس من يُؤْثر الذهب الرديء،
على الأمن العميم،
طمعا في أن يدرأ عنه،
بشاعة منظر بيْتٍ خرِب!
ومنهم الزاهد العفيف توقّيا،

من لُهائه وراء قصْرٍ يسيل له اللعاب،
فلْيعلم هؤلاءً وأولئك،
أن الرياح العاتية،
إنما تهزُّ شجر الصنوبر الشامخ،
وأن الأبراج العالية تكون سقطتها مدوية،
وأن البرق يضرب بشرره قمم الجبال الشاهقة.

فكل من تشرَّب جوهر فلسفيّ، لا بد أن يدرك ويقتنع بأن هذه الحياة ما كان لها أن تكون. لذلك، فمن الحكمة والتبصّر الزهد فيها ودفعها عنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. ومن فعل، فلن يُعلّق أبدا آمالا عريضة على أي شيء، ولن يتحمّس للحصول على أي شيء مهما كان، ولن يتشكّى من أي عارض يعترضه أو معاكسة ترصده. وبالتالي فسينقاد إلى الإقرار بحقّانية هذه الحقيقة البسيطة والنافذة التي جاءت على لسان *أفلاطون*: " لاشيء، لاشيء على الإطلاق من أمور البشر يستحق أن نهتم به بحماسة زائدة". كما لن يجد بُدّا من الإقرار أيضا بوجاهة هذه الحقيقة المماثلة التي تبدّت في شذرات شاعر فارسي:

هل فقَدْتَ العالم كلّه؟
لا تحزنْ، فالأمر هيِّنٌ.
هل صار كله طَوْع بنانك؟
لا تفرحْ، فالأمر هيِّنٌ.
أفراحٌ، أتراحٌ، آلامٌ، آمالٌ،
كلُّها إلى زوال،
مُرَّ منها مرَّ الكرام، ولا تُبالي،
فالأمر هيِّنٌ.

إن النفاق المستشري في العالم هو الذي يزيد من صعوبة تشرُّب وتقبُّل هذه الحِكم العامة والحقائق البديهية والبسيطة. لذلك، يتعين فضحه والتصدي له، وبحزم، منذ سنوات الشباب الأولى. فمظاهر الأبهّة ليست سوى مظاهر للأُبَّهَة، هي ديكور مسرحي يُعوزه الأساسي، ويفتقد للجوهري الذي هو غائبُه الأكبر. كذلك هي السفن المُزيّنة بالأعلام والزهور وطلقات المدفعية والأنوار والطبول والمزامير وصيحات الفرح، إنْ هي إلا مظاهر وعلامات وشارات وطلسمات دالة على الفرح، إلا أن الفرح هو الغائب المطلق فيها، والمفترى عليه الأكبر، وحده اعتذر عن الحضور. وحيث يحضر فعلا، يكون حضوره حقيقيا وواقعيا، يحضر دون أن يكون مَدْعُوًّا ودون إشعار سابق، يأتي من تلقاء نفسه وبلا مقدمات ولا شكليات، يتسلل، في صمت، إلى المناسبات اليومية البسيطة، وإلى مناسبات عادية خالية من كل هرج ومرج، ومن كل مظاهر الأبهة الزائفة. فالفرح أشبه ما يكون بالذهب في أستراليا حيث نجده في شكل تبْر منثور ومُبعثر في كل مكان، كيفما اتفق وبلا قاعدة ضابطة ولا قانون مُوجِّه، ولا نجده أبدا في هيئة كتل ضخمة. إن الغاية من تظاهرات الفرح المزعوم والمزيّف هي الإيهام، إيهام الناس باقتران الفرح بالاحتفال، وبتلازم الفرحة والحفلة والفرجة. وهذه مغالطة كبيرة جدا.

وما يسري على الأفراح يسري على الأحزان. فالموكب الطويل المُشيِّع لجنازة يكسوه حزنٌ من خارجه، وعرباته لا تكاد تنتهي، لكن عندما تُحدّق النظر في داخلها، فستجدها فارغة إلا من الميّت الذي لا يُشيعه، في واقع الأمر، إلا سوّاق العربات التي تجرها الخيول.

وتلك، لعمري، صورة ناطقة عن كذبة الصداقة وفِرْية التقدير في هذا العالم!

هو ذا ما أسميه زيف وبطلان السيرة الإنسانية المعجونة عجنا في نفاق متأصِّل. هناك مثال آخر هو الاستقبالات الفخمة للضيوف والمدعُوّين وهم في كامل زينتهم، يعتمرون لباس الحفلة الذي يدل على انتمائهم إلى مجتمع النبلاء. غير أن الفرح يعتذر، مرة أخرى، عن الحضور إلى مثل هذه المناسبات الاحتفالية تاركا مكانه للعناء والإكراه والضجر. فحيثما كَثُر الضيوف، كثُرت الحُثالة، ذلك أن الناس الجديرين بالصحبة والرفقة يُعدّون على رؤوس الأصابع في كل مكان. في مثل هذه الأفراح الاصطناعية، يكثر التباهي والزعيق، وتتردد أصداء جوفاء والتصرفات الكاذبة الهادفة إلى إيهام الحاضرين والمدعوين بأن الجميع طلّق البؤس والعوز الطلاق الثلاث. والحال أن العوز والبؤس هو السمة الأساسية للوجود البشري ككل، بل منه عُجِنَ. وبضدِّها تتميّز الأشياء، كما يقول المثل.

ويقتصر مفعول هذه "الأفراح" على المُكتفين بالنظر إليها من خارجها دون النفاذ إلى أعماقها، وهو الهدف الذي من أجله وُجِدتْ أصلا. قال **شامفورت** كلاما آسرا: "إن المجتمع والحلقيات والدوائر الصغيرة والصالونات لا تعدو أن تكون أمكنة شبيهة بخِرقة رثة، أو أوبيرا رديئة لا تُرجى منها فائدة، ولن تقوم أبدا لروّادها قائمة لولا تزيّيهم بمظاهر الزينة، وارتدائهم للأزياء التنكرية، وحرصهم الدائم على التفاخر والاستعراضية. كذلك هو الأمر بالنسبة للأكاديميات وكراسي الفلسفة بالجامعات، إنْ هي إلا علامة خارجية للحكمة وطيفها. أما الحكمة الحق، فتعتذر عن الحضور إلى هذه الأمكنة،

وتُؤثر، بدلا عنها، أمكنة أخرى لا يوجد فيها تفاخر ولا تباهي ولا زعيق. مثلما أن الرياء هو العلامة الخارجية الكاذبة للتقوى والورع، وهلم جرّا. إن معظم أشياء هذا العالم ليست سوى كومة من جوْزٍ فارغ قلّما نجد نواة بداخله. ويتعين البحث عنها في أمكنة أخرى، فلا نكاد نعثر عليها إلا بشِقّ الأنفس.

2) لو شئتَ أن تعرف إن كان شخص سعيدا أو تعيسا، فابحث عمّا يُفْرحه أو يُحزنه. فإن كان ما يُحزنه ويُكدّر صفوه تافها، فذاك دليل على أنه سعيد، وإن كان يتأثر لأبسط الأشياء، بل بتوافه الأمور، فتلك حجة على أنه يعيش عيشة هنية. إذ لو كان غارقا في لُجّة التعاسة، لما تأثر بها ولما التفت إليها بالمرة.

3) يتعين على الشخص أيضا ألاّ يشرط سعادته بقاعدة عريضة من الطموحات والتطلعات، فهذا من شأنه أن يجعلها تنهار في لمح بصر لأنها ستكون عُرضة باستمرار لحوادث غير متوقعة تعترض سبيله، وتجري بما لا تشتهي إرادته. لذلك، عليه أن يُقيم سعادته على صرح صلب قوامه طموحات متواضعة جدا ومتناسبة مع قدراته وموارده الذاتية، تفاديا لكل ضروب التعاسة والشقاء التي يعج بها هذا العالم.

ومن الحماقات الشائعة في الناس، اتخاذهم لترتيبات مبالغ فيها كلما تعلق الأمر بتنظيم جوانب مختلفة من حياتهم. ومكمن المشكلة أنهم يفعلون ذلك وهم يستحضرون، أو بالأحرى يراهنون على تصور ممتلئ عن الحياة ينحو منحى الكمال، والذي لا يكون عادة إلا من نصيب الصفوة. فحتى لو عاش الإنسان أطول مدة ممكنة، فلن يتمكن من إنجاز كل الخطط التي سطرها لأنها بحاجة دائما إلى المزيد

من الوقت الذي افترضه في بداية التخطيط لها. فضلا عن أن الحياة عرضة باستمرار لإخفاقات متتالية، وتعترضها عقبات كبيرة تحول دون تحقق كل الأماني والطموحات. وحتى لو نجح الإنسان في الوصول إلى كل ما خطط له، فسرعان ما يتفطن إلى أنه لم يأخذ في الحسبان ما قد يُحدثه الزمن من تغييرات في هذا الذي وصل إليه، وما تعرضت له ملكاته وقدراته على الإبداع والاستمتاع من تحولات. وبالتالي، فكل حساباته وتوقعاته سيصيبها الإرباك.

لا ينتبه الإنسان إذن إلا بعد فوات الأوان إلى أن كل تطلعاته ومتمنياته التي كافح من أجلها، ونجح في تحقيقها، لم تعد تناسبه كشخصٍ نالت منه تقلبات الزمن، فلم يعُد هو ذلك الذي خطط لها في البداية بكل حماسة، وراح ينجزها بهمّة على الأرض. إن الزمن كفيل بإنهاك الإنسان، وإضعاف قدراته، فتتعثّر مشاريعه وسط الطريق. والقاعدة نفسها تنسحب على المغانم والخيرات التي يكون الإنسان قد راكمها لقاء كدح عظيم ومخاطر جسيمة، وما أن تقع بين يديه حتى يعجز عن جني ثمارها والاستمتاع بها ليتفطّن، بعد حين، إلى أنه كان يجدّ ويكدّ لأجل لاشيء أو لأجل الآخرين الذين يجنون ثمار ما زرعه بجهده الخاص. هذا الشخص وأمثاله أشبه بِمَنْ بذل الغالي والنفيس لأجل حصوله على منصب، وما أن حصل عليه حتى خذلته قواه فبات عاجزا عن تقلُّده. هكذا هي الأشياء تأتينا دائما بعد فوات الأوان، أو بالأحرى لا نصل إليها إلا بعد فوات الأوان. كذلك الأمر في مجال الإبداع والإنتاج الفكري، إذ يتزامن تحقيق المُبتغى بالغالب مع حدوث تحول جذري في الذائقة الجماعية للمتلقين، وفي مقاييس تقييم المنتوج، ويظهر جيل جديد لا يأبه

إطلاقا لقضاياه ومضامينه. بل قد تظهر نتاجات أخرى متقدمة على التي سبقتها أنجزها أصحابها في مدة أقصر وبجهدٍ أقل، فضلا عن متغيرات أخرى داهمة تدخل على الخط. وكل هذا الذي قلناه توا، اختصره **هوراس** في هذه الجملة الاستفهامية:

لِمَ نُعذّب أرواحنا بين جنبينا باللهاث وراء غاياتٍ تتجاوزها؟

إن مصدر هذا الخطإ الشائع بين الناس هو الأوهام المُشوِّشة للرؤيا لا الرؤية، فيجعلها ترى الأشياء ممتدة بلانهاية أو خاطفة كالبرق تبعا للنظرة التي تختلف جذريا عند الدخول إليها أو الخروج منها. غير أن هذا الوهم نفسه لا يخلو من جانب إيجابي. فلولاه، لما حقق الناس إنجازات جُلىّ في التاريخ وبِشقِّ الأنفس.

عموما، يحدث للناس ما يحدث للمسافر، إذ بقدر ما يتقدم في رحلته بقدر ما تتخذ الأشياء قبالته أشكالا مغايرة عن تلك التي تراءتْ له عن بُعد. وكلما اقترب منها أكثر طالتها تغيرات وتبدّلات متتالية. وهذا المسار العجيب شبيه، حد التماثل، بالمسار الذي يقطعه الناس باتجاه شهواتهم ورغائبهم. إذْ قد يجدون أفضل مما كانوا ينتظرونه ويتطلعون إليه، لو أنهم سلكوا طريقا أخرى غير الطريق التي سلكوها حتى ذلك الحين. فحيثما ظن الإنسان بأنه سيجد المتعة الوافرة والسعادة الغامرة إلا ووجد درسا قاسيا يتّعظ به، وشروحات ضافية للغوامض ومعرفة أكبر بالأشياء والناس، أي أنه يجد، في نهاية مساره، خيرا مُقيما وواقعيا عوض خير خادع وعابر. وتلك هي الفكرة نفسها التي ما فتئ **ويليام ماستر** يركز عليها ويعيدها إلى الأذهان بصيغ مختلفة. يتعلق الأمر عنده برواية ذهنية متميزة حتى عمَّا كتبه **والتر سكوب** الذي استغرق في نزعة أخلاقية، فجرفته نحو

تناولٍ معيب للطبيعة البشرية من منظور الإرادة لا غير. ففي رواية ***الناي البهيج***، وهو عنوان غريب إلا أنه شديد الإيحاء والعمق، تستوقفنا هذه الفكرة المحورية التي ترمز إليها سمات كبيرة ولافتة من قبيل الزخرف المسرحي. بل قد يبلغ هذا الترميز في الرواية مستويات تلامس الكمال لو انتهت أحداثها بدخول ***بامينو*** إلى معبد الحكمة مستغنيا عن الإقتران بـ ***تامينا***، وحصول ***باباغينو*** على مبتغاه من ***باباغينا*** بأن تكون من نصيبه، وهو النقيض المباشر لـ ***بامينو***.

الأشخاص من طينة نبيلة وراقية يستخلصون، بسرعة البرق، العبر الضرورية من هذا الدرس الذي جاد به عليهم القدر، وينصاعون له ويعترفون له بالجميل. إنهم يدركون بسهولة بأن أقصى ما يمكن أن يجود به عليهم هذا العالم هو العبر والدروس، لا السعادة الخيالية والمسرّات الوهمية. لذلك، فلا غرابة إن قنعوا دائما بالمعارف واستزادوا منها، واستغنوا عن الآمال العريضة والطموحات المغالية. ويفعلون ذلك عن رضى وباقتناع كامل، ودون أدنى تأفُّفٍ أو شكوى. أكثر من ذلك، فقد يستغنون، لشدة تشرُّبهم لحكمة الحياة، عن كل الرغائب والمطامح، فلا يسعون في طلبها إلا ظاهريا، وبلا حماس وباستخفاف منقطع النظير وعلى سبيل الدعابة والظرف، لا غير. أما في أعمق أعماقهم، فلا ينتظرون من هذه الدنيا إلا مزيدا من الدروس والعبر، وهو ما لا تُخطئه العين في مسحة التأمل الراقي التي تعلوهم من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم. إن وضعهم هذا الذي يُغْبَطون عليه مماثل لوضع الخيميائيين القدامى الذين انطلقوا ذات يوم بحثا عن التّبْر، فإذا بهم يعثرون على البارود والخزف الصيني والأدوية، فضلا عن حزمة من القوانين الطبيعية.

2- في معاملة النفس

4) إن البنّاء الذي يبني بناية دون أن تكون له معرفة كاملة بتصميمها، أو لا يضعه باستمرار نُصب عينيه، أشبه ما يكون بشخص منشغل، فقط، بقضاء أيامه، واحدا تلو الآخر، دون توفره على نظرة مجملة عن حياته وسماتها العامة. فاليومي يستغرقه على حساب المُجمل، والجزئي على حساب الكلي. والحال أنه كلما كانت هذه السمات العامة عظيمة القدر، فردية وغنية بالمعاني، كلما صار واجبا على صاحبها أن يُلْقي، بين الفينة والأخرى، نظرة إجمالية على الخطة المُختصرة لحياته. ولكي ينجح في ذلك، فهو مدْعوٌّ إلى أن يخطو الخطوة الأولى على الطريق السقراطية التي تختصرها قولته الشهيرة: ***إعْرِفْ نفسك بنفسك***. فمن أوجب الواجبات عليه أن يعرف بدءا ما يريده. وحتى يتأتّى له ذلك، سيكون لزاما عليه أن يكون على بيّنة مما هو جوهري وأساسي لسعادته، ثم ما يأتي بالمقام الثاني والثالث، وهكذا. يجب عليه أن يُدرك، بصفة إجمالية، قدره الحقيقي وحجمه الطبيعي بين الناس ومهمته في هذا العالم وروابطه به. فإن كان قَدْره ودوره وروابطه من الطراز الرفيع فستحمله خطته إلى أعلى علّيين، وتكون له خير سند في مسعاه. إن من شأن الفحص الدقيق لهذه العناصر (القدر، الدور، الروابط) أن يُحفِّزه على العمل وينأى به عن السبل المُضِلّة والمُضلّلة.

ومثلما أن المسافر لا يحيط بنظرة واحدة بالطريق الذي اجتازه ومنعرجاته ومنعطفاته إلا عندما ينزل بربوة، فكذلك الناس لا يتبيَّنون الروابط الدقيقة الجامعة بين أفعالهم ونتاجاتهم وإنجازاتهم، ومدى تسلسلها وقيمتها الحق، إلا عندما يقتربون من نهاية حياتهم أو من

نهاية الحياة برمتها. وطالما يستغرقهم الكدح والتدافع اليومي، فلن تُحركهم إلا الدوافع والبواعث الشخصية، وفي حدود قدراتهم الذاتية المحدودة، أي لن تحركهم إلا الضرورة المطلقة التي لا يستطيعون دفعها. لن يُقْدِموا على فعل شيء في لحظة بعينها إلا إذا بدا لهم صائبا ومناسبا، غير أن عواقبه هي التي ستُمكّنهم من تقييمه من جميع أوجهه، مثلما أن نظرهم إلى ما اقترفت أيديهم في الماضي هي التي ستمدُّهم بعناصر الإجابة عن سؤالين حول ما حدث بالفعل، من أحدثه وكيف حدث؟

فزيد أو عمرو لا يدركان، في اللحظة نفسها التي يقومان فيها بأكبر الأعمال وأعظم المنجزات وأرقى المأثرات المندورة للخلود، حقيقتها وقيمتها الحق، إذ لا يُدركانها إلا بعد ذلك بكثير أو قليل. إلا أنهما في حين إنجازها، تبدو لهما الأنسب والأقدر على بلوغ الأهداف والمقاصد التي سطّراها لها هنا والآن. فبعدئذ فقط، بقليل أو كثير من الوقت، تتضح الحقيقة العميقة لشخصية الفاعل، وتتكشف قدراته عبر تسلسل أفعاله ومنجزاته، وعبر التمعن في تفصيلاتها مليّا. عندئذ فقط، سيتبين ما إذا كانت اختياراته موفقة ومدروسة، كما سيتضح إن كان توفق في ذلك بضربة حظ ودفعة إلهام، أم باقتفائه أثر نبوغه الخاص؟ وهذه القاعدة العامة أثبتت صحتها سواء في مجال النظر أو العمل، ويسري مفعولها على الوقائع المتعارضة والمتناقضة أيضا.

5) ثمة نقطة أخرى لا تقل أهمية عن السابقة، وتتمثل في مقدار الوقت الذي نخصصه ونكرّسه للحاضر مقارنة مع الوقت الذي نخصصه للمستقبل. والسبب في إثارة هذه النقطة هو احتمال أن

يُفسد المستقبل على الحاضر هدوءه وصفوه حين تطغى وترجح كفته. والناس في هذه المسألة صنفان: صنفٌ يستغرقه الحاضر، وهم العابثون واللاهون والتافهون، وصنف آخر يستغرقه المستقبل، وهم المُتوجِّسون، المُتهيّبون والقلقون. وبين هؤلاء وأولئك، قلّما نجد من يُمْسك العصا من الوسط، ويتحرى الاعتدال بين الانشغالين: انشغال بالحاضر وانشغالٌ بالمستقبل بلا إفراط ولا تفريط. فعبيد الشهوات والرغائب والآمال المُرْجَئة دوما، لا يعيشون إلا لمستقبلهم. عيونهم مشدودة دوما إلى أمام، ولاهثون وراء أشياء يتوقعون حدوثها في المستقبل، وستتحقق معها سعادتهم الحقيقية بزعمهم، ويستنفذهم هذا الوهم على حساب حاضرهم المنفلت على الدوام من بين أيديهم بحيث يحرمون أنفسهم من الاستمتاع بهُنيهاته المُنسابة. وهم في ذلك أشبه بالحمير الإيطالية التي يضع له أصحابها حزمة تِبْن نصب أعينها، ويُمسكونها بعصا لكي تُسْرع الخطى أملا في اللحاق بالتبن الذي يبدو لها أقرب كلما أسرعت، وتُمنّي النفس ببلوغه دون أن يتحقق لها ذلك. فهذا الصنف من الناس يُفْسد حياته بعيْشه الدائم على سراب المستقبل وأوهامه إلى أن يُدركه الموت وهو على هذا الحال. لذلك، فعوض الانشغال الهوسي بالمستقبل، أو الارتهان الكلي للماضي والبكاء على أطلاله، يجب على الإنسان أن يتفطّن إلى حقيقة بسيطة، وهي أن الحاضر هو وحده الواقعي والمؤكد. أما المستقبل فتتحقق أحداثه، بالأغلب الأعم، على نحو غير متوقع، وكذلك الماضي الذي يختلف بالمجمل عن تهيؤاتنا وتصوراتنا حوله. ويبقى الحاضر هو وحده الحقيقي لأنه واقعي، إنه مثال للزمن الممتلئ الذي يرتكز عليه الوجود العياني للإنسان. ويكفي هذا سببا لنخُصَّهُ بما يليق

به من ترحيب وحفاوة، ونتلذذ، إلى الرمق الأخير، ونحن في كامل وعينا بكل ساعة خالية من الاكراهات والمعاكسات والمُنغِّصات والآلام، ونُنْزلها منزلتها الحق. ولن يتأتى ذلك إلا بالامتناع عن تكدير صفوها بالتحسر على آمال خابتْ وطموحات أصابها إحباط، أو تلويثها بصور ذهنية مغموسة في الكمد والضنى من شدة ارتجافها من المستقبل. لا أتصور بأن ثمة حماقة أكبر من إهدار فرص حابلة بسُويعات سعيدة، وتعمُّد إفسادها بالحزن على الماضي أو القلق على المستقبل. فلْنُعطِ لأوقات الهمّ حصتها وللحظات الندم نصيبها، ولنَنْصرفْ بعد ذلك إلى الأهمّ مُردِّدين مع القائل هذه الكلمات البليغة:

هيّا نقذف الماضي وراء ظهورنا،

هيّا نرميه، بلا رحمة ولا شفقة، في جُبّ النسيان،

فهذا وذاك هو شرط إطفاء نيران الغضب المضطرمة بدواخلنا!

هذا عن الماضي، أما عن المستقبل، فلنجعل هذه الشذرة شفيعنا وعزاءنا:

هذا العالم بما فيه ومن فيه يتّكئ على رُكْبتيْ الآلهة، فلا عليك!

أما عن الحاضر، فَلْيكنْ ***سينيكا*** هو أسوتنا ودليلنا، وهو القائل:

كلٌ يومٍ جديد هو حياةٌ جديدة.

ولنحرصْ أشدّ الحرص على أن يكون حاضرنا، وهو زمننا الواقعي الوحيد، مُمْتعا إلى أقصى الحدود.

المصائب الوحيدة التي من شأنها أن تثير حفيظتنا هي تلك التي نعلم علم اليقين بأنها ستقع وتوقيت وقوعها، وهي على كل حال نادرة جدا. فالمصائب عموما إما أن تكون في حكم الوارد أو

مُرجّحة الوقوع، أما الأخرى المتبقّية فتكون مؤكدة ولا تحوم الشكوك إلا حول الميقات المضبوط لوقوعها. لو شغلنا أنفسنا بالصنفين الأولين، فلن نتذوق طعم الراحة أبدا. لذلك، وحتى لا تذهب فترات راحة البال في حياتنا سُدىً لفائدة مصائب محتملة الحدوث ومجهولة الميقات، يتعين التعامل مع المحتملة على أنها لن تقع أبدا، ومع المؤكدة على أنها ستقع ولكن ليس في المدى المنظور.

لكن ما أن تحضر الراحة والهناء في حياتنا حتى ينسحب منها الخوف، فنكون هدفا سهلا للاضطرابات الناتجة عن الاعتمال الشديد للرغائب والشهوات والمطامح والمطامع بدواخلنا. فأنشودة **غوته** الشهيرة: ***ما عُدت أعلّقُ أملا على شيء،*** تدل في عمقها على الحقيقة البسيطة الآتية: إن شرط نيل السعادة هو راحة البال، وشرط راحة البال هو إخلاء النفس من كل التطلعات والقبول بالوجود كما هو في واقع الحال مجردا ومُفْرغا من كل المَحشوّات. والاستمتاع بالحاضر، وبالتالي بالحياة كلها، مشروط بهذه الراحة الذهنية والنفسية. علينا أن نستحضر دائما أن ***هذا اليوم*** الذي نحن فيه لا يأتي إلا مرة واحدة، فلن يتكرر أبدا. ومشكلتنا أننا نتوهم بأنه سيعود غدا، بينما الغد هو يوم آخر لن يتحقق كذلك إلا مرة واحدة. وفي غمرة ذلك، نغفل عن أن كل يوم هو جزء قائم بذاته، جزء مُقتطَع من ***كُلّ*** هو الحياة، وبالتالي فلن يُعوّضه جزء آخر مهما كان. اليوم، ***يوم هذا اليوم*** جزء من الحياة، جزء من حياتنا مثلما الأفراد هم أجزاء مكونة للكل الذي هو الجنس البشري.

لن ندرك القيمة الحقيقية للحظات السعيدة والجميلة، ولن نتذوق رحيقها إلا إذا استحضرنا معها أوقات المرض والمعاناة التي

عشناها ذات يوم. مثلما أن تذكُّر هذه اللحظات السعيدة الخالية من الألم والشقوة في ساعات المرض والمعاناة كفيل بأن نُرقّيها إلى مرتبة الجنة المفقودة والصديق المجهول. لكن للأسف، ما يحدث غالبا هو خلاف ذلك، إذ تمر علينا لحظات سعيدة ورائقة دون إيلائها ما تستحقه من اهتمام وعناية، ولا نتذكرها إلا في ساعات العُسر والضنك. نتركها تمر دون أن نبادل طلعتها الصَّبوح بابتسامة رقيقة، ودون التلذذ بها واستنفادها حتى الرمق الأخير، وقد نعيش آلاف الساعات الممتعة التي تغمرها السكينة والطمأنينة ولا نتذكرها إلا عند حلول ساعات الضيق والمحنة، فنشتاق إليها غاية الاشتياق، لكن بلا طائل. لذلك، علينا التصرف على نحو مغاير من خلال تكريم الراهن الممتع والمُيسَّر، ولو كان بسيطا وعاديا جدا بدل تركه يمر، أو نستعجل مروره حتى. علينا أن نستحضر في هذه الأثناء أن الحاضر يلتحق بالذاكرة المُمجِّدة للماضي، ومنذ ذلك الحين سيستضيء بنور الأبدية، أبدية الذكرى، فيترآى لنا كأشهى ما نصبو إليه خصوصا في أوقات الشقوة والألم التي تترك فيها الذكرى الجميلة أثرا شبيها بالبلسم.

6) إن القناعة بالقليل تجعلك أسعد الناس. وبقدر ما تضيق دائرة الرؤية والحركة والارتباطات في حياة الإنسان، بقدر ما يرفل في السعادة ويغمره الفرح. وكلما اتسعت هذه الدائرة، كبرت وتضاعفت معها صنوفٌ من الهم والغم والرغائب، بل ونوبات من الفزع. لهذا السبب، فالعميان أقل شقاء وتعاسة مما قد يتصوره المُبْصِرون، وهو ما يتضح جليا في تلك الهالة من الهدوء اللطيف التي تحيط بهم، وتشهد عليها قسمات وجوههم. كما أن هذه القاعدة

العامة توضح، جزئيا، السبب الذي يجعل النصف الثاني من مسارنا الحياتي مطبوعا بحزن أكبر. فكلما تقدم الإنسان في العمر، كلما اتسع أفق رؤيته ودائرة علاقاته وروابطه. ففي الطفولة، يكون هذا الأفق محدودا بالمحيط الأقرب والعلاقات المحدودة جدا، ثم سرعان ما يتسع مداره ومداه في مرحلة المراهقة، إلى أن يُعانق، في النضج، آمادا غير مسبوقة، فتمتد معه العلاقات إلى أبعد نقطة لتشمل شعوبا ودولا. وما أن تحل الشيخوخة حتى يعانق أجيال المستقبل. بالمقابل، من المؤكد أن الإنسان سيجني أعظم الفوائد وألذّ الثمار من القناعة بالقليل. فكلما خفَّت مهيجات إرادته خفت معاناته، سيما إذا علمنا أن المعاناة موجبة في حين أن السعادة سالبة. إن الحد من دائرة الحركة يُفوِّت على الإرادة بواعث خارجية تثيرها وتهيجها، مثلما أن الحد من دائرة النفس، أو حركة الذهن، يفوت عليها بواعث داخلية. وتتجلى السلبية الكبرى لهيجان الإرادة في فتحها المجال أمام الضجر الذي يغدو مصدرا غير مباشر لِماَ لا نهاية له من العذابات وألوان المعاناة كلما جرب الإنسان وسائل كثيرة لدرئه وتقويضه. فيُجرِّب الهوايات والاختلاط بالناس وحياة البذخ واللهو والشراب وغيرها كثير، وكلما جرب زاد إحباطه واسْتحْكَم ضجره، فيحصد جراء ذلك خسائر تلو خسائر وخرابا ويبابا وآلاما لا تنتهي. وما علينا لندرك مدى انشراط السعادة بالتحديد الخارجي لدائرة الحركة وتقليص أفق النظر ومداه، بل والضرورة القصوى لذلك، سوى أن نتأمل بعمق الأشعار الواصفة للحياة العجيبة لمعشر السعداء، أشعار تُصَوِّرهُمْ وهم مقيمون في محيط محدود جدا. وعندما نتملى مشهدهم وهم على هذا الحال، ينتابنا شعور غامر بالسعادة نفسها التي يرفلون

فيها. نخلص مما تقدم إلى أن نيل السعادة مشروط بأجواء البساطة الشديدة التي تلف علاقات الإنسان وارتباطاته، كما هو مشروط بغلبة التجانس بل والرتابة على نمط عيشه طالما لا تبعث على السأم. هو ذا الشرط اللازب لتحمُّل أعباء الحياة برحابة صدر وسعة خاطر، بل والاستخفاف بها وبمعاكساتها. على هذا النحو، ستغدو الحياة شبيهة بجدول مائي مُنساب خال بالمرة من الأمواج والدوامات.

7) أخيرا، فإن أهم عنصر في سعادة الإنسان أو تعاسته هو ما يشغل باله ويملأ وعيه. فالأعمال العقلية (الفكرية) لا بد أن تُزوّد النفس البشرية بالكثير من الطاقة التي ستعود عليها بالنفع العميم، نفعٌ يفوق، بما لا يقاس، ما تجنيه من أمور الحياة العملية التي تتناوب عليها النجاحات والإخفاقات، الانتصارات والانكسارات والهزات والاستقرار. إلا أن السير في هذا الاتجاه يتطلب من الإنسان استعدادا نفسيا كبيرا. وننوه هنا إلى أن الاستغراق في شؤون الحياة العملية يَحْرِفُه ويُلهيه عن الدراسة، كما يسلب السكينة من نفسه ويحرمه من القدرة على التركيز. وبالمثل، فاستغراقُه في أمور الفكر والتأمل والنظر يجعله، وبنسب متفاوتة، عاجزا عن الانشغال بأمور الحياة العملية والصبر على جلبتها وتدافعها. لذلك، ننصح المُنصرف إلى أمور الفكر والنظر بأن يُعلق ويُؤجل أمور الحياة العملية كلما فرضت عليه الظروف نشاطا عمليا يتطلب منه طاقة زائدة وجهدا مضاعفا.

8) ولكي يُحيط الإنسان حياته بسياج الحيطة والحذر، ويستخلص من تجاربها الدروس المناسبة، لا مندوحة عن عودته المتواترة إلى الوراء لاستحضار ما عاشه ورآه وعمله وتعلّمه وانتابه من أحاسيس إلى ذلك الحين. مثلما يجب أن يتمرّن على عقد

مقارنات بين أحكامه الماضية وآراءه الحالية، وبين ما خطّط له من مشاريع وحرّكه من طموحات وما انتهى إليه في الواقع من نتائج ونوع الإشباعات التي تحققت له منها. على هذا النحو، سيجعل التجربة مُعلّمه الأول التي لا تبخل عليه أبدا بدروسها *المكرورة*. فالتجربة هي *النص*، بينما التفكير والمعرفة هما *التعليق أو التعقيب على النص*، التجربة هي *المتن* والتفكير هو *الحاشية*. فكثرة الأفكار والمعارف مع قلّة في التجارب والخبرات شبيهة بكتبٍ تحتوي على صفحات فيها متْن من سطرين وحاشية من أربعين سطرا، تكون عبارة عن تعاليق مُطنبة على نص وجيز ومقتضب. أما الفائض في التجارب والخبرات المرادف لشُحّ في التفكير والمعرفة، فأشبه ما يكون بتلك الكتب الصادرة عن منشورات Les Deux ponts والمعروفة بخُلوِّها من الهوامش والحواشي، ما يجعل الكثير من هوامشها عصيّة على الفهم وشديدة الالتباس. ولعل هذا المعنى العام هو الذي تروم إحدى التعاليم الفلسفية إبرازه من خلال حثّها على وجوب مراجعة النفس قبل الإخلاد للنوم، وذلك باسترجاع وفحص ما قام به المرء من أعمال طيلة اليوم. فالمرء الذي تبتلعه الحياة وتستغرقه جلبتها وأشغالها وانشغالاتها ومتعها ومباهجها، ولا يستعيد، ولو للحظات، ماضيه القريب والبعيد، قانعا بإفراغ ما تبقى من جعبة حياته، هذا المرء ينتهي به الأمر إلى أن يصير كائنا بلا عقل، أو بالأحرى بعقل مضطرب ومشوش. تغدو نفسه سديما، وأفكاره بلا رابط يجمعها، وهو ما يشهد عليه كلامه المتبلد عند حديثه مع الناس، إذ يغلب عليه التقطع والابتسار والتهافت. ويزداد وضعه سوءا كلما تداعت عليه المُشوّشات الخارجية من كل جانب مع ما تثيره في النفس من

اضطراب، فتتناسل انطباعاته، ويتقلص نشاطه الذهني. فلنلاحظ في هذا السياق مثلا، أنه بعد توقف الروابط التي تجمع الإنسان بالأشياء والأشخاص، وزوال الظروف المصاحبة لها التي تمارس عليه تأثيرا مؤكدا، بعد ذلك ببُرهة يكون عاجزا تماما عن استعادة وإعادة معايشة الحالة النفسية التي تركتها فيه توّا. وغاية ما يستطيع تذكّره تمظهرات عامة وفضفاضة لتلك المناسبات والأحداث العابرة. غير أن هذه التمظهرات لا تعدو أن تكون نتيجة وتعبيرا عن تلك الأحداث والمناسبات العارضة. لذلك يتعين على الذاكرة الخاصة والذاكرة المُدوّنة للإنسان أن تحافظا بعناية على آثار ومخلفات اللحظات المفصلية في حياته. لذلك، لن يعود عليه إمساكه بالقلم لأجل التدوين إلا بالنفع العميم والخير الجزيل في هذا الصدد.

9) وجوب الاكتفاء بالذات، أي أن يجد المرء في ذاته كل ما يبتغيه. وفي هذه النقطة، لا بد أن يجد في هذه الحكمة الأرسطية المقتضبة عزاءه وملاذه: **السعادة هي من نصيب المُكتفين بذواتهم**. وهي نفسها التي جاءت على لسان **شامفورت**، وصدّرنا بها الكتاب بين يديك: **فلْتبحثْ عن السعادة في ذاتك**، أي في تمتلكه في نفسك. هو ذا عين الصواب، فلا توكّل ولا تعويل إلا على النفس، عليها وحدها المُعوَّل وإليها الإنابة. كما على المرء أن يعلم علم اليقين أن حالات الإنهاك والسلبيات والمخاطر والمُعاكسات الناتجة عن الاختلاط بالناس لا عدّ لها ولا حصر، وميؤوسٌ من تفاديها بشكل مطلق.

لن يقتفي الإنسان سبيلا تُبْعده وتَصْرِفُه عن السعادة أكثر من سبيل شهوة العيش في أجواء الأُبّهة والبهرجة التي تُعاش في الحفلات

والمآدب والسهرات التي خصَّها الإنجليز بتعبير حياة الألبة. high life فعندما يقتفي هذا السبيل، لا بد أن يسعى سعيا محموما لا طائل منه لأجل تحويل هذا الوجود البائس إلى مناسبات ومواعيد اصطناعية متتالية للأفراح والمتع والعبّ من كأس الشهوات، لينتهي به الأمر إلى خيبات أمل متتالية، والانجرار وراء الأكاذيب المتبادلة التي يُسرف الناس في إطلاقها حتى غدت خبزهم اليومي الذي لا غنى لهم عنه(1).

فكل معاشرة تشترط توافقا بين المتعاشرين وإرادات متناغمة، لكن، ما أن تتسع دائرتها ويكبر مداها حتى تغدو بلا طعم. فالإنسان لا يكون حقيقة نفسه إلا إذا كان بمفرده. لذلك، فالكاره للعزلة كارهٌ للحرية، إذ لا نكون أحرارا إلا في عزلتنا. فكل اختلاط بالناس يُلازمه الإكراه لزوم الظل لصاحبه، ويفرض على المُخالط تقديم تضحيات وتنازلات باهظة بمقاييس الميَّالين بطبعهم إلى الإنفراد والعزلة، والمُشمئزِّين من المخالطة. لذلك، فقيمة الأنا وجودها من عدمها تُقاس بالنفور من العزلة أو بتحمّلها بله الهيام بها. والهيام بها يتساوق مع الجودة العالية للأنا والشخصية. ذلك أن البائس يستشعر بؤسه، وبكل جوارحه، في عزلته التي لا يطيقها جرّاء ذلك، كما يستشعر الراقي عظمته وسموه بكل جوارحه أيضا في وحدته. إن العزلة هي الميزان الذي تُقاس به جودة الأشخاص من عدمها. فبقدر ميل الشخص إليها، وعشقه لها، يكون أهلاً لأخذ مكانه في مَجْمع الرّاقين وصفوة المُنْتجبَين. وإنها لمتعةٌ لا تضاهيها متعة أن يجمع الشخص بين العزلة الجسدية والعزلة الفكرية المتناغمتيْن أشد تناغم. وإن تعذّر على هذه الطينة من الناس تحقيق هذا المطلب، فإنك تجدهم منزعجين بالغ الانزعاج لأن الظروف القاهرة أجبرتهم على معاشرة

أناسٍ متبايني الطباع والميولات والمقاصد. وهذا الأمر يشـوش، أيما تشويش، على مجرى حياهم ويكدِّر صفوها، بل يعتبرون ذلك علامة شؤم. فهذه المعاشرة الاضطرارية تنتزع منهم ذواهم الحقـة مقابل لاشيء. إن الطبيعة لم تخلق الناس متساوين ومتمـاثلين في الطباع والعقول، غير أن مبدأ المخالطة لا يأخذ إطلاقا بعين الاعتبـار هـذه التفاوتات والاختلافات الطبيعية بين الناس، فيجعلهم كأسنان المُشط، وهو أمر يجافي الحقيقة والصواب. ومن الوارد أن تحـل محـل هـذه التفاوتات الطبيعية تمايزات وأفضليات شكلية ومصطنعة قائمة على معيار المكانة الاجتماعية الذي هو النقيض الكامل والمباشـر لمعيار المنزلة الطبيعية. فلا غرابة بعد ذلك إن كانت هذه القسمة الضِّـيزَى تُرضي أولئك الذين وضعتهم الطبيعة في أسفل المراتب، ولا تُرضـي بالمرة من بوّأهم مراتب عليا، وهو ما يحملهم على تجنّب الاخـتلاط مع كل من هب ودب. كما أن هذه المعطى هو الذي يفسـر ميـل الغوغاء المطّرد إلى التحكم والاستفراد بالرأي والقرار كلما كثُـرت أعدادها، وباتت هي السواد الأعظـم. فالسـبب في اشمئـزاز ذوي العقول الراقية من أشكال الاجتماع البشري هو هذه القسمة الظالمة التي تُكرّس مساواة اصطناعية جائرة في التمتع بالحقوق، وما يترتـب عنها من مساواة لا تقل جورا في التطلعات والمرامـي، علمـا بـأن التفاوت بين هذه العقول وتلك الغوغاء، في الملكـات والقـدرات، واضح وضوح الشمس. إن المجتمع يُقدّر كل أنواع الاسـتحقاقات والمزايا إلا المزايا العقلية، إذ تبدو له كبضائع مُهرَّبة، أي كأشياء غريبة وشاذة، فضلا عن أنه يفرض على الجميع تحمُّل كل أنواع الحماقات وضروب العته والعبث والغباء التي تقترفها الدهماء. أما المزايا العقلية،

فليس لها في موازينه إلا أن تستجدي العفو والصفح، وأن تتوارى من تلقاء نفسها. فالتفوق العقلي الذي لا يسنده أي شكل من أشكال الإرادة يُلحق إهانة أكيدة بذوي العقول الصغيرة لمجرد وجوده بينهم. إن قاعدة الاجتماع الإنساني لا ترتكب فقط، بهذا الصنيع، جريرة إجبار العقول الراقية على الدخول في علاقات مع بشر مُنفِّر، بل تَحُولُ بينها وأن تكون عين ذاتها، ووفق طبيعتها. أكثر من ذلك، فهي تُجبرها على التماهي مع الأغيار الغفل، وتتصاغر إلى أن تمّحي أصالتها وفرادتها. إن الخطابات الروحانية والإلتماعات العقلية لا قيمة لها إلا في أبهاء مجتمع روحاني. أما المجتمع "العادي"، فيمقتها أشد المقت. فلكي ينال الشخص إعجاب هذا الأخير، لابد أن يكون سطحيا ومحدودا جدا في تفكيره ومداركه. إن ذوي العقول الراقية يخالطون الناس على مضض لأنهم يضطرون في الأثناء إلى التنازل عن ثلاثة أرباع شخصيتهم حتى ينسجموا معهم ويسايروهم. صحيح أنهم يكسبون، لقاء هذا التنازل المؤلم، ودّ هؤلاء، إلا أنهم يدركون، خصوصا أصحاب القَدْر الرفيع منهم، أن الخسارة الناتجة عن ذلك الكسب أكبر بكثير من الربح المُتحصّل منه، أي أن الصفقة خاسرة خسرانا مبينا. والسبب هو أن العوام مُفلسون، ولا يملكون ما يُعوضون به أنفسهم عن الضجر والضنك الذي يئنون تحت وطأته، وصنوف الهمّ والغمّ التي تتمخض عنهما، والتضحيات الجسام التي تتطلبها. إن كل أنواع المخالطة من هذا الصنف البائر، الرابح الأكبر هو من يُقايضها بالعزلة. زِدْ على ذلك أن العوام، وفي محاولة منهم للتعويض عن التفوق العقلي الذي يُعوزهم، يسعون سعيا محموما لخلق ومجاراة بواعث أخرى تَعِدُهم بتفوق زائف ومُتواضع عليه بين

الناس. تفوّقٌ تحكمه مواضعات اعتباطية يتداولونها بسرعة البرق، ولا تني تتخذ أشكالا متغيرة، وكلمة السر فيها هي مسايرة ما تواضع عليه الناس من مظاهر وصيحات طقوسية. وما أن يصطدم التفوق الحقيقي بالمزيف حتى ينكشف خواء وخور هذا الأخير. أما عندما تحط هذه المجاملات المفرطة الرحال في مكان، فليس للحس السليم إلا أن يخرج منه، على حد تعبير مثل فرنسي شهير.

عموما، لا ينسجم الإنسان الراقي انسجاما كاملا إلا مع ذاته، لا مع صديقه ولا مع محبوبته. إن الفروق الفردية وتباين الطباع وتنافر الأمزجة تخلق، حتما، نشازات بين الناس، ولو كانت صغيرة جدا. لذلك، لن يجد الإنسان، من معدن رفيع، السلام الحقيقي والطمأنينة العميقة، وهما الخيْران الأتمّان الأكْملان، وبعد الصحة، إلا في العزلة. ولكي يضمن ديمومتها، ما عليه سوى أن يتعقبّها في خُلوته وانقطاعه الطوعي عن عالم الناس. فإنْ كانت أناهُ كبيرة وغنية، فسَيستْمرئُ، حتما، السعادة القصوى على هذه البسيطة. فمهما بلغت أهمية روابط الصداقة والحب والزواج في حياة الناس، إلا أن كل واحد منهم لا يبتغي الخير الكامل، في قرارة نفسه، إلا لنفسه وعلى أبعد تقدير لذريّته. وكلما تضاءلت حاجة الإنسان للآخرين، وميله لمعاشرتهم، كلما زادت حظوظه لملاقاة ذاته والتصالح مع نفسه. والعزلة والخلوة تدرءان كل الشرور المتوقعة من المخالطة، أو على الأقل تمنحان صاحبهما قدرة استشعار قدومها الوشيك. بالمقابل، فالاختلاط بالناس والإكثار من الاحتكاك اليومي بهم هو أمر مخاتل وخادع لأنه يُخفي الشرور الكبيرة التي يعجز الإنسان عن مواجهتها. اختلاط، اعتاد الناس على تبريره تبريرات واهية، من قبيل التمضية

البريئة للوقت، والثرثرة العفوية، واللهو الجماعي وما شابه. فمن خَبر الناس جيدا، لن يجد ضالته، منذ بواكير حياته، إلا في العزلة، فهي ينبوع السعادة والطمأنينة والسكينة. غير أن العزلة لا تكون إلا من نصيب الأشخاص الذين لا يُعوِّلون إلا على أنفسهم، ويجدون فيها كل ما يشتهونه. قال **شيشرون** بهذا الصدد: أسعد الناس هو المُعتمِدُ على نفسه التي يُودع فيها كل خيراته. فكلما اكتفى الإنسان بما لديه، كلما استغنى عمّا لدى غيره. وهذا الإحساس الصادق بالقدرة على الاكتفاء الذاتي هو الذي يُعفي الإنسان الراقي من تقديم تلك التنازلات الكبيرة والتضحيات الجمة التي يفرضها الاحتكاك بالناس ومخالطتهم، بل بفضله يتعفف حتى عن البحث عن الفرص التي تتيحه. فهو يدرك الثمن الباهظ الذي سيدفعه جراء ذلك، إنه ببساطة إلغاء ذاته لحساب غيره. ونقيض هذا الإحساس هو الذي يجعل عامة الناس اجتماعيين جدا، ومُسايرين أكثر من اللازم، فأهون عليهم أن يتحملوا الآخرين من تحمّل ذواتهم.

أنوه أيضا إلى أن ما له قيمة حقيقية في هذا العالم لا يُقدّره الناس حق قدره، وما يحظى فيه بالتقدير والتعظيم لا قيمة له بالأغلب الأعم. ودليل ذلك، بل وثمرته اليانعة هي حياة العزلة التي يرفل فيها ذوو الاستحقاق والتميّز من بني البشر. لذلك من الحكمة أن يُقلّص هؤلاء حاجياتهم ومتطلباتهم إلى حدودها الدنيا حفاظا على حريتهم، بل ولأجل تكثيرها والاستزادة منها. كما يجب عليهم أن يقنعوا بالقليل، أو بأقل القليل إن أجبرتهم الظروف على مخالطة الناس والاحتكاك بهم.

ثمة عنصر آخر يدفع الناس إلى أن يكونوا اجتماعيين هو عدم تحملهم للعزلة، ونفورهم من ذواتهم. ففراغهم الداخلي يدفعهم دفعا

إلى تنكّب فرص المعاشرة والمخالطة، كما يدفعم إلى أن يجوبوا العالم طولا وعرضا، والولع الشديد بالأسفار. وبِما أن نفوسهم تفتقد للنابض الذي يحركها من تلقاء نفسها، فإنهم يُسرفون في شرب الخمر حد الإدمان. فمعاناتهم من خواء داخلي يجعلهم بحاجة دائمة إلى مهيج أو مثير خارجي، خصوصا المهيّجات التي تصدر عن أمثالهم والتي تتسم بجموحها وغُلوِّها. وما أنْ تغيب عن حياتهم حتى تنهار نفسياتهم ومعنوياتهم لتفترسها البلادة القاتلة(2). فكل واحد منهم لا يتصور نفسه إلا كجزء ضئيل جدا من البشرية كافة، وبالتالي فهو يحتاج دوما إلى أضعافه المضاعفة حتى يشكلوا، مجتمعين، وعيا بشريا كاملا ومتساندا. أما الإنسان الكامل، الإنسان بامتياز الذي يرفض اختزاله في ذرة أو جُزَيْئة فيُمثِّل، لوحده، وحدة متكاملة، ما يجعله مكتفيا بذاته ومستغنيا عن غيره. يجوز تشبيه الخلطة البشرية للعامة بالأوركسترا الروسية التي لا تتكون إلا من مجموعة من الأبواق ذات نوطة موسيقية واحدة لا يتحقق فيها التناغم إلا عَرَضا وبمحض الصدفة. فنفوس غالبية الناس، هي من الرتابة المُمِلّة، بحيث تتماهى مع هذا الصوت المنفرد المكرور لهذا البوق، تجترّ الموضوعات نفسها، وتعجز تماما عن ابتكار غيرها. لذلك فهي تبعث على الضيق والضجر لعدم إطاقتها للعزلة، ولهاثها المستمر خلف الاختلاط بغيرها الذي تجد فيه عزاءها الأكبر، ولا يجتمع أفرادها إلا على شكل قُطعان بشرية. فالرتابة الداخلية الخانقة تجعلهم لا يطيقون ذواتهم، وقد صدق المثل القائل: كل حماقة تئن تحت كلكل النفور من نفسها. إنهم لا يحسون بكونهم "شيئا" إلا عندما يجتمعون ويتجمّعون، تماما كالعازفين على تلك النوطة المملة والمكرورة للأبواق الروسية.

أما الألمعيُّ، فمثله كمثل عازف ماهر يُنشّط بمفرده أو صحبة آلة البيانو حفله الموسيقي، وعلى شاكلتها، يُعتبر كذلك أوركسترا مُصغّرة، عالما صغيرا. وما لا يكونه غيره إلا بالتجمهر قادر على منحه بفضل وعيه المفرد والمنفرد والمتفرد. وعلى شاكلة البيانو أيضا، لا يرضى أبدا بأن يكون جزءا من السمفونية لأنه مندور للعزف المنفرد وللوحدة. وإذا قُدّر أن كان عضوا في مجموعة غنائية، فلا يرضى بما دون الصوت الرئيسي المصحوب بأصوات مُردِّدة، مرة أخرى على شاكلة البيانو، أو بما دون المقطوعة المُغنّاة برنّة صوتية غنائية متماهية مع الآلة نفسها. إن المُقْبل على الاختلاط بالناس،

يتعين عليه أن يستخلص من هذه المقارنة قاعدة أساسية مؤداها أن نواقص الذين يُخالطهم، على مستوى الكيف، يسعون لتعويضها أو التغطية عليها بالكمّ، وبالتالي فإن معاشرة ألمعيٍّ واحد كانت ستكفيه شر هذه المُخالطة. أما إنْ لم يجد إلا البضاعة العادية جدا، حتى لا نقول الرديئة، فسيعُبُّ منها حتى الثمالة، يحذوه الأمل في أن يرفده تنوّعها وكثرة أهلها بمفعول مماثل لمفعول الجوق الموسيقي الروسي الذي لا يفعل إلا النّفخ في الأبواق المتماثلة ذات الصوت النشاز. إن كان هذا حظه ونصيبه، فلترفده السماء بما يكفي من صبرٍ جميل!

إن هذا الخواء الداخلي وانعدام الأهلية الشائعين عند العوام هما اللذان يُعرقلان كل مساعي الخاصة، من رفيعي قدر ومقام، لأجل تحقيق أهداف نبيلة ومثالية. ذلك أن الدهماء، شبيهة في ذلك بحشرات طفيلية، تتسلط عليها لتحرفها عن مقاصدها بحشر أنفها في شؤون لا تفقه فيها شيئا، وتدخُّلها في ما لا يعنيها أملا في التخفيف من حال

الضجر الذي يفعل فيها الأفاعيل، والخواء الذي ينخرها من الداخل. فمِنْ عادة الدهماء التدخل، على نحو عشوائي، في النقاشات الوازنة بلا سبب موجب ومُقنع، همها الوحيد في ذلك هو إفشال المساعي المبذولة، جملة وتفصيلا، وتحريفها عن مقاصدها الأولى باتجاه مقاصد أخرى تناقضها جذريا.

زد على ما تقدم أن الميل الإنساني إلى الاجتماع هو كذلك وسيلة لتدفئة النفس وتخليصها من الوحشة، كما الاحتكاك المادي (الجسماني) يُدفئ الأبدان عند اشتداد البرد القارس، ما يجعل الناس يتكدسون ويتزاحمون داخل رقعة محدودة اتِّقاءً لشره ودرءا لقسوته. أما الشخص الذي يتوفر على ما يكفيه من سعرات حرارية فكرية ووجدانية، فلا حاجة له بالمرّة بهذا التزاحم والتدافع والتكدس. ستجد في الجزء الثاني، الفصل الأخير من كتابي (parerga und paralipomena) حكمة بليغة من بنات أفكاري تعبّر عن هذه الفكرة العامة[3]. معنى ذلك أن الميل إلى الاجتماع والمخالطة المفرطة يتناسب عكسا مع الوزن الفكري والقيمة العقلية للشخص. وعندما نقول عن شخص بأنه غير اجتماعي، فهذا لا يحتمل إلا معنى واحدا هو توفره على ملكات عقلية ممتازة.

إن العزلة ترفد الألمعي بنعمة مزدوجة، فمن جهة، تُمكِّنه من الاختلاء بنفسه، ومن جهة ثانية تَحُول بينه والاختلاط بالغير. ولا بد أن يُقدِّر العاقل حق قدرها هذه النعمة الثانية لِعلمه بما تجلبه المخالطة من أنواع الإكراه والمعاناة والأخطار. وقد صدق **لابرويير** عندما قال: كل الشرور مصدرها عدم الاختلاء إلى الذات والاكتفاء بالنفس. إن الإفراط في المخالطة واحد من الميول الخطيرة والمُؤذية لأنه يُدخل صاحبه في دوامة من العلاقات مع بشر سيء الطباع وضيّق

التفكير ومشوَّش الذهن في معظمه. لذلك، فالشخص غير الاجتماعي يستغني مطلقا عن كل هؤلاء، ومادام يجد في ذاته كل ما يحتاج إليه فإنه يستغني بسهولة كبيرة عنهم. هذا الاستغناء الذي هو الشرط اللازب لسعادته القصوى، ذلك أن معظم الشرور والمصائب مصدرها الاختلاط بالأغيار. أما سعادة الإنسان، فلا تتأتى إلا من راحة البال والصحة الجيدة، وهما اللذان يكونان عُرضة لأخطار ماحقة في زحمة المخالطة والاحتكاك الكثير ببني البشر. إن راحة البال والصحة الجيدة مستحيلتان بدون فترات طويلة من العزلة والخلوة. لذلك، كان الفلاسفة الكلبيّون يضربون صفحا عن شتى أنواع الشهوات والرغائب والخيرات ليجنوا الثمرة الرائقة للسعادة المُتحصّلة من الطمأنينة والسكينة، ولا شيء غيرهما. فالاستغناء عن الناس، وتفادي الاختلاط الكثير بهم لأجل تحقيق هذه الغاية هو عين العقل. وفي هذا الصدد، قال **برناردان دو سانت بيير** في عبارة آسرة: إذا كانت الحِمْية الغذائية شرطا للصحة الجسدية، فالحمية الاجتماعية شرط للصحة النفسية والعقلية، أي لراحة البال والطمأنينة". إن الشخص الذي أَلِفَ العزلة منذ سن مبكرة، حتى باتت هي **أعز ما يطلبه**، لابد أن يكون بألف خير، وسيتمتّع بصحة جيدة يستحيل النيل منها. غير أن هذا المآل لا يكون من نصيب كل الناس. فالناس في البدء يجمعهم البؤس، وما أن تنتفي أسبابه حتى يجمعهم الضجر. وفي غياب هذين الدافعين، أي البؤس والضجر، فلن يجتمع منهم اثنان ولن يلتئم لهم جمع. ويبقى الخيار الوحيد المُتبقى، والملاذ الأخير هو العزلة التي يتماهى فيها المحيط مع ما يمتلكه الأشخاص في ذواتهم، والذي تحول الجلبة الاجتماعية والتدافع دون النظر إليه نظرة لا

تشوبها شائبة، أو تختزله في عدم. وكل خطوة يخطوها الإنسان خارج نطاق العزلة، لابد أن يتعلم منها درسا قاسيا تدحض دحضا مؤلما خطوته ومسعاه. إن الحالة الطبيعية للناس هي العزلة التي تعود بهم إلى الوضع البدْئي لسعادتهم الأولى، وإلى الحالة المطابقة لطبيعتهم.

هي ذي الحقيقة العارية. إلا أن آدم، خلافا لذريته من بعده، لم يكن له أب ولا أم! ولذلك، لم يكن الميل إلى العزلة طبيعيا في الإنسان. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فالإنسان يأتي إلى هذا العالم وهو محاطٌ بأهله وذويه، من أبوين وإخوة وأخوات، بمعنى أنه يجد نفسه، منذ البدء، في خضم حياة جماعية لم يخترْها. فالميل إلى العزلة والولع بها ليس من الميول الطبيعية (الفطرية) في الناس، بل هو ثمرة تجربة مديدة وتأمل طويل وتفكير رصين في مجمل الوضع الإنساني. هذا فضلا عن أنه يسير طردا معٍ تقدم الإنسان في العمر وتطور ملكاته العقلية. لهذا السبب، يقلّ الميل إلى العزلة في صفوف اليافعين الذين لم يقطعوا بعد أشواطا معتبرة في هذه الحياة. فالرضيع يقضي يومه كله وهو يصرخ من الفزع، ولا يُطيق أن يُترْك وحيدا ولو للحظة. إن العقوبة القصوى للصغار هي أن يُتركوا لوحدهم، كذلك المراهقون في اندفاعهم المستمر نحو الاجتماع ببعضهم. وحدهم الألمعيون من ذوي الطباع النبيلة، والعقول الراجحة يبحثون، بين الفينة والأخرى، عن لحظات من العزلة الصافية، ويُؤْثرون الاختلاء بالنفس، ولو لم يكن بعضهم يُطيق الوحدة طيلة اليوم. أما الإنسان الكامل، فلا أهون عليه من العزلة، إذ يَقْدر على البقاء وحيدا لمدد طويلة، وتزداد قدرته على ذلك كلما عمَّر طويلا. كذلك الشيخ الذي لا يزال على قيد الحياة، بعد اختفاء الأجيال التي عاصرها

وعايشها، فلم تعد تحركه ملذات العيش، وتستثير شهواته ورغائبه، بل ينظر إليها من علٍ ولا يجد ملاذه الوحيد وعزاءه الأوحد إلا في العزلة والوحدة. والميل البشري إلى العزلة من عدمه يُقاس بالتفوق العقلي، ذلك أنه ميل غير طبيعي أو غريزي بل سلوك مكتسَب من خلال التجربة والتفكير الطويل والتأمل واستنباط العبر واستخلاص الدروس من أحداث الحياة. إن المرء يقتنع اقتناعا راسخا بخيار العزلة بعد تأكّده، بالبراهين المتتالية، من أن الحياة العقلية والأخلاقية للغالبية العظمى من الناس شديدة البؤس. وأسوأ ما فيها نواقصهم العقلية والنفسية التي تتضافر لتُخرج إلى حيّز الوجود ظواهر بشرية تشمئز منها النفوس وتقشعر لها الأبدان، وتجعل أي اختلاط بهم أمرا لا يُطاق. إن مخالطتهم هي أسوأ ما يمكن أن يوجد على هذه الأرض، فضلا عن أشياء أخرى أقل سوءا وأخف ضررا. وهذا ما حذا بـ **فولتير**، وهو الفرنسي الاجتماعي، إلى القول: تعجّ الأرض ببشر لا يستحق حتى أن نُكلّمهُ. واستعرض اللطيف الكيّس **بترارك** الدوافع التي جعلته يستقر على هذا الرأي، ويجنح إلى هذا الخيار بقوله: أمضيتُ حياتي كلها باحثا عن العزلة. الشواطئ والأرياف والغابات شاهدة على ما أقول. بحثت عنها هربا من تلك النفوس الخسيسة التي ضلّت طريقها نحو عنان السماء". والدوافع نفسها استعرضها في كتابه الرائق **بصدد حياة العزلة** والذي لاشك أنه استرشد فيه بـ **زيميرمان** صاحب المؤلف الشهير **بصدد العزلة**. أما **شامفور**، فقد عبر بأسلوبه الساحر عن هذا المعنى الفرعي وغير المباشر للميولات الاجتماعية حين قال: نقول عن شخص بأنه يعيش وحيدا لأنه يكره المجتمع، وهو أشبه بالقول بأن فلانا يكره التنزّه لأنه لا يتنزه في غابة

بوندي إلا عند حلول المساء." وقال الشاعر الفارسي **سعدي** في تمجيد عزلته الاختيارية ونأيْه عن الناس: "منذ اليوم، سأنأى بنفسي عن الناس لأختلي بها، فالأمان في العزلة." واقتفى **أنجيليوس سيليوس**، صاحب الروح المسيحية المرهفة، المسلك نفسه والذي عبر عنه في لغة مترعة بمشاعر التصوف:

هايروت هو العدو، ويوسف هو العقل،
يوسف الذي يوحي إليه الرب ليُخبره بمَقْدم المخاطر.
بيت لحم هو العالم، ومصر هي العزلة،
فيا نفس، فِرِّي حتى لا تهلكي من شدّة الألم.

وإليكم الآن العبارات نفسها التي نطق بها **جيوردانو برونو** للتعبير عن الحقائق نفسها:

كل الذين ابتغوا أن يتلذذوا بحياة السماء على هذه الأرض، قالوا بصوت واحد: وها أنذا أركض وأركض حتى ابتعدت، فوجدت نفسي في أحضان الوحدة." وتحدث **سعدي** عن تجربته الشخصية في العزلة بقوله: وبعد أن تعبتُ من أصدقائي الدمشقيِّين، اختليتُ بنفسي في صحراء متاخمة للقدس مُعاشرا فيها ذوات الأربع."

باختصار، كل الذين عجنتهم يد **بروميثوس** في أفضل وأطيب طينة، تحدثوا عن الموضوع نفسه بالطريقة نفسها، ولأجل تزكية الحقائق ذاتها. فأيُّ مباهج ومسرات ستجدها هذه الأرومة في معاشرة بشر لا تربطها بهم روابط عيش مشتركة، وهم السادرون في رداءتهم وخستهم وسوقيتهم؟ يستحيل أن يرقى هؤلاء إلى منزلة تلك الأرومة، وغاية ما يستطيعونه هو أن يُنْزِلوها إلى دركهم الأسفل متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

واضح مما تقدم أن الميل إلى العزلة يُغذي في أهله إحساسا أرستقراطيا لا تُخطئه العين. فالاجتماعيون كلهم أنذال إلى الحد الذي يثيرون فيه الشفقة. بالمقابل، يتكشّف المعدن الأصيل والنبيل في الناس من خلال الأشخاص الذين لا يجدون متعة تُذكر في معاشرة الغير ومخالطة الآخرين، ويؤْثرون بدلها حياة العزلة إلى أن يقتنعوا اقتناعا راسخا، بموازاة تقدمهم في السن، باستثناء قلة قليلة منهم، بألاّ خيار إلا بين أمرين لا ثالث لهما: العزلة أو حياة السوقة. وقد عبر **أنجيليوس سيليوس** عن هذه الحقيقة المركزية، رغم كل ما عُرف عنه من محبة للغير وإحسانه إليه، حين قال: لا مندوحة عن العزلة. إنأْ بنفسك عن الخلطة، وستجدها في أبهاء صحراء ممتدة حيثما حللتَ وارتحلتَ."

فالألمعيّون، من نوابغ وصفوة، مُربّو الجنس البشري، لا يستشعرون الحاجة إلى ربط علاقات بالناس، والتواصل المستمر معهم. إذ ينحصر تواصلهم مع هؤلاء في حدود ضيقة جدا، أي في حدود تواصل المربي مع الصبيان ومشاركته العابرة لهم في ألعابهم الصاخبة كلما أجْبرَته ظروف على ذلك في أوقات محددة. فهذه الطينة من بني البشر إنما خُلقت لقيادتهم لأجل انتشالهم من غرقهم في لُجج أخطائهم، والرقي بهم نحو الحقائق النيرة وأنوار التحضر والكمال، وتخليصهم من البذاءة والسوقية. صحيح أنهم لا يجدون بُدّا من العيش معهم والاختلاط بهم، غير أن ذلك لا يجعلهم ينتمون إليهم واقعيا. فقد تفطنوا، منذ بواكير شبابهم، إلى أنهم كائنات مختلفة اختلافا نوعيا عن العوام، ولو أن اقتناعهم الراسخ بهذا الأمر وتحوله إلى حقيقة واقعة لا يتحقق إلا بمقدار تقدمهم في السن. لذلك،

تجدهم أحرص الناس على إضافة مسافة جسدية إلى المسافة الذهنية التي تفصلهم عن غيرهم، ويتحرّوْن عدم الاقتراب الشديد منهم، واحتكاكهم بهم إلا من أبان منهم عن تحرر بيِّنٍ من سلوك الغوغاء والدهماء.

يتضح مما سبق أن حب العزلة ليس شعورا فطريا بل ينمو تدريجيا مع صاحبه، وعلى نحو غير مباشر. كما أنه شعور يجد مرتعه الخصب والأثير في مجمع المُمَيَّزين الذين يقاومون في أنفسهم الميل البشري العفوي والطبيعي إلى الاجتماع، ويتصدون، بحزم، لإيحاءاته الشيطانية. وهو ما عبرت عنه، على طريقتها، هذه العبارة الآمرة:

توقفْ عن المجازفة بأحزانك الناهشة لوجودك
في وحدتك، وهو حال النسر.
فأسوأ رفقة تُشعرك في كل الأحوال،
بأنك واحدٌ من بني البشر!

إن العزلة هي نصيب الصفوة والألمعين، وقد يُحزنهم ذلك بين الفينة والأخرى. غير أنهم لو خُيِّروا بين العزلة ونقيضها لاختاروا، قطعا، حياة العزلة الأقل شرورا على هذه الأرض. وكلما تقدّم بهم العمر إلا وتحمّلوا العزلة طوعا وعن طيب خاطر، وبلا شكوى تُذكر. وما أن يُشارفوا الستين حتى تغدو، في عرفهم، هي الحياة الطبيعية، بل والمطابقة للجبلّة البشرية. ففي هذه المرحلة العمرية، تخفّ حدة الدوافع البشرية نحو الاجتماع والمخالطة من قبيل الدافع إلى حب النسوان وممارسة الجنس ويتراجع عنفوانها. بل إن همود الدافع الجنسي عند الشيخ يمدُّه بقدرة هائلة على الاكتفاء بالذات والقناعة بالقليل إلى أن تختفي الغريزة الجنسية نهائيا من انشغالاته.

ففي هذه الفترة، يكون الشيخ قد خبر آلاف الإحباطات وخيبات الأمل والحماقات، كما أن أنشطته العملية تتوقف، وما عاد ينتظر أو يرجو شيئا من أحد. لا خطط لديه ولا مشاريع، وجيله بات في حكم العدم، والأغراب يحيطون به من كل جانب، فيغدو عمليا في عداد المحكوم عليهم بالوحدة. يتسارع الزمن أمام ناظريه فيسعى جاهدا إلى استثماره في الاهتمامات الفكرية والعقلية. فإن حافظ على قدراته العقلية، سهُلت عليه تخصصات دراسية يكون قادرا على إغنائها بمعارفه الثرة التي راكمها، والتجارب التي اكتسبها، والتدبر العميق في الأفكار والأشياء التي مارسها، فضلا عن قدرته على تسخير طاقته العقلية. إن الشيخ، وهو في أرذل العمر، ينظر إلى أمور هذه الحياة بأقصى درجات الوضوح بعد أن كانت نظرته ضبابية ومشوّشة. وهذا يُمكّنه من الوصول إلى نتائج وخلاصات، كما أنه يستشعر تفوقه بكل كيانه ووجدانه. فبعد تجاربه الطويلة، ما عاد يرجو شيئا من الآخرين لأنه لا يعِدهم، وهو في ذلك العمر، بشيء يُرضي غرورهم أو يُشبع نزواتهم. عموما، لن يجد الباحث في الطباع الإنسانية إلا نُسخا رديئة وباهتة تستنسخ بعضها إلى ما لانهاية. ومن الأفضل تجنُّب حتى الاقتراب منها إلا عند الاقتضاء وفيما ندر. ولو تيسر ذلك، فسيكون هبة ما بعدها هبة. في أرذل العمر، يكون الإنسان قد تحرر من الأوهام التي تلهث العامة وراءها بلا كلل ولا ملل. وفي هذا العمر أيضا، تتكشّف، بسهولة، حقيقة الناس ومعدنهم وقدْرهم. وفي هذا العمر أيضا، قلّما تستبد به الحاجة إلى الاختلاط بالناس والدخول معهم في علاقات حميمة ووثيقة، وإن كانت العزلة صديقته المُفضّلة منذ شبابه فسيشتد شغفه بها وباكتفائه بذاته حتى

تغدو طبيعته الثانية، كما سيغدو شغفه بها الذي تحصّله، حتى ذلك الحين، من مقاومته لغريزة الاجتماع، ميلا طبيعيا، عفويا وبسيطا. إن كل الأشخاص المتفوقين بطاقتهم العقلية وتميّزهم وعدم تطابقهم الكلي مع غيرهم يجدون عزاءهم الكبير بالعزلة في شيخوختهم، بعد أن تشكّوا منها مرارا في شبابهم.

وهذا الامتياز الفعلي، الذي هو ثمرة التقدم في السن، لا يكون إلا من نصيب ذوي القدرات الذهنية الرفيعة. فهو من نصيب الألمعيين والنوابغ، وبدرجات أقل من نصيب آخرين دونهم مرتبة. فذوو الطبائع الفقيرة والفارغة والأكثر ميلا إلى الغوغائية هم اجتماعيون أكثر من غيرهم خلال فترة الشيخوخة، كما كانوا كذلك في شبابهم. لذلك يغدون عالة على مجتمعاتهم التي ما عادت تربطهم بها قواسم مشتركة في هذه الفترة من عمرهم. وما عليها إلا أن تتحملهم على مضض، وتتسامح معهم بالكاد. وبشتى الطرق، تُعبِّر لهم عن استغنائها عنهم.

ثمة أيضا بُعْدٌ غائي في هذه العلاقة العكسية بين السنّ ونسبة الميل الاجتماعي. فالإنسان في فترة شبابه يندفع في كل الاتجاهات لأجل التعلم واكتساب الخبْرات. لكن سرعان ما تُلقّنه الحياة دروسا مماثلة لتلك التي سبق أن لقنتها لأسلافه الذين ذهبوا بعيدا في الاختلاط بالبشر ومعرفة حقيقتهم العميقة. إن المجتمع هو، في واقع الأمر، بيتٌ كبير يتلقى فيه الناس تربية طبيعية هي على النقيض تماما من التربية الاصطناعية التي تمدُّهم بها الكتب والمدارس والمؤسسات المُنزاحة عن الطبيعة وعفويّتها. ولهذا، فمن المفيد جدا للشبان أن يحتكوا بالمجتمع، بصفته "مؤسسة" تربوية طبيعية، ليزودهم بحقائق عميقة عن الناس والحياة.

وبما أنه لا مزايا بلا مساوئ كما قال **هوراس**، ولا بد لزهرة اللوطس من ساق تقف عليها على حد تعبير مثل هندي، فإن العزلة لا تخلو كذلك من سلبيات طفيفة جدا إذا ما قورنت بمحاسنها وإيجابياتها الوفيرة. كما تتخللها إزعاجات صغيرة جدا قياسا على مثيلاتها في حال الاختلاط بالناس والاحتكاك بهم. والبون الشاسع بين هذين النوعين من السلبيات هو الذي يُمَكِّنُ المميّزين والألمعيين من الاستغناء، بسهولة وعن طيب خاطر، عن كثرة العلاقات الاجتماعية. ومن جملة هذه السلبيات، سلبيةٌ لا نكاد ننتبه إليها كثيرا، وسنحاول توضيحها من خلال هذا المثال الدال: لوْ لزِم المرء غرفته لمدة طويلة جدا، فلابد أن يتأثر بأبسط انطباع خارجي، بل إن نسمة واحدة كفيلة بأن تصيبه بأذى. ولابد أن تكون له حساسية مفرطة تجاه كل الأشياء الخارجية نظرا لتعوّده الطويل على العزلة والوحدة، وأبسط الأحداث والعوارض، من قبيل كلمة عابرة أو مشهد عاد جدا، من شأنهما أن يُؤثّرا فيه أشد تأثير أو يُؤْلمانه حتى. لذلك فهو على النقيض تماما من شخص هو دوما في قلب الجلبة والتدافع، والذي لا يحفل إطلاقا بهكذا صغائر وتوافه.

ومن الناس من لا يُطيق العزلة الطويلة الأمد لأنه لم يتعوّد عليها منذ يفاعته، وبات مُكرها على تحملها بعد نفوره من الناس ويأسه من أي شيء يأتي منهم. هذا الصنف من بني البشر، أنصحه، شخصيا، بأن يعيش في عزلته الخاصة حتى ولو في جمعٍ من الناس، ويختلي بنفسه ولو كان وسطهم. ولن يتأتى له ذلك إلا إذا التزم بإخفاء أفكاره العميقة وخواطره الدفينة وهو بينهم، ومنذ أول لقاء معهم. كما يتوجب عليه ألاّ يثق كثيرا في ما يقولون، وألاّ ينتظر

منهم الكثير من الناحية الفكرية والأخلاقية. على هذا النحو، سيتوطّد لا اكتراثه بآرائهم الذي هو الطرق الأمثل إلى تفهُّمهم والصفح عنهم. إن هذا الصنف من الناس يكون غائبا وشاردا فكريا وذهنيا عن الناس حتى ولو كان معهم بجسده. وهذا سيؤهله للتعامل الموضوعي معهم والنأي بنفسه عن العلاقة الحميمة بعالمهم الصغير، متَّقيا بذلك أضرارهم وأكدارهم. وستجد، أيها القارئ، وصفا آسرا لهذا العالم الصغير المحفوف بالحواجز والحُفر والمصائد والمصائب في المسرحية الهزلية **المقهى** لـ **مولاتين** من خلال شخصية وطباع **دون بيدرو**، خصوصا بالمشهدين الثاني والثالث من الفصل الأول.

في هذا المنحى، لا ضير من تشبيه الميل الإنساني إلى الاجتماع بالنار التي يحرص العاقل على أن يتدفّأ بها لا أن يحترق بلهبها، فهو لا يضع فيها يديه كما يفعل الأحمق الذي، وبعد احتراقه، يُطلق ساقيه للريح باحثا عن العزلة، علّهُ يجد فيها ملاذا وعزاء لحاله وهو يصرخ من شدة الألم.

10) إن الحسد سلوك إنساني طبيعي رغم أنه مرذول ومصدر شقاء وشقوة[4]. لذلك، يتعين على الحكيم أن يعتبره عدوا لدودا يتربص بسعادته، فيسعى بكل ما أوتي من قوة للإجهاز عليه كما لو كان شيطانا شريرا. هو ذا بالضبط ما يوصي به **سينيكا** جماعة الحكماء، وهو يقول: فلتتمتع ولتستمتع، أيها لحكيم، بما عندك ولا تُقارنْه أبدا بما عند غيرك. فمن يتعذّب بالطمع لا أمل له في السعادة. ويقول في موضع آخر: أنظر إلى من هو دونك لا إلى من هو فوقك. ومعنى ذلك وجوب أخذ العبرة ممّن يعيش في أوضاع أسوأ من أوضاعك لا العكس. إن أفضل عزاء عن مصائب نزلت بشخص هو

نظره وتمليهفي مصائب أكبر نزلت بغيره حتى ولو كان ببعض شعور من حسد. كما أن العزاء الآخر سيجده في حرصِه على معاشرة أشخاص ألّمت بهم البلايا والمصائب نفسها، وليعتبرْهُمْ أصحابه في النوائب ورفاقه في البلايا والمصائب.

هذا عن الجانب الموجب في الحسد، أما عن جانبه السالب فأستطيع القول أنه لا توجد ضغينة تفوق الحسد في شراسته. لذلك، بدَل الانشغال المتواصل بإثارة هذا الشعور، من الأجدى والأعقل الانصراف إلى تربية النفس على وفض المتع والترفع عنها، والاستغناء عن كل صنوف الشهوات التي تقود حتما إلى أوخم العواقب.

الأرستقراطيات أنواع ثلاثة هي أرستقراطية النسب والحسب، وأرستقراطية المال والثروة، وأرستقراطية الفكر. ووحدها هذه الأخيرة تمنح التميّز لصاحبها، ويعترف بها الناس لذاتها شرط تمكينها من الوقت الكافي لتبلورها. وفي هذا قال **فريديريك لوغران:** تتساوى النفوس المحظوظة في منزلتها مع منزلة الملوك. وقد خاطب بهذه الكلمات رئيسه في المراتبية العسكرية بعد أن صدمه منظر **فولتير** وهو يجلس في المائدة نفسها التي يجلس بها الملوك والأمراء، بينما الوزراء والجنيرالات يتناولون العشاء على المائدة نفسها التي يجلس فيها المُشير.

وكلُّ أرستقراطية يتربص بها جيش عرمرم من الحُسّاد الساخطين سرا على بعضهم البعض. وشغلهم الشاغل، كلما كانوا بمنأى عن أي خطر، هو التعبير بألف طريقة وطريقة لبعضهم البعض عمّا مؤدّاه: نحن سواسية، ولا فضل لأحدنا على آخر! غير أن هذا الذي يسعون، جاهدين، لإظهاره مناقض تماما لقناعتهم العميقة ولما

يُضمرونه. والمحسودون يحرصون أشد الحرص على أن تفصلهم هوة سحيقة عن هؤلاء، ويتفادون أن تربطهم بهم أبسط علاقة. وليس لهم إلا أن يتحملوا مكائد الحُسّاد حتى يُجففوا تدريجيا ينابيعها، وهو ما يؤكده الواقع بتواتر. بالمقابل، فإن المُنتمين إلى هذه الأرستقراطيات يتفاهمون جيدا، ولا يُكنون أبدا لبعضهم مشاعر حسد، لا لشيء إلا لأن كل واحد منهم واثق من جدارته، يضعها في الميزان فيجده مُعادلة لجدارة غيره.

11) يتعين التفكير مليا في أي مشروع قبل إخراجه إلى حيّز الوجود. وحتى لو افترضت أنك فحصته من جميع أوجهه، فلا تغفل عن أن المعرفة البشرية تتخللها دائما نواقص وثغرات. فقد تغفل عن تقدير العواقب حق قدرها، والإحاطة علما بكل الظروف والملابسات، فتفشل مساعيك ومشاريعك وتخيب تقديراتك وتوقعاتك. لو أنك التزمتَ بهذه التعاليم فستستحضر دائما الجوانب السلبية في أي مشروع تسعى لتحقيقه أو مبادرة تنوي القيام بها سيما ذات الصلة بالقرارات الحاسمة في مجرى حياتك. كما أن التزامك بهذه القاعدة العامة من شأنه، سيجعلك تحجم عن أي خطوة ليست ضرورية ضرورة قصوى. لكن، لو أنك اتخذت قرارا بشأن قضية أو مسألة ثم انطلقتَ لتنفيذه، أي دقت ساعة العمل لتنزيله، وما عُدتَ تنتظر سوى النتائج، فعليك أن تبارح دائرة التردد والتذبذب والتفكير المكرور والتأملات الإجترارية في مدى قدرتك على الفعل من عدمها. تجنّب أن تكون ضحية مخاوفك اللامتناهية من مخاطر محتملة. عليك أن تُفرغ تفكيرك من كل هذه الأمور المُثبّطة لتنطلق نحو الفعل، شفيعك في ذلك أنك ستفعل ما قررتَ فعله بعد تفكير طويل

ومستفيض. وهذه الفكرة العامة هي التي عبر عنها مثل إيطالي معروف يقول: إحزمْ أمرك وانطلقْ كالسهم! وإن انتهت الأمور إلى ما لا يُرضيك، وجرت الرياح بما لا تشتهي سفنك، فليكنْ عزاؤك في هذه الحقيقة الراسخة التي تؤكد، باستمرار، بأن كل الأمور البشرية يتحكم فيها نصيب معتبر من الحظ والقابلية للخطأ. وها هو **سقراط**، وهو من هو في حكمته، تمنى ذات يوم لو كان له جنّيٌّ يقود خطاه نحو القرارات الصائبة والسديدة، أو على الأقل نحو تلك التي لا تُوقِعهُ إلا في زلاّت وعثرات. أو ليس هذا دليلا كافيا على أن العقل البشري ليس ضمانة مطلقة لتجنُّب الفشل؟ لهذا السبب، لا نشاطر البابا في إحدى حِكمه التي تُحمِّل الإنسان المسؤولية الجزئية عن المصائب التي تصيبه، لا بل ومتهمٌ بها شخصيا. فهذا الإدعاء البابوي غير صحيح صحة مطلقة وغير مشروطة، حتى ولو بدا الأمر خلاف ذلك في معظم الحالات.

وقد يكون هذا الإحساس بالضلوع في المصائب الشخصية هو الذي يجعل أغلب الناس ميّالين إلى كتمان مصائبهم وشدائدهم، والمغالبة للظهور بمظهر القوي المُعافى والقاهر لنوائب الدهر. إنهم بهذا الصنيع يتهيّبون من أن ترتدّ عليهم نوائبهم ومصائبهم لتغدو صكّ اتهام لهم.

12) أما إذا وقعت الواقعة، ووقع الفأس في الرأس كما يُقال، وما عاد ممكنا الحيلولة دون ذلك، فأنصح بتجنُّب الوقوع بين مخالب الإحساس بالندم، وتصوّر أن الأمور كان من الممكن أن تأخذ مجرى آخر أو الحؤول دون وقوعها. فلو سار المعني في هذا الاتجاه الخاطئ فستزداد وطأة الآلام التي يستشعرها إلى أن تغدو عبئا لا يُطاق، وتغدو معها الحياة كلها كذلك، ويغدو المرء جلاّدا لنفسه. فليكن

الملك داوود قدوة لنا في مثل هذه الحالات، هو الذي ما انفكَّ يتضرع للإله يهوه بالصلوات والتوسلات ليُشفي غبنه المريض طيلة فترة مرضه. وما أن قُضي الأمر، وقال الموت كلمته الفصل حتى قام باستدارة رشيقة بقدمٍ واحدة وطرطق أصابع يديه، ونسي الموضوع. فلا تثريب على الشخص الذي لم تهبه الطبيعة عقلا سديدا ونفسا مطمئنة، ورقّاهما بالممارسة، عندما يعتصم بعقيدة القضاء والقدر في مثل هذه النوازل. نوازل تُلقّن لأتباع الديانات حقائق ودروسا مماثلة للتي تعترضنا جميعا في هذه الحياة، متدينين أو غير متدينين. وهذه الحقيقة يجوز اختصارها في الآتي: ما أصابكَ لم يكُنْ ليُخطئك، وما أخطأكَ لم يكنْ ليُصيبك!

غير أن العزاء الذي توفره هذه القاعدة الأخلاقية العامة للمؤمن بها، ينحصر مفعوله المباشر في المصائب التي لا قِبَلَ له بها، أما المصائب التي يتحمل مسؤوليتها، نتيجة إهمال أو طيش، فتُلزمه بالتفكير وإعادة التفكير المؤلم في مُسبباتها والسبل الكفيلة بصدها ودءها في القادم من الأيام. كما تُلزمه باستخلاص العبر والدروس منها، لا التماس الأعذار الواهية لمسؤوليته الشخصية عنها، أو حتى التهوين من أخطائه التي أدت به إلى الوقوع في براثنها. وهذا دأبُ الكثيرين وخطأهم الفادح الذي يُبرر خطأ بخطإ، وهكذا دواليك. كلا، فمن أوجب الواجبات الأخلاقية على الإنسان العاقل اعترافه بالحقيقة كما هي في واضحة النهار، وعدم تملّصه من مسؤوليته عن الأخطاء التي ارتكبها، والتجرؤ على بسطها أما ناظريه بلا تضخيم ولا تحجيم. تلك هي الضمانة الوحيدة على عدم تكراره لها. وصحيح أن التزام الشخص بهذه السيرة سيجعله، باستمرار، تحت

طائلة مشاعر السخط المؤلمة على نفسه، لكن لا مندوحة عن ذلـــك. فلا تربية بلا عقوبة كما يُقرر، بحق، مثل إغريقي معروف.

13) على الشخص أن يجعل سعادته وتعاسته بمنأى عن تقلبات الأهواء التي يجب عليه لجمها والحد من جموحها من خلال تمرينـــات متواصلة. ولأجل ذلك، يجب عليه أن يتجنّب تشييد قصور وهميــة تكون من بنات خياله، فسيُكلّفه ذلك ثمنا باهظا، أبْخَسهُ أن يباشــر هدمها وتقويضها مباشرة بعد تشييده لها في خياله وبجهـــد مضـــن ومنهك. بالمقابل، عليه أن يحذر بالغ الحذر من تصور تخوفات مـــن مصائب محتملة، ليتعامل معها كما لو كانت مصائب حقيقية قادمـــة حتما، والحال أنها لا تتعدى حدود الاحتمال والجواز. فلـــو تعامـــل معها كما هي فعلا، أي كمجرد تهيؤات مستبعدة الوقوع، فسيدرك، بعد استفاقته من الحلم/الكابوس، بأن ما تمثّلهُ وتهيأ له كحقيقة واقعة، لم يكن سوى وهم خالص، وسيغمره إحساس قوي بالارتياح لعـــدم وقوعها، ووقوع ما هو أفضل منها بكثير. ومنـــذ ذلـــك الحـــين، سيحتاط من تضخيم المخاطر المصاحبة لأحداث مستبعدة الحـــدوث حتى ولو كانت في حكم الوارد. فالتـــهيؤات البشـــرية لا تُحْســـن التلاعب بالصور التي تنطوي عليها، إذ قلّمـــا تُـــدرجها في خانـــة الاحتمالات أو المآلات السعيدة والسارة. فالمادة التي تتشكل منـــها الأحلام القاتمة ليست إلا من جنس المصائب المستبعدة الحدوث، رغم قدرتها على التهديد الفعلي والتعكير العملي لصفو سكينة الإنسان هنا والآن. وهذه الأحلام بارعة في تضخيم هـــذه المخـــاوف اللصـــيقة بمصائب افتراضية وشيكة وإلباسها الألوان الأكثـــر إثـــارة للرعـــب والفزع. وما أن يستفيق المسكين من كوابيسها حتى يغدو عاجزا عن

حلحلتها خلافا للأحلام السارة. ذلك أن هذه الأخيرة سرعان ما يتولى الواقع نفسه تكذيبها، ولا يَعدُ إلا بأمل طفيف في إمكان تحققها على الأرض. أما عندما يكون الشخص فريسة لأفكار سوداء وخواطر قاتمة، فإنه يدأب على التقريب آليا بين صور كثيرة ومتزاحمة فيمحو البون الفاصل بينها ظنا منه أن حدوثها أمر لا راد له، وهو ما يجعله لقمة سائغة لقلق دائم. لهذا، على المرء أن يتحرّى جيدا كل ما من شأنه أن يؤثر على سعادته أو تعاسته، ولا يُجيز منه إلا ما استساغه العقل ورجحه الحكم السديد. لهذا الغرض، يجب التفكير في **كل ما من شأنه** هذا بتجرد كامل وروية وهدوء، والاسترشاد في معرفته بمقولات ذهنية مجردة واستبعاد الخيال كليا من هذه العملية لعجزه عن الحكم السديد والتقدير الوجيه. فغاية ما يستطيعه هو إنتاج صور مشوشّة للنفس ومُكدّرة لصفوها على نحو مجاني ومؤلم في الأغلب الأعم. وأنصح بالعمل بهذه القاعدة العامة كلما أرخى الليل سدوله. فالظلام يقذف الخوف في النفوس البشرية حتى أنها لا تكاد ترى في كل مكان إلا وجوها مُرعبة، مع ما يُصاحب ذلك من تشوّش ذهني الذي يقود إلى المآل نفسه. إن اللايقين يُولّد في النفس إحساسا بانعدام الأمان، باللاّ أمن. فلا غرابة إن تلوّنت الأفكار والتأملات، خلال الليل، سيما ذات الصلة بالمصالح الخاصة، بقتامته وظُلمته، حتى أنها تغدو من شدة تفزيعها أقرب إلى الفزّاعة منها إلى تأملات وخواطر. إن النفس تغدو مُنهكة أثناء الليل، ويصيب التشوش قدرتها على إصدار الأحكام، كما أن ملكة التفكير تنكمش إلى أن تكون عاجزة كلية عن تناول الموضوعات المعروضة عليها بما يكفي من عمق. يقع هذا للشخص خصوصا في ظلمة الليل عندما

يستلقي على سريره، ويكون في وضع من الاسترخاء الكامــل. وفي الأثناء، تتراخى أيضا قدرته على إصدار أحكام ســديدة، هــذا في الوقت الذي لازال فيه الخيال محتفظا بكامل نشاطه وحيويته. إن كل ما يحدث ليلا يتلون بقتامته وحلكته حتى أن الخواطر التي تتداعى فيه تتبدى في هيئة موضوعات مشوشه ومشوهة كتلك التي تتــراءى في عالم الكوابيس، تكون مظلمة ومفزعة سيما ذات الصــلة بــالأمور الخاصة. وما أن تشرق أنوار الصباح حتى تتوارى هذه الفزّاعات كما تتوارى الأحلام. وهذه الحقيقة نفسها هي التي يُعبر عنها مثل إسباني مأثور: الليل مُلوَّن والنهار أبيض. فما أن يحل المساء، وتُشعل الشمعة الأولى حتى تبدأ قدرة عقلك في التراجع، وكذلك قدرة العين علــى الإبصار والتمييز. لذلك، لا أنصح بــالتفكير في الأمــور الجــادة، خصوصا المُزعجة، ليلا. ذلك أن الصباح الباكر هو الوقــت المثــالي لممارسة التفكير الجاد والمعمق، بل وكل أنــواع النشــاط الــذهني والبدني. إن الصباح الباكر هو شباب اليوم، كل شيء فيه منشــرح، طري ومُيسر، فيه يشعر الإنسان بأنه بكامل قواه وبامتلاكه لقدراتــه كاملة غير منقوصة. فحذار، حذار من التفريط فيــه وإضــاعته في التوافه. إنه نسغ الحياة، وبالتالي فهو مقدس. أم المساء، فهو شيخوخة اليوم، فيه يكون الإنسان منهك القوى وميّالا إلى الثرثرة والطــيش. فكل يوم هو حياة صغيرة، وكل استيقاظ وشروق شمسٍ هــو ولادة صغيرة، وكل صبيحة طريّة هي شباب يفاعة وشباب، وكل غروب وحلول ليل، إيذانا بميقات النوم، هو موت صغيرة.

عموما، فالحالة الصحية والنــوم والطعــام ودرجــة الحــرارة والأحوال الجوية، وكذلك الوسط وكل المعطيات الخارجية، هي من

الأمور التي تؤثر تأثيرا نافذا على الحالة العامة وعلى جهوزية الإنسان مثلما تؤثر عليه أفكاره وخواطره. لذلك، فطريقة تعامله مع الأشياء، وتناوله للموضوعات، وكذا استعداده من عدمه للقيام بأفعال أو نشاطات، كلها أمور مشروطة بعاملي الزمان والمكان. وهذا ما حذا بالشاعر **غوته** إلى القول: لا تُفوِّتْ فرصة أنت فيها بأحسن حال، وبكامل الجهوزية لأنها نادرة الحدوث.

فالتصورات الموضوعية والأفكار الأصيلة لا تأتينا، فقط، متى أردنا ورغبنا، بل متى توافرت شروطها. والتفكير المعمق في مسألة شخصية لا تتوافر شروطه في أوقات محددة سلفا، أو في لحظات نريدها ونتحكم فيها، بل لهكذا تفكير أوقاته الخاصة التي ينساب فيها خيط الأفكار بسلاسة، وليس لنا بعد ذلك إلا أن نقتفي أثره، ونلاحق مسالكه ومساربه.

وحتى يتحكم المرء في غلواء نزواته وجموح أهواءه، وهو أمر نوصي به، يتوجب عليه أساسا منعها من إثارة واستعادة شريط أخطاءه ومثالبه، وكذا خساراته والإهانات والإذلالات التي تعرض لها، وحالات النكد التي عاشها. ذلك أن اجترارها من شأنه أن يُوقظ فيه مشاعر السخط والغضب والندم والغيظ الملازمة لمثل هذه التجارب، بعد أن هدأت لمدة طويلة، فتُدنّس بذلك روحه وتعكر صفو نفسه. فكما أننا نجد في كل مدينة، بحسب مماثلة جميلة للأفلاطوني المُحدث **بروكلوس**، نبلاء ورعاعا، كذلك نجد في الإنسان، حتى ولو كان من أنبل بني جنسه، استعدادا كاملا للنبل ولاقتراف أكثر الأفعال خسة وحطة وبهيمية. وهذه "الدهماء" الساكنة في شخص النبيل والمميز، والراقدة بين جنبيه، عليه أن

يتجنب إثارتها وتهييجها، وأن يَحُولَ دون أن تُطلّ من نوافذ شخصه لبشاعة منظرها وقبح طالعها. إن المنتجات أو الإفرازات الطبيعية للنزوة والهوى يقوم الديماغوجيون مقامها وسط الدهماء. فلو انشغل النبيل والمُميّز بكل المعاكسات التي تأتيه من الأشياء والناس، وبات يجترها ويُضخّمها ويُلوِّنها بشتى الألوان، فسيُحوّلها بنفسه إلى غول مفزع يسكنه ويجعله يفقد صوابه، ويخرج عن طوره في كل وقت وحين. والمفروض هو أن يتعامل على نحو عاد وهادئ، حد البرود، مع كل ما يزعج أو يشكل مصدر إزعاج لكي يُقلّص، إلى حدودها الدنيا، المعاناة التي تسببها والعذابات التي تجلبها.

وكما أن الأشياء الصغيرة، عندما تكون قريبة جدا، تُقلّص وتحدّ من مجال الرؤية، وتُخفي العالم عن الإنسان. كذلك الناس والأشياء المحيطة به والأقرب إليه، فقد تتحول إلى شغله الشاغل رغم تفاهتها البيّنة وعدم جدارتها بأي اهتمام فتحول بينه والاهتمام بالأهم، أي بالأفكار والخواطر والقضايا الجوهرية. لذلك، لا مناص من وقوفه، بحزم، في وجه هذه الميولات التافهة والانشغالات الصغيرة.

14) قد يقول المرء لنفسه، تلقائيا، عندما يقع بصره على ما لا يملكه: يا ليتني، أملك: هذا! والحال أن هذه الطريقة في التعبير بالذات هي المسؤولة عن تحويل حرمانه إلى شيء فعلي ومحسوس. إذ كان يجب عليه أن يخاطب نفسه، دراء لهذا الإحساس، كالآتي: وماذا لو لم أكن أملك هذا؟! معنى ذلك أنه يتوجب على الإنسان أن يتمرّن على تخيّل افتقاده لخيرات ونِعَم هي بحوزته الآن، وتشمل الثروة والأصدقاء والخليلة والزوجة والأطفال والحصان والكلب. فشرط إدراك القيمة الحق للخيرات والنعم هو افتقادها. وأولى الثمرات

اليانعة لهذا التمرين الصبور هي أن الإنسان لن يطير من فرط السعادة عند امتلاكه لخيرات ورفوله في نعم، سعادة تفوق تلك التي كان فيها قبل أن تقع بين يديه، كما أنه سيضاعف الحيطة والحذر حتى لا يفقدها بعد أن كانت بحوزته. ومن وسائل هذه الحيطة عدم مخاطرته بممتلكاته، وتجنُّب إغضاب أصدقائه، والوفاء لزوجته، والاعتناء بصحة عياله وما إلى ذلك. وقد تجد الناس منهمكين في طلاء الحاضر الكئيب بألوان بهيجة تسرّ الناظرين، فينساقون وراء وهم حظوظ كثيرة قادمة وآمال كبيرة كاذبة سرعان ما تنقشع سحابتها لتُفسح المجال للإحباطات المتتالية بعد أن تكسرت، كلها، على صخرة الواقع العنيد. لذلك، ننصح المُتعظ بالتفكير لا في المآلات السعيدة للأمور، بل في مآلاتها الحزينة، لا في عواقبها المتفائلة، بل في عواقبها المتشائمة والسيئة حتى يكون مستعدا لها، ويتعبّأ للحؤول دون وقوعها، بل أن تحدث مفاجآت سارة بدلها بفضل يقظته وتأهبه للتصدي للعواقب السيئة حال حدوثها. أفلا ينشرح المرء، غاية الانشراح، وتغمره البهجة الهادرة فور خروجه من حالة من حالات الوجد؟ لذلك، من المفيد جدا له أن يتوقع باستمرار أن تصيبه مصائب عظيمة بين الفينة والأخرى، فإن نزلت عليه مصائب أقل خطورة مما تصوره تقبّلها بصدر رحب وبلا تشكٍّ، إن كان هذا هو قرار القدر وكان ذلك هو نصيبه الذي لن يُخطئه. سيجد عزاء كبيرا في هذه الطريقة التي استبعد بها مصائب كبرى متخيلة لقاء أخرى أقل خطورة وأخف وقعا وأرحم أثرا. هذا مع العلم بأن الحكمة وعين العقل تُوجب عليه أن يدرء، بكل الوسائل، حتى هذه المصائب الخفيفة من خلال حرصه الشديد على تفادي مسبباتها ومسالكها.

15) تقع الأحداث التي تعني الإنسان، وتتقاطع بلا نظام ظاهر يجمعها ولا علاقات متبادلة تربطها، بل تبدو في تعارض كامل وتقابل لافت، لا يجمعها رابط إلا رابط اتجاهها نحوه واستهدافها له. والمفروض أن يترتب عن ذلك أن تكون الخواطر وأشكال الاعتناء لها منفصلة بدورها عن بعضها البعض حتى تتطابق مع ملابساتها ودوافعها الخاصة. ومن النتائج الملازمة لهذا الإجراء وجوب انتهاء المرء من مسألة شرع فيها قبل البدء في أخرى. ولتحقيق ذلك، يجب عليه أن يطرح جانبا كل المسائل الأخرى ليتأتى له التفاعل الكامل مع ما هو بصدد إنجازه في الوقت المحدد، ولا ينشغل بسواه. عليه، كلما فتح خانة من خانات اهتماماته أن يُغلق سواها ليتفرغ لها بمفردها. ولاشك أنه سيجني من ذلك عد إفساده لمتعه الصغيرة التي تأتيه صاغرة، وعدم التشويش على فترات الراحة وتكدير صفوها بهموم وشجون دخيلة. كما سيجني من ذلك طرد الأفكار المتزاحمة من رأسه، وتجنّب انشغاله بقضايا أقل أهمية حين انشغاله بالقضايا الأهم. فالشخص الذي يأنس في نفسه القدرة على التفكير في القضايا النبيلة والراقية، عليه ألاّ تستغرقه الأمور الشخصية والتافهة كي لا يُغلق دونه المنافذ المؤدية إلى عالم التأملات الرفيعة. وذاك دليل منه على قدرته على التضحية بأمور الحياة العادية من **أجل أن يحيا حياة حقيقية** على حد تعبير مثل لاتيني. ولكي يُعوّد نفسه وعقله على هذه التمارين، يتوجب عليه، أول ما يتوجب، قهر شهواته وكبح لجام نزواته، متوسلا إلى ذلك بشتى أنواع الإكراه والقسر الذي تمارسه الموضوعات الخارجية على الناس كافة، ولا يملكون إزاءها إلا الإذعان والمجاراة كما تذعن لها الموجودات الأخرى

وتُجاريها. ولو التزم بهذه التعاليم في حياته لاستمد منها قوة لا تُقهر. فأي جهد على ذاته، مهما صغُر، تكون غايته كبحها، لابد أن يُجنِّبه اكراهات وضغوطا خارجية جمة. إذ لاشيء قادر على تجْنيب المرء ضغط الاكراهات الخارجية من كبحه لجماح نفسه والمواظبة على ذلك. وهذا هو جوهر ما عبر عنه **سينيكا** في حكمة مقتضبة: إن شئتَ أن يذعن العالم كله لمشيئتك، فاذْعَنْ لمشيئة العقل. فضلا عن أن الإنسان لديه قابلية لكبح شهواته لأجل استعمالها في الحالات القصوى. وقد يتراخى في ذلك لما يستغرقه انشغال حساس جدا، ذلك أن الاكراهات الخارجية لا تكاد تهدأ، ولا تعرف مراعاة ولا شفقة. لذلك، فالحكمة تقضي بوجوب التأهب الدائم لمواجهتها، وهو ما لا يتحقق إلا إذا واظب الإنسان على كبح جماح شهواته.

16) أنصح الإنسان أيضا بالحد من رغائبه، ومن غلو شهوات نفسه ومطامعها ومطامحها، والتحكم في غضبه، فضلا عن استحضاره الدائم لحقيقة مؤداها أنه، مهما فعل فلن يحقق من رغائبه إلا القليل، بينما المصائب والشرور في هذه الحياة لا تُعدّ ولا تحصى، وهي من نصيب الجميع. وفي كلمة، على الإنسان أن يقتنع اقتناعا راسخا بهذه الحقيقة ويمارسها على الأرض: ازْهد في الأشياء لتغلبها. هي ذي القاعدة الذهبية التي لن تنفعكَ ثروة ولا سلطة إن فرّطت فيها، وإن فرّطت فيها فستقذف بنفسك في أتون حياة من أبئس ما تكون. وقد قال **هوراس** في هذا الشأن:

جالسْ العلماء

دبِّر حياتك برفق،

وإن لم تفعل،

نغّصتها الشهوات،
وقضت عليك بالعوز المقيم.
عش حياة، لا خوف فيها ولا رجاء،
خوفٌ من أشياء
ورجاء في أشياء،
قليلة نفع، بل عديمتُه.

17) صدق **أرسطو** عندما قال: الحياة هي الحركة. فكما أن الحياة العضوية للإنسان مشروطة بالحركة الدائبة، كذلك حياته العقلية مشروطة بتشغيلها باهتمامات فكرية وذهنية. وللتأكد من هذه الحقيقة، يكفي النظر في حالات المس التي تنتاب من لا شغل لهم ولا مشغلة، من عموم البطّالين والفارغة أوقاهم من كل اهتمام أو انشغال لتراهم، وفي محاولات يائسة لملئ أوقاهم، ينقرون أي شيء يقع تحت أصابعهم وما شابه. فالحركة هي المبدأ الناظم لهذه الحياة، وما أن يسود السكون التام في مكان حتى يتضايق منه الناس لِما يبثه حواليه من ملل قاتل. ولن يُفلح الإنسان في إشباع حاجته الطبيعية إلى الحركة، على نحو منتظم ومثمر، إلا بتنظيمه لطرق اشتغالها وسبل تصريفها. فالنشاط والحركة شرط تحقق السعادة. لذلك، لابد للإنسان من التحرك ومزاولة نشاط محدد ما استطاع إلى ذلك سبيلا، أو الإنكباب على تعلم أشياء. إن قواه لا تتوقف عن دعوته إلى تشغيلها ليأمل في تحقق نتائج تعود عليه بالخير والنفع. وفرحته الكبرى تتحقق من خلال إشباع هذه الحاجة العميقة سواء من خلال صنعه لسلّة أو تأليفه لكتاب. وتتحقق سعادته القصوى والمباشرة لما يرى عمله ينمو ويكبر، يوما بعد يوم، بفضل المجهود المتواصل ليديه

إلى أن يكتمل. وكل ما تصنعه يده، من أثــر فــني أو كتابــي أو يدوي، يغمره بهذا الإحساس العميق بالإشباع والرضا. وكلما كانت طبيعة عمله أكثر نبلا، كلما زاد إحساسه بالرضا عن نفسه، وبالمتعة المتولّدة عن ذلك. وأسعد الناس هم النوابغ القادرون علــى إنتــاج أعمال كبيرة وعظيمة تتطلب نفَسا طويلا ورجاحة عقل. فنجاحهم في ذلك يعطي حياتهم أهمية من نوع خاص، ويلقّحها بنكهة مميزة لا نجد لها مثيلا في حيوات غيرهم التي تظهر، بجانبها، بلا طعم ولا قيمة تُذكر. فالحياة عند النوابغ لها أهمية تفوق بكــثير جانبــها المــادي الصرف، تتجاوز الكمّ إلى الكيف. وهو ما يتجلى من خلال سعيهم إلى ملئها بأعمالهم وعصارة أفكارهم، كلما فرغوا من مهامهم اليومية البسيطة وتحصّلوا على هدنة مؤقتة. إن عقلهم مزدوج: نصفٌ فيــه يتفرغ لمشاغل الحياة العادية والمشتركة بين عامة الناس (موضــوعات الإرادة)، والنصف الآخر يتفرغ للتفكير وإنتــاج مواضــيع ذهنيــة بمنهجية موضوعية ومتجردة. إنهم يحيون حياتين في حيــاة واحــدة: حياة المُمثّلين وحياة المتفرّجين، بينما غيرهم ممثّلون لا غير. في مطلق الأحوال، يتعين على كل واحد أن ينشغل بما يتناسب مــع قدراتــه العقلية ومهاراته العملية.

يتضح التأثير السلبــي لغياب أنشطة منتظمة في حياة الإنسان، على سبيل المثال لا الحصر، في رحلاته الطويلة. فمن خلالها، يتملّكه إحساس قاهر، بين الفينة والأخرى، بالتعاسة. إحساس نــاتج عــن عطالته الداخلية، فيغدو كمنْ انتُزعتْ منه ماهيته انتزاعــا. فالكــدّ والكدح والتعب، ومواجهة العراقيل، كلها حاجات بشرية أساســية مماثلة لحاجة الخُلد للحُفر. أما الجمود والهمود فلن يُطيقه إنسان ولــو

أشبع كل حاجاته ولبّى كل طلباته. يجد الإنسان متعته القصوى في انتصاره على العراقيل المادية والمعنوية ذات الصلة بالممارسة والتمرينات، أو المرتبطة بالبحث والدراسة. فالكفاح ونشوة الانتصار على العقبات والتحديات هما اللذان يرفدانه بإحساس غامر بالسعادة. إن لم تُسعفه الفرص لتحقيقها، فسيسعى بنفسه إلى خلق شروط حدوثها بحسب شخصيته وطبيعته. فمن الناس من سيقضي وقته في لعب كرة القرن(*) ومطاردها، ومنهم من سينجر وراء المشاجرات والدسائس ودناءات أخرى من هذا القبيل. كلٌّ ينصرف إلى "انشغالاته" التي يعتقد بأنه يُحسنها، يحذوه الأمل في وضع حد للاحركة والجمود الذي لا يُطيقه. وكم كان المثل اللاتيني المأثور محقا عندما قال: صعبٌ على من لا ينشغل بشيء أن يهدأ!

18) يجب أن تكون المفاهيم الدقيقة والواضحة مرشد الإنسان في خطواته كلها وأعماله جميعها، ويستبعد منها كليا التخيلات والتهيؤات والنزوات، عكس ما درج عليه الكثير من الناس. ولا تعود الكلمة الأخيرة والكلام الفصل في كل أموره إلى تصورات واضحة، جلية وأحكام رصينة لا أثر فيها للتخيلات والاستيهامات. في إحدى روايات فولتير أو ديدرو، لم أعد أذكر، تتبدى الفضيلة بتواتر، في نظر البطل، في هيئة **هرقل** يافع في مفترق طرق الحياة، يُمسك مِسْعطا بيُمْناه ويسعط بيُسراه، فيعطي انطباعا عاما بكونه يعظ ويُؤنّب. أما الرذيلة فتقمّصت شخص وصيفة والدته. ففي غضون

(*) تسمى بالفرنسية Bibloquet، وهي كرة مثقوبة يصلها حبل بعصا دقيقة الرأس له شكل قرن. ويُطلب من لاعبها أن يشد الحبل إلى أن ينطبق ثقب الكرة مع رأس العصا(المنهل عربي/فرنسي).

سنوات الشباب، تتراءى السعادة في هيئة صور متزاحمة تحوم حول الشاب إلى نهاية حياته إن لم تتوقف في منتصف عمره. وهذه الصور ليست سوى فقاعات فاتنة تُراوده عن نفسه، وما أن يُدركها حتى يبطل سحرها ويخفت ألقها الكاذب كالسراب. والتجربة لا تني تعلّمه أن ما تعده به لا تفي به أبدا. وتندرج، ضمن هذه الصور الخادعة المُضللة، مظاهر تترى في حياته اليومية والعائلية والاجتماعية، وما له صلة بالمسكن والمحيط والعلامات التشريفية وشهادات التقدير والتوقير والاستيهامات العشقية وما إلى ذلك. فلكل أحمق صوجانه، كما يقول مثل فرنسي. وبديهي أن تكون الأمور على هذا النحو. ذلك أن ما يُبصره الشاب من خلال هذه الصور هو **المباشر** الذي يمارس تأثيره على الإرادة لا على المفاهيم المتمايزة والدقيقة. فالمفهوم له علاقة بالفكر المجرد الذي يُمكّن الإنسان من إدراك العام دون الخاص المتضمّن للواقع. فتأثير المفهوم على الإرادة تأثير مداور وغير مباشر، غير أنه لا يُخلف وعده أبدا. وعندما يضع فيه المرء ثقته كاملة، فذاك عربون سعة ثقافته ورجاحة عقله. فد يلجأ أحيانا إلى تطعيمه بشروحات مُبسّطة تستعين بالصور، إلا أن ذلك لا ينقص من قيمته وعلوّ شأنه.

19) القاعدة أعلاه تندرج ضمن حقيقة عامة تقضي بوجوب التحكم في الانطباعات وكبح جماحها المنفلت، بفعل الأثر القوي الذي يتركه الحاضر والمرئي والمباشر في الإنسان. فلو قورنت هذه الانطباعات بالمعارف الخالصة والمقولات المجردة المنبثقة عن الذهن، لبدتْ في كامل عنفوانها وقوتها، لا لجهة مضامينها المتهافتة أصلا، بل لجهة شكلها المندفع والداهم، أي لجهة بداهتها المفرطة وحضورها

المباشر والزائد. وهذا هو ما يُكسبها القدرة على اختـراق النفس البشرية، وتعكير صفوها، وزعزعة مقاصدها. فالحاضر والمرئي تحيط بهما العين دفعة واحدة، كما يمارسان على الناس تأثيرهما دفعة واحدة وبكامل قوتهما. عكس الأفكار والتحاليل العقلانية التي تتطلب ما يكفي من الوقت والهدوء لتفحصها بتريث. ولهذا السبب، يستحيل أن يستحضرها الذهن البشري على الدوام. فالأشياء المغرية والجذابة تستمر في سحر النفس البشرية حتى لو قال التفكير الرصين والرزين بوجوب تركها وهجرها والتوجس منها، لا لشيء إلا لأن الإنسان يواصل التحديق فيها. كذلك هو شأن الآراء المغرضة والأقوال الجارحة في حق إنسان. فرغم علمه المسبق بأنها عارية عن الصحة، وأنها لا تصلح إلا للمقت واللامبالاة إلا أنها تُغيظه وتكسر خاطره. وكذلك هو الأمر أيضا عندما تكون بحوزته عشر حجج دالة كلها على انتفاء حدوث خطرٍ ما، غير أنه وبمجرد ظهور بصيص له حتى تغدو هدفا سهلاً لشكوكه، ولو كان هذا البصيص لا يعدو إنذارا كاذبا. وهناك أمثلة أخرى كثيرة عن هذه المسألة. ففي كل الأوضاع والمواقف، تكون الغلبة للغباوة المركوزة في تكوين الإنسان لا للتعقل بعد والعقل الرزين والمنطق الرصين. والنساء، في الغالب، هن من يكنّ فريسة سهلة لهذه الانطباعات الأولية، كما أن قلة من الرجال هي من حبتها الطبيعة بما يكفي من رجاحة لتنجو من المتاعب والعذابات التي تُسببِّها لضحاياها. فإن استعصى أمر التحكم الكامل فيها على المرء، فما عليه إلا أن يُحيّدها، أي أن يُبطل مفعولها من خلال استحضاره لنقيضها المباشر. ومِن ذلك، مثلا، إبطاله مفعول الإساءة أو الإهانة بزيارته للناس الذي يُقدّرونه، وإبطال مفعول

الخطر الداهم بالانشغال بالوسائل الكفيلة بدرءه. فقد حكى **لايبنيتز** عن إيطالي تغلّب على فظاعات التعذيب باستحضاره الدائم لما هو أفظع منها، أي للمقصلة التي مانفك يصرخ طالبا إحضارها. ولعل هذا الإحساس هو الذي يجعل المرء يجد صعوبة بالغة في التشبث برأيه وسط حشد من الناس يُصر على رأي مخالف لرأيه ويتصرف بمقتضى ذلك، رغم علم هذا الشخص علم اليقين بأن رأيه هو الصائب ورأي الناس هو الخاطئ. كذلك هو شأن الأمير الهارب المطارَد، لا يعرف كيف سينتهي به الأمر. فما كان له، بعد أن انفضّ حوله الناس، إلا أن يتحلى بأقصى درجات اللطف مع أقرب المقربين إليه الذين لازالوا بجانبه طمعا في عدم انقلابهم عليه بدورهم.

20) بعد أن بينتُ في الفصل الثاني أن الصحة هي النعمة الكبرى، وأنها هي الشرط الأول للسعادة، سأتطرق الآن إلى جملة قواعد عامة يتعين الالتزام بها لأجل الحفاظ عليها وتمكينها من أسباب القوة والمنعة. تحتاج أعضاء البدن إلى التمارين المتواصلة على الجهد والتعب ضمانا لعافيته وقدرته على مقاومة كل ما من شأنه أن ينال من سلامته مهما كانت شراسته وقسوته. أما عندما يُصيب مكروه عضوا فيه، فالمرء مطالبٌ بإيلاء البدن كله أقصى درجات العناية، وخصوصا العضو المُصاب فيه بوهن حتى يتعافى كليا.

وإن كان الإجهاد يقوّي العضلات، فإنه يُضعف الأعصاب ويصيبها بالوهن. لذلك، على المرء تعويد عضلاته على كل أنواع التمارين المُجهِدة وتجنيب الأعصاب لها قدر الإمكان. لأجل ذلك، عليه أن يقي بصره من الأضواء القوية والوهاجة، خصوصا ذات الأشعة المنعكسة، ومن إجهاده في منتصف اليوم، أو من التحديق

مطوّلا في أشياء متناهية في الصغر. بالمثل، يجب عليه أن يُجنّب دماغه التركيز القسري والمفرط والمباغت، وأن يوفر له الراحة عند الهضم لأن قوته الحيوية تنصرف حينها إلى تكوين الأفكار، وتبذل قصارى جهدها لإعداد الكايموس والكايلوس(*) في المعدة والأمعاء، فضلا عن وجوب حرصه على أخذ قسطه من الراحة بعد بذل جهد عضلي مُضن. والأعصاب الحركية- الحسية تشتغل بالطريقة نفسها. ومثلما أن الألم الذي يستشعره الإنسان جراء إصابة عضو فيه بأذى يصدر عن مقره في الدماغ، كذلك الأيدي والأرجل لا تتحرك إلا بإيعاز من الدماغ أو جزء منه. جزءٌ يستثير أعصاب الأعضاء حتى تتحرك بإيعاز من النخاعين المستطيل والشوكي. والتعب الذي يصيب الإنسان في يديه ورجليه له مقر في دماغه. هذا ما يفسر أن الأعضاء التابعة حركيا للإرادة، أي للدماغ هي التي تكون عُرضة للتعب والإجهاد، بينما الأعضاء المتحركة حركة لاإرادية، كالقلب مثلا، تشتغل بلا توقف ولا ينال منها تعب ولا جهد. معنى ذلك أن الإنسان يتعسف على دماغه حين يريد منه القيام بجهد مزدوج: عضلي وعقلي على نحو متزامن أو متعاقب، أي بعد فاصل زمني قصير. وهذا ما يُفسر اشتداد الحيوية الفكرية في بداية قيام الإنسان بنزهة أو بالمشي لمدة قصيرة. فأجزاء الدماغ التي تقدَّم ذكرها لم ينل منها التعب بعد، كما أن الحركة العضلية الخفيفة نجحت في تسريع وتيرة التنفس، فنقلت الدم المُشبع بالأوكسجين إلى الدماغ عبر الشرايين.

(*) الكايموس: مادة غذائية مائعة يتحول إليها الطعام بفعل العُصارة المَعِدية. والكايلوس مستحلب الطعام مع المهضوم قبل امتصاصه في الأمعاء.

لكل هذه الأسباب، من حق الدماغ على الإنسان أن يُمتِّعه بما يكفي من النوم ليتمكن من شحن بطارياته. فالنوم للإنسان كالتدوير للساعة. والمفروض أن يزداد اعتناءه بدماغه كلما زاد عمله وكثُر إنتاجه. أما الإفراط في النوم فمضيعة للوقت لأنه يخسر في الامتداد ما ربحه في الكثافة والزخم (أي في الراحة الكافية)(5).

على المرء أن يُحسن استيعاب الوظيفة العضوية للدماغ والمتمثلة في **التفكير** فيُعامله كما يُعامل أي نشاط عضوي آخر عندما يناله إجهاد، ويكون بحاجة إلى الراحة. فالإجهاد مُنهك للدماغ والبصر معا، وصدق من قال: يفكر الدماغ كما تهضم المعدة. أما الطرح القائل بوجود روح أثيرية، بسيطة، منقطعة كليا للتفكير ولا ينال منها تعب ولا يهدّها نصب، تقيم في الدماغ كمكترية وزاهدة في الدنيا وما فيها، فهو الطرح نفسه الذي دفع بالكثرين إلى إجتراح مسلكيات خرقاء أنهكت قواهم العقلية وأجهزت عليها. ومن هؤلاء **فريديريك لوغران** الذي زهد في النوم قيد حياته. فمن واجب أساتذة الفلسفة التنبيه إلى خطورة هذا الوهم الذي يسحق ضحاياه سحقا. وشرط ذلك هو أن يتخلصوا، بادئ ذي بدء، من فلسفة العجائز التي تتشبث، أيما تشبث، بالتعاليم المسيحية. فالقوى الذهنية كالوظائف العضوية تماما، يتعين استعمالها الاستعمال الحسن ومراعاتها أشد المراعاة لا العمل على إنهاكها. كما يتوجب على الإنسان أن يستحضر، في كل وقت وحين، بأن كل معاناة أو اختلال أو فوضى تطال عضوا في البدن، لابد أن تطال النفس والعقل أيضا. وحتى يتشرّب هذه الحقيقة الأساسية، كفاية، أنصحه بقراءة كتاب: **فصل المقال في ما بين النفس والبدن من اتصال** لمؤلفه **كابانيس**.

لقد انتهى المسار بعلماء كبار وأساطين في شتى فروع المعرفة إلى حالة من الغباء والنكوص إلى الطفولة في أرذل العمر، بل وسقوطهم في الهوة السحيقة للجنون، لا لشيء إلا لأهم استهانوا بهذه النصيحة الذهبية ورموها وراء ظهورهم. وهو المآل نفسه الذي انتهى إليه مشاهير الشعر الإنجليزي في هذا القرن، ومنهم **والترسكوت ورد زووت وشاودي** وغيرهم كثير. فقد سقطوا في حالة من العجز والغباء لأهم استسلموا لرنين النقود التي يحصلون عليها لقاء نتاجاهم الأدبية التي يتاجرون بها، ويتخذوها مهنة. نتاجات يُنجزوها تحت الطلب ولمن يدفع أكثر. وانتهى بهم هذا الإفراط في بذل المجهود العقلي إلى حالة من الإجهاد والإنهاك لا قِبل لهم بها. وهو المآل نفسه الذي ينتظر من سلك سبيلهم واقتفى أثرهم. وواثق أن **كانط** أصابته أيضا هذه اللوثة في أواخر حياته بعد أن حقق من الشهرة ما حققه. فقد أفرط في العمل، وأجهد عقله حتى ظهرت عليه أعراض طفولة ثانية لازمته طيلة السنوات الأربع الأخيرة من حياته.

لكل شهر من أشهر السنة تأثيره الخاص والمباشر على الوضع الصحي للإنسان، سواء في شقه البدني أو النفسي والعقلي، تأثير مستقل عن الأحوال الجوية السائدة.

3- في معاملة الغير

21) يجب عليك أيضا توخي الحذر الشديد والتحلي بالحِلم كي تستطيع تحمّل معاشرة الناس، والاختلاط بهم عند الضرورة. إن الحذر سيدرأ عنك خسائر كثيرة وأضرارا جمة، بينما الحِلم سيوفّر عليك الكثير من المشاجرات والخصومات المحتملة.

فإن كان ولابد من مخالطة الناس، فاقبلهم كما عجنتهم الطبيعة وعركت طباعهم بمن فيهم الأشرار، والأكثر مدعاة للشفقة، وإثارة للغرابة، هو ذا ما يقوله عين العقل. إقبلهم كما هُمِ لأنهم لن يتغيروا أبدا مهما حاولت معهم. فقد قضى مبدأ أزلي وميتافيزيقي ثابت بأن يُراوحوا طبيعتهم الأولى ويجترّوها حتى النهاية. أكثر من ذلك، فالحكيم يجب أن يُحدّث نفسه بشأنهم من حين لآخر قائلا:

كان لابد أن يوجد أيضا هذا النوع من بني البشر!

ولو تصرف خلافا لذلك، فسيكون قد اقترف غبنا في حقهم من خلال استفزازه لكل "المختلفين" عنه. وليس له إلا أن يستعد للدخول معهم في معارك تنتهي بالحياة أو الموت! فليس بمقدور أحد أن يغير شخصيته الأصلية، أي طبعه الأخلاقي وقدراته العقلية ومزاجه وشكله الخارجي وما شابه. فإن اخترتَ الحكم عليهم أحكاما نهائية لا تراعي أحوالهم وخصوصياتهم، فقد اخترتَ طريق الاصطدام معهم، ولابد أنهم سيُحاربونك بصفتك خصما مطلقا وعدوا لدودا يغدو القضاء عليه شرطا مطلقا لإعادة الإعتبار لذواتهم. ذلك أنك رفضتَ أن تعترف لهم بالحق في الوجود إلا إذا صاروا أشخاصا آخرين، وفي ذلك تعجيز لهم. لذلك، فشرط العيش بين الناس ومخالطتهم هو الاعتراف لكل واحد منهم بحقه في الوجود، والقبول بشخصيته التي هي قسمته الطبيعية. غاية الحكيم في علاقته بالناس هي استعمالهم في حدود ما تتيحه طبيعتهم وطباعهم ومستواهم العقلي والبدني دون أن يأمل، يوما، بأنه سيغير هذه الأمور الثابتة فيهم ولا حتى إحداث تعديلات بسيطة عليها. وبالتالي، عليه أن يمتنع عن الحكم عليهم، وكيْل التهم لهم، وحملهم على التصرف

على هذا النحو أو ذاك. فصوتُ الحكمة يقول في هذا المقام على لسان العاقل:

مادمتُ عاجزا عن تغيير هذا الشخص الذي أراه أمامي، فلْأستعملْه لِما خُلق له ويصلح لفعله(6). هذه هي الدلالة العميقة للمثل القائل:

عِشْ واتركْ غيرك يعيش.

أكيد أن الأمر ليس بالهين، وأبعد ما يكون عن الإنصاف. لذلك، فأسعدُ الناس، أصلا، هو الذي لم تُجبره ظروف حياته على مخالطة بشر لا يُطاق! أما من اُجبر على ذلك، فأنصحه بالتمرّن على الجمادات، من خلال تعلُّم الصبر على معاكساتها، حتى يستطيع تحمّل هذا البشر. فالقوانين المادية والآلية التي تحكم الجمادات تجعلها دائما في وضع المُعاكس والمعرقل العنيد لأفعال الناس ومشاريعهم في عديد من المناسبات اليومية. وبعد ذلك، ليستثمرْ هذا الصبر على سلوك الجماد في علاقاته اليومية بالناس، وليُقنع نفسه بأنه يصدُر عن قوانين طبيعية أي عن نواميس في تعامله معهم، كلما اعترضوا سبيله أو عرقلوا مقاصده ومشاريعه، وأنه كما لا يستطيعون شيئا أمام هذه النواميس الجبرية كما لا يستطيعون شيئا إزاء القوانين التي تتحكم في الجمادات. إن التزم بذلك، فلن يتشكّى أبدا من أفعالهم ولن يستاء من تصرفاتهم، لأنه يعتبر ذلك سخفا وعبثا. ذلك أن الشكوى من تصرفات البشر ستغدو كالتشكي من حجرة اعترضت سبيله فوطئت عليها قدمه وطفق يدعو عليها بالويل والثبور.

22) الانسجام أو التنافر في الطباع والعقليات يَبرُزان عندما يخوض الناس في موضوعات ويتجاذبون حولها أطراف الحديث،

فيشدّان إليهما الانتباه عند أول مناسبة يلتقون فيها للتحادث. فعندما يخوض شخصان لهما طبع مختلف جذريا في حديث ما، فإن كل كلمة يقولانها حول موضوعات متباعدة ولا يجمعها رابط، لابد أن تُرضي أحدهما وتُغضب الآخر إن لم تجعله يستشيط غضبا. أما إذا تقارب طبعهما وطريقة تفكيرهما فسيتوافقان، بسرعة، في الآراء والمواقف حيال مختلف الموضوعات التي يناقشانها، وسرعان ما يتطور هذا التوافق إلى تآلف وانسجام ثم إلى تناغم فانصهار. وهذا ما يفسر الإقبال الشديد للعامة على الاختلاط فيما بينهم وتكاثر أصحابهم وخلاّهم الذين يُلقّبونهم بألقاب شتى، منها الودودون والمحبوبون والرائعون والرجال الشجعان وهلم ألقابا. والأمر خلاف ذلك تماما عند الخاصة. فبقدر تميزهم وفرادتهم بقدر نفورهم من العلاقات الاجتماعية. ويفرحون بالغ الفرح لما يكتشفون شخصا يجمعهم به قاسم مشترك واحد، على بساطته، يجدونه في طبعهم الخاص وسجيتهم وطريقة تفكيرهم. فلا يكون الواحد منا لغيره إلا ما يكون هذا الغير له. إن الألمعيين من ذوي العقول المُنْتجَبة يُحلّقون بأفكارهم وخواطرهم في الأعالي تحليق النسور ولو كانوا في كامل عزلتهم وتوحدهم. وصدق من قال: **الشبيه يحنُّ إلى الشبيه**. فالمتشابهون سرعان ما يتلاقون ويجتمعون ويلتئمون ويتآلفون وينسجمون بفعل جاذبية مغناطيسية بشرية. تتبادل الأرواح الشقيقة التحايا ولو عن بعد. ويصدق هذا، بخاصة، على الذين يتقاسمون أحاسيس هابطة وخواطر زهيدة وما يُشبه الأفكار. وهؤلاء هم السواد الأعظم من الناس الذين يتسمّون بأسماء مختلفة كالجماعة والجمهور والجمهرة والجحفل... أما النبلاء فيُعرّفون أنفسهم بالصفات المائزة لذوي

الطباع النادرة. فلا غرابة إن تعارف جاهلان خبيثان في رمشة عين داخل جماعة كبيرة من الناس إلتئمت للتداول في أمر، يتعرّفان على بعضهما كما لو كانا يحملان شارة واحدة. فيتقرّب أحدهما للآخر ثم يستقر رأيهما على تنفيذ خطة مبيّتة لا تخرج عن أحد أمرين: اقتراف شطط أو ارتكاب خيانة.

ولنفرض الآن وجود جماعة من الأذكياء والنبهاء ومرهفي الإحساس والروح اندسَّ فيها غبيّان، فكن على يقين أن هذين الغبيّين سيتقرّبان إلى بعضهما، وستغمرهما سعادة لا توصف لكونهما التقيا وتعارفا ووجدا في بعضهما مثال الإنسان ذي العقل الراجح! ومن اللافت، فعلا، أن نلاحظ كيف يتعرّف شخصان من مستوى عقلي وأخلاقي على بعضهما من أول نظرة، يتبادلان التحية ويميل أحدهما للآخر، يغمرهما الود والسرور، ولا يتوقفان عن البحث عن بعضهما كما لو كانت تجمعهما معرفة قديمة جدا. الأمر مدهش إلى الحد الذي يجعلنا نظن بأن الصداقة كانت تجمعهما في حياة سابقة، مثلما يعتقد البوذيون بتناسخ الأرواح. غير أنه حتى في الحالات التي يتحقق فيها تناغم كبير بين شخصين، فإن ذلك لا يحول دون إمكان تباعدهما الذي يخلق تنافرا وجفاء عابرا بينهما. وقد يرجع ذلك إلى تبدّل طارئ في أوضاعهما ذات الصلة بانشغالاتهما أو وسطهما أو وضعهما الصحي أو اهتماماتهما الفكرية وما شابه. إن هذه المتغيرات هي المسؤولة عن التنافرات الحادثة بين الأشخاص مهما كانت درجة اتفاقهم ومدى انسجامهم. ومن شيم أهل الثقافة الرفيعة العمل، بلا هوادة، على جبْر الخواطر وإصلاح ذات البين بعد كل تنافر أو جفاء عارض بين أشخاص. ويتحقق تناظر عجيب في المشاعر بين جماعة

من الناس، كما ينخرطون في تفاعلات نشطة مُشْبِعة لحاجات داخلية فيهم، كلما أثر فيهم معطى خارجي، أو تَهدّدهم خطر مشترك، أو جمعهم رجاء أو حين يتلقون نبأ جديدا، أو يشاهدون مشهدا عجيبا أو فرجة آسرة، أو يسمعون معزوفة وغيرها من الأشياء المماثلة. كل هذه البواعث تنجح في تعليق وتحييد المصالح الشخصية والحسابات الفردية الضيقة، وتُطلق جوا من الاتفاق العام بين العقول والتواطؤ بين النفوس. أما عندما تغيب هذه البواعث الخارجية فإن الناس يبتكرون بواعث ذاتية. لذلك فإنهم يتجهون، أول ما يتجهون، إلى الشراب بحثا عن خلق حالة من الانصهار الجماعي بينهم، وإحساس بالرفقة غامر. والشاي والقهوة من ضمن هذه البواعث أو المثيرات التي يستعينون بها للغرض نفسه.

والتباينات في الآراء والطباع بين الناس سرعان ما تتلاشى عندما يفترقون ويتباعدون. عندئذ، يتصورون أنفسهم كأشخاص مُؤمثلين من خلال ذكريات بعيدة تُقدّم عنهم صورا مغايرة لحقيقتهم لأنها تحررت من ضغط التأثير المشوش والعارض لعلاقة القرب والاحتكاك. تشتغل الذاكرة الإنسانية على غرار عدسة لامّة وجامعة داخل غرفة مظلمة، إذ تختزل الأبعاد الكثيرة لتعطينا صورة عامة أجمل بكثير من الأصل. فليعلم كل واحد أن غيابه عن العين لمدد متفاوتة يهبه، نسبيا، هذا الامتياز، امتياز النظر إليه عن بعد والذي يحتفظ بمزاياه ومحاسنه ويُسقط نقائصه وعيوبه. وتتطلب الذكرى المؤمثلة وقتا طويلا لكي تكتمل معالمها وتتحدد قسماتها ولو كانت تشتغل مباشرة بعد أن تختزن الصور الأولى للموضوع المُشاهَد. لذلك، من الحكمة أن نغيب عن الأصدقاء والخلان لمدد طويلة نسبيا لكي تختمر

وتتبلور الذكرى التي تركناها فيهم وتتضح معالمها وملامحها العامة.

23) الناس لا يحتملون النظر إلى من هو فوقهم وإلى كل ما يتجاوزهم، وبالتالي فإنه عاجزون عن أن يكتشفوا في غيرهم أكثر مما هو في واقع الحال وعالم الأعيان. فالمرء لا يُدرك غيره إدراك فهم واستيعاب إلا في حدود ما تسمح به طاقته العقلية ومحدودية ذكاءه. فلو كان من ذوي الطاقة العقلية المتدنية فإن كل المزايا العقلية، مهما سمت وعظُمت، لن تُحرك فيه ساكنا ولن تترك فيه أثرا. لن يتبين في النابغة والفذ إلا واحدا من العامة وربما أحطّهم قدرا، وسيختزل كل خصاله في نواقص وفي عيوب مزاجية متماهية مع ما نجده عند العامة. هي ذي الصورة التي يُكوّنها العوام عن النابغة والفذ من الناس. فقدراته العقلية الهائلة ومواهبه هي، في موازين غيره، كالألوان في أعين العُميان. كل العقول عند المجرّد من العقل تكون غير مرئية، كما يكون كل تقويم نتاجا للمُقوَّم داخل المدار الذي يتحرك فيه المُقوِّم أو المُثمِّن.

لذلك، أنصح النوابغ بأن يحرصوا على مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وإخفاء ما يزيد عن ذلك ويتجاوزه بعناية شديدة. فلا ينتظر النوابغ والأفذاذ من العوام أن يعترفوا لهم بما بذلوه من جهود عقلية وحققوه من إنجازات ذهنية، كما يجب أن يُغالبوا أنفسهم كي لا يستدرجوهم إلى مستواهم. إذ يتعذر عليهم مخاطبتهم، حين يُجبَرون على ذلك، دون أن يكونوا مثلهم. فمشاعر العوام وملكاتهم هي من التدني بحيث يصيبون بعدواها كل من اقترب منهم أو خالطهم ولو لبرهة. وهذا هو المعنى العميق والسديد للقولة الألمانية: كنْ كرفيقك وتعلّق به! لو استوعب الإنسان مغزى هذه القولة، ومارسها في

حياته، لَحرص على تجنّب كل رفقة يكون التواصل معها مقابل كشفها عن وجهها المُخجل وشقها المخزي. كما أن تشبّعه بحكمتها العميقة سيجعله مقتنعا بوجوب لزوم الصمت للبرهنة على رجاحة عقله في حضرة جماعة من الأغبياء والمجانين. فقد يجد المرء نفسه راقصا لوحده في حفل تنكّري لا يوجد فيه إلا المُقعدون، وإلا فمع منْ سيرقص؟!

24) أتوجه بالتقدير الخالص، من نوع التقدير الذي نُخصُّ به واحدا على مئة، إلى كل من إستطاع، في وقت فراغه وفي اللحظات التي ينتظر فيها شيئا، أن يمتنع عن نقر أي شيء يقع تحت يديه أو على الأرض إما بعكازة أو سكين أو شوكة أكل أو أي شيء آخر قادر على النقر. لو فعل، فسيكون ذلك دليلا على أنه يفكر في شيء ما يحُول بينه وهذا الصنيع التافه. نتبين، من خلال النظر إلى الكثيرين من بني البشر، كيف أن حاسة النظر تغلب عندهم كل ميل ممكن إلى التفكير والتأمل، كما أنهم، في محاولة للتأكد من وجودهم، يثيرون جلبة وضجيجا كيفما اتفق. هذا ما يدأبون على فعله واقترافه إن لم تُشْغِلهم عنه سيجارة يمسكونها بين أصابعهم لتتولى المهمة نفسها التي يتولاّها النقر التافه أو الضجيج المزعج. وللسبب نفسه، تحسبهم كلهم آذانا تتلقف كل كبيرة وصغيرة تحدث حواليهم.

25) لقد أصاب **لاروشفوكو** كبد الحقيقة حين قال: صعب أن يكون الشخص الواحد موضوعا للتقدير والحب في آن واحد[7]. فما عليه إلاّ أن يختار بين أن يحظى بتقدير الناس أو أن يملك قلوبهم. فحبُّ الناس له يكون دائما مغرضا ومحكوما بالمصالح، فضلا عن أن شروط كسبه لا تجعل الكاسب يشعر دائما بالفخر والاعتزاز. فلن

تكسب حب الناس إلا إذا قنعتَ بعقولهم وقلـــوبهم، أي بأفكـــارهم ومشاعرهم قناعة صادقة وغير مخاتلة. ولن تكسبه أبدا إن أحطتـــهم بحِلمك وشملتهم برأفتك التي ليست سوى الوجه الآخر لمقتك لهـــم. وعلى سبيل ختْم هذه المقدمات، والخروج منها بخلاصات مركـــزة، أذكّر بهذه الحكمة المقتضبة لـــ **هيلفيتيوس**: نظرة المرء إلى نفسه بعين الرضا تتناسب مع مستواه العقلي. أما كسب تقدير النـــاس فـــأمره مختلف. فالمرء لا ينتزعه منهم إلا على مضض، لذلك فهم غالبا مـــا يُمعنون في إخفاءه عن مستحقّه. وحين يحظى الشـــخص بالتقـــدير يغمره رضا داخلي غامر لتناسبه مع قدره الحقيقي خلافا للحب الذي يفيض عليه من الناس. **الحب ذاتي والتقدير موضوعي**. والحب يُدر على المحبوب منافع وفوائد مما لا يُدره التقدير على من هو موضـــوع له.

26) معظم الناس تغلب عليهم الذاتية حد توهُّمهم بأن المصالح محصورة فيهم وموقوفة عليهم من دون العالمين. وهـــذا الإحســـاس يجعلهم يُمحْورون كل تفكيرهم حول ذواتهم. وإذا خاض شخص في موضوع يمُسهم أو يعنيهم، ولو من باب الصدفة، انجذبوا إليه وأسِـــر اهتمامهم إلى أن يصيروا عاجزين تماما عن استيعاب الشق الموضوعي في الموضوع المُثار. وإذا عاكس مصالحهم وغرورهم، إنبروا لتســـفيه حججه كاملة ولو كانت وجيهـــة ومعقولـــة. فتَشْـــرُد أذهـــانهم، ويستشعرون، بقوة، وقع الإهانة التي جرحت أناهُم المتضخّمة. وهذا ما يجعل المتحدثين إليهم يحتاطون من الخوض معهم في أي موضـــوع بطريقة موضوعية تفاديا لإغضابهم وإخراج أناهم الهشة والمنتفخة عن طورها، فهم لا يضعون في مركز اهتمامهم إلا هذه الأنا ولا شـــيء

سواها. هؤلاء عاجزون كل العجز عن إعطاء معنى سام لحياتهم، وعن الإحساس الصحيح والعادل والجميل والرقيق والروحاني بما ومن حولهم. بالمقابل، يعانون أشد المعاناة من حساسية مفرطة تجاه كل ما من شأنه أن يمس غرورهم البائس، أو ينال من أناهم المتضخّمة ولو من بعيد وعلى نحو غير مباشر. هم أشبه بكلب خراش إذا وطئنا سهوا على قدمه فما علينا، بعد ذلك، إلا أن نتحمل زعيقه الزائد. بل هم أشبه بمريض تكسوه الجروح والنّدوب من رأسه حتى أخمص قدميه، بحيث نحرص أشد الحرص على عدم الاقتراب منه ولمسه. ثمة صنف آخر من الناس حاله أدهى وأمر. فكلما سمع كلاما يشي برجاحة عقل قائله وسداد منطقه وتفوقه في العقل والخبرة، إلا واعتبر ذلك إهانة كبرى لشخصه المهزوز. هذا الصنف البشري يَجهد، في البدء، على إخفاء هذا الشعور بالكاد ولا ينطق به لسانه. وعديم الخبرة بالناس أو قليلُها، حتى ولو كان من أصحاب العقول الراجحة، سيمضي وقتا طويلا، وهو يضرب أخماسا في أسداس، باحثا عن السبب الذي يجعل هؤلاء يحقدون عليه ويكرهونه أشد الكره. غير أن كل جهوده ستذهب سدى. هذا ما يثير حنقهم ويشعل نار ضغينتهم، فأين يجدون متعتهم القصوى؟ يجدونها في تملق الناس لكسب ودّهم. وكل من يتملقونه يضمن أن يكونوا بجانبه، ومع كل ما يتخذه من قرارات لأنها، أصلا، قرارات لا تستند على معطيات موضوعية ومجردة، بل على انحياز مكشوف لذواتهم ومصالحهم الفئوية. وسبب ذلك أن الإرادة فيهم جد متضخمة مقارنة بذكائهم الضحل، كما أن طاقتهم العقلية تكون بكاملها في خدمة الإرادة ولا تستطيع عنها فكاكا ولو للحظة.

وهذه الذاتية المفرطة والمثيرة للشفقة في الناس، ذاتيه تدفعهم إلى أن يجعلوا من ذواهم محورا ومرجعا ونقطة انطلاق في الصغيرة والكبيرة، يكرسها ويزكيها علم الأبراج. ذلك العلم الذي يُرجع كل الأجسام الكبيرة في هذا الكون إلى الأنا البشرية البائسة، ويُقيم ارتباطات افتراضية بين المُذنّبات السماوية والخصومات البشرية وصنوف الاستجداء البشري على هذه الأرض. هكذا جرت الأمور دوما منذ الأزمنة الغابرة والعصور السحيقة حسبما قاله سطوبي.

27) العاقل لا ييأس أبد ولا يستسلم أمام سيل الحماقات التي يتداولها الناس فيما بينهم ولو أودعوها في بطون الكتب، وحظيتْ باستحسان جلّهم، ولاقت آذانا صاغية، وتقاعس الجميع عن دحضها. فلا يظنّنَّ، لحظة، بأنها باقية إلى الأبد، وليكن واثقا، وهنا مناط عزاءه، بأن هذه الحماقات لابد أن تُدحض آجلا أو عاجلا، طال الزمن أو قصُر. لابد أن يُعاد التفكير فيها وتُفحص، وتُزن بميزان العقل، ولابد أن تكون موضوعا للنقاش والأخذ والرد والمطارحة المنطقية. عندها، سيكتشف المخدوعون ببريقها وتضليلها ما تبيّنه فيها العقل الراجح قبلهم بكثير. وبين هذا وذاك، أي بين الانخداع وانكشاف الحقيقة كاملة، ناصعة، أنصح العقلاء بالتحلي بالصبر وبالمزيد منه. المُحقُّ وسط جمهور هائج مائج ومُخطئ كحامل الساعة المضبوطة في مدينة كلٍ ساعاتها غير مضبوطة. وحده يدري الميقات الصحيح في مدينة كلٍ مواقيتها خاطئة. لكن، ما الفائدة من ذلك طالما يضبط الجميع توقيته على التوقيت العمومي الخاطئ؟ الجميع بمن فيهم الذين يعرفون بأن التوقيت الصحيح الوحيد يوجد عند صاحب العقل الراجح والحكم السديد.

28) الناس يُشبهون الأطفال. فإن دلّلْتَهُمْ تمادوا في غيهم، وبالغوا في اقتراف أفعال غير مقبولة وغير معقولة. لذلك، أنصح العقلاء بألاّ يفرطوا في الحِلم والرأفة، ولا يكونوا ودودين أكثر من اللازم مع الناس. إنك لن تخسر صديقا لأنك رفضتَ أن تُقرضه مالا، ولكنك ستخسره لأنك أقرَضْته و لم يُسدّد لك ما أقرضته. إنك لن تخسره عندما تُعامله بقليل من التعالي وشيء من الإهمال، بل ستخسره لأنك بالغتَ في التودد إليه ومجاملته إلى أن يغدو متعجرفا لا يُطاق، فيحل الجفاء والقطيعة بينكما. فمن الناس من يغدو متعجرفا ومزهوا بنفسه، إذا أحس بأنك في حاجة ماسة إليه ويصعب عليك الاستغناء عنه. ويتولد عنده هذا الإحساس ما أن تقبل بربط العلاقة به، أو ما أن تُكثر الحديث معه على نحو تغلُب عليه الحميمية والمكاشفة. ومع الوقت، يتملّكه يقين مؤداه وجوب إرضائك له وتدليله بأي ثمن. عندئذ سيسعى جاهدا لتوسيع دائرة اللباقة التي تُعامِله بها لتنقلب إلى جسارة وافتئات. قلة قليلة جدا من الناس هي التي تستحق المعاشرة الحميمة. لذلك، فالحذر ثم الحذر من معاشرة من هبّ ودبّ من ذوي الطبائع الخسيسة والدنيئة والمتدنية. فلو ظن أحدهم بأنك تحتاجه أكثر مما يحتاجك، فسيتملّكه إحساس مؤدّاه أنك سرقتَ منه شيئا، فيسعى للثأر منك أو الانكفاء على نفسه. لذلك، أنصح العقلاء بأن يفعلوا المستحيل حتى لا يكونوا في حاجة إلى الآخرين، ويحرصوا على إظهار هذا الاستغناء كلما سنحت لهم الظروف. تلك هي الطريقة الوحيدة للحفاظ على تفوقهم وعنصر السبق في علاقتهم بغيرهم. أكثر من ذلك، من الحكمة أن يجعلوا غيرهم، نساء ورجالا، يحس بأنهم قادرين على الاستغناء عنه في أي

وقت وبلا سابق إنذار، ودون مشكلة. هو ذا شرط توطيد عرى الصداقة مع الغير. ومن الحكمة أن يجعلوا غيرهم يحس أيضا ببعض الازدراء الذي يُكنونه له حتى يتشبث أكثر بصداقتهم. هناك مثل إيطالي يقول: الناس يُقدّرون من لا يُقدّرهم. وإن كانت في قلب العاقل معزة خاصة لأحد، فليحرص على إخفائها عنه كما لو كانت جريرة. قد لا تُعْجب هذه الوصايا ثلة من المُوجَّهة إليهم، لكنها عين الصواب! فبالكاد تُطيق الكلاب رفقا زائدا، كذلك الناس لا يطيقونه، بل يتبرمون منه أكثر من الكلاب.

29) المُتحّدِرون من أرومة نبيلة مِمّن حبتهم الطبيعة بطاقة عقلية فائقة تعوزهم معرفة كافية بالناس وبالحياة، خصوصا في فترة شباهم. لذلك تنطلي عليهم الحيل والخدع بسهولة، ويكونون ضحايا دسائس غيرهم. وغيرُهم من ذوي الطباع الخسيسة يتوفر على معرفة أفضل بالحياة، كما له قدرة على تدبيرها بسلاسة ويُسر. أما سبب ذلك، فهو أن النبلاء يفتقرون للتجارب فيُعوّضونها بالأحكام المسبقة التي لا يمكن أن تُضاهي التجربة في القيمة والنجاعة. بالمقابل تكتسب العامة هذه المعرفة من تجاربها الخاصة التي ليست مُيسَّرة للنبلاء والمُميَّزين، وهنا يكمن، تحديدا، سرُّ تميّزهم. فالمقارنة بين أفكار الخاصة والعامة تنطوي على خطإ جسيم في الحساب والتقدير.

ولو فرضنا جدلا أن المُميَّز من الناس تعلَّم من دروس غيره ما يمكن وما لا يمكن انتظاره من تصرفاقم، وتأكد بأن خمسة على ستة منهم لا يُرجى صلاحهم فكرا وخُلُقا، وبأن المُضطرَّ، فقط، هو من يُعاشرهم ويُخالطهم، وبأنه من الأفضل تجنُّبهم، لو افترضنا أنه تعلَّم وتشرّب هذه الحقائق كاملة، فإنه لن يُكوّن فكرة كافية عن مدى

دناءهم وبؤسهم وتوغّلهم في الحقارة. سيظل يستزيد، طيلة حياته، من معرفته بهم، ومع ذلك لابد أن يُخطئ، بين الفينة والأخرى، في شأنهم، وهي أخطاء ستعود عليه بالخسارات المتتالية والمؤكدة. يحْدثُ أن يجد نفسه، مثلا، وسط جمْعٍ منهم يجهل عنه كل شيء، فينبهر، للوهلة الأولى، بكلام أفراده ومظهرهم ووفائهم واستقامتهم، بل قد يستميله ذكائهم ورهافة أحاسيسهم. لذلك نُوصيه، في هذا المقام، بأن يتوخى الحذر الشديد تحوّطا من أن يُظهر الجمع عكس ما يُبطنه، وهو ما يحدث غالبا بين الناس في أول لقاء يجمعهم. للأسف، لا تتصرف الطبيعة، على غرار "الشعراء الملاعين" الذين يُقدّمون الناس على حقيقتهم منذ الوهلة الأولى، فيُقدّمون النذل نذلا، والأحمق أحمقا، ويقولون لك: هذا نذل، وذاك أحمق، فلا تثق بهما وبما يقولانه! من المؤسف أن الطبيعة تتصرف على غرار ما يفعله **شكسبير وغوته**. فكل شخص يغدو مُحقا، من خلال أعمالهما، ما أن يصعد فوق الخشبة، ولو كان هو الشيطان نفسه! يشتدُّ الحرص على تقديمه للناس كما لو كان هو وحده الذي ينطق بالكلام الحق من دون الناس كافة لأجل استمالتهم ودفعهم إلى الانحياز إلى مآربه الخاصة. يغدو هذا الشخص "المصنوع" متصرفا على غرار الطبيعة، أي كتعبير عن نمو لمبدإ داخلي تغدو بمقتضاه كلماته وأفعاله طبيعية تماما وبالتالي ضرورية. لذلك، فكلٌ من استبعد أن تكون للشيطان قرونا، وللحمقى جلاجل على هذه الأرض لابد أن يكون ضحيتهم الدائمة وفريستهم السهلة وأُلعوبتهم المُفضّلة.

فالناس لا يُظهرون لبعضهم وجها واحدا كما يفعل القمر ومُحْدودبو الظهر، بل لهم قدرة فطرية على الظهور بأكثر من وجه

من خلال محاكاة لانهائية من أبرع وأمهر ما يكون. تغدو وجوههم سلسلة من الأقنعة الحريصة على عدم إظهار إلا ما يُمليه الموقف أو الوضع. وتلك الأقنعة يضعونها على مقاس شخصيتهم المتعددة بحيث تتكيف مع أوضاع شتى ومواقف تترى إلى أن يغدو الوهم، بفضلها، واقعا شاملا ومُعمّما. كل واحد منهم يستعين بخدمات هذه الأقنعة كلما أراد أن يُسلّط عليه الأنظار ويستميل إليه الأنفس. فالحذر ثم الحذر من الثقة الزائدة في هذه الأقنعة المصنوعة من شمع وغيره. وليكن نبراسك ودليلك في ذلك المثل الإيطالي المعروف: الكلاب الشرسة أيضا تُحرّك أذنابها!

الحذر ثم الحذر من تكوين فكرة إيجابية جدا على من تعرّفتَ عليه توّا، فسيُخيِّب ظنك وأنت غير مُصدّق، بل قد تتأذى منه ويُصيبك بأفدح الخسائر. يكشف الناس، بالأغلب الأعم، عن طباعهم الحقيقية في المواقف الصغيرة والتافهة حيث تخونهم القدرة على ضبط النفس والتحلي برباطة الجأش. في هذه المواقف، يتبين الحكيم والمتبصّر غلبة الأنانية المفرطة على طباع الكثيرين ممّن يتعامل معهم، أنانية لا تُقيم اعتبارا لشيء ولا لأحد. ومما لاشك فيه أن هذه الأنانية المفرطة، لابد أن تتأكد في المواقف الكبيرة والحاسمة حتى وإن سعتْ جاهدة للتخفي والتقنُّع.

لذلك على الحكيم أن يغتنم هذه الفرص ليستخلص منها الدروس التي ستُفيده في تعامله مع البشر.

فعندما يتصرف شخص دون أدنى اعتبار ومراعاة لغيره في الأمور اليومية العادية جدا، تلك الأمور التي تنطبق عليها القاعدة القائلة: القانون لا يهتم بالسفاسف، وعندما لا يبحث، من خلالها،

إلا على مصالحه ومكاسبه ولو على حساب غيره، فكُن على يقين بأن وجدانه خالي من ذرة إحساس بما هو حق وبما هو عدل. سيغدو، قطعا، نذلا في المواقف الحاسمة وفي الأمور الكبيرة إن لم يضبطه القانون، وتلجمه القوة وتردعه عن العبث. شخصيا، أنصح العقلاء بمنع هذا الشخص وأمثاله من تخطي عتبة بيتهم[8]! سأظل أؤكد على هذه الحقيقة البسيطة والنيّرة: كل من تعدّى الحدود دون وخز ضمير، ولا مراعاة للقوانين المُنظّمة للعيش المشترك، لن يتحرج، إطلاقا، من خرق القوانين السامية التي تقوم عليها الدولة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وما لْم يردعه رادع.

وإذا بدر سلوك مثير للغضب من شخص تجمعك به روابط وثيقة، فعليك أن تتساءل في الحين إن كان يستحق أن تتحمّله مرة ثانية وثالثة، لأنه لابد أن يزداد وقاحة وجسارة كلما كرّر هذا السلوك. وعليك أن تستحضر، وأنت تتساءل، أن العفو والصفح والنسيان ليس لهم إلا معنى واحدا ووحيدا، وهو أن ترمي تجارب اكتسبتها، لقاء ثمن باهظ، من نافذة الضياع. فإن كان هذا الشخص يستحق أن تتحمّله، فلا بأس من غضِّ الطرف عمّا بدر منه، والصفح عنه، وتجنُّب توجيه اللوم والعتاب له، واستعدّْ بأن تتحمّله في حال العود القادم قطعا. وإن لم يكن جديرا بذلك، فلا تتردّد في قطع كل صلاتك معه حالا إن كان من أصدقائك الأعزّاء. وإن كان من الخَدم، فاصْرفه في الحال. إن لم تفعل، فكُنْ على يقين بأنه سيعاود الكرّة مثنى وثلاثى ورباع، وقد يزيد على فعلته الأولى ولو أقسم بأغلظ الأيمان بأنه سيَعدِلِ عن سلوكه. فالإنسان مجبولٌ على نسيان كل شيء إلا ذاته وكينونته. لذلك، فلا أمل في إصلاح وتقويم

الطباع طالما تصدر كل الأفعال البشرية عن مبدإ عميق حكَمَ على الأشخاص كلهم بالتصرف بالطريقة نفسها في الظروف المتماثلة. وهنا أنصح القارئ بالعودة إلى دراستي بعنوان **الحرية المفترضة للإرادة**، فلربما ساعدته على التحرر من الأوهام بهذا الشأن. فتصالُحك مع صديق هجرته لهذه الأسباب يعتبر ضعفا ستؤدي ثمنه غاليا، عاجلا أو آجلا، لأن صديقك المزعوم لن يتورع، في القادم من الأيام، عن إتيان الأفعال نفسها التي كانت سببا في مقاطعتك له، بل سيقترفها بثقة زائدة في نفسه متأتّية من اعتقاده بعجزك عن الاستغناء عنه. وما يَصْدُق على الصديق، يصدُق على الخادم إن أعَدْته إلى عمله بعد أن قررتَ صرفه والاستغناء عنه. والأدهى أن الإنسان لا يغير سلوكا اقترفه، تحت ضغط البواعث نفسها، ولو تغيرت الظروف والملابسات المحيطة به. بالمقابل، يُبْدي استعدادا وحماسا لتغييره استجابة لمصالحه ولأجل قضاء مآربه الخاصة. ويعود ذلك إلى أن المقاصد التي تحركه، في هذه الحالة، تَعِدُه بمكاسب سيجنيها في المدى القريب، ولابد أن يرغد ويُزبد في وجه كل من وقف في طريقه نحوها. وكلٌّ من ابتغى إسكاته وتهدئة خاطره فهو واهمٌ، وحسير بصرُه وبصيرته!

فكيف سيتصرف شخصٌ وجد نفسه في موقف مثيل مع شخص من هذه الطينة؟ في البدء، أنصحه بعدم تصديق وعوده، ولا المراهنة على صراخ احتجاجه، فذلك سيُوقعه في خطإ فادح. وهبْ أنه صادق، فهو يجهل بالمرة ما يتلفّظ به، في الأثناء، أكان وعدا أو احتجاجا. وبالتالي، فردود أفعاله يستحيل توقّعها إلاّ حين يدخل طبعه الخاص في اشتباك مع الظروف والمثيرات التي تُهيجه وتستثيره.

يفرض فهم عميق ودقيق، وضروري للوضع البشري الحزين، فهمُه في كامل عُريه وانكشافه، المواظبة على المماثلة بينه والأعمال الأدبية، كما ومقارنة هذه الأخيرة مع هذا الوضع. فهذه الطريقة مفيدة جدا في اكتساب معرفة ضافية بحقيقة الناس، تقي صاحبها من محذور الانخداع بمظاهرهم وأقوالهم ومزاعمهم. وخلال هذا الفحص الدقيق المبني على المماثلة والمقارنات، يتعين الحرص على ألاّ تتحول أي حماقة أو عمل شائن أُرتُكِب في حق المتفحّص، أو طالعه في كتب، إلى مصدر قلق دائم أو إثارة مستمرة. فالمطلوب من هذا الفحص للتجارب على الضفتين ليس هو اجترار الأحزان، بل استخلاص العبر، واستكمال معرفتنا بطباع البشر وحقيقتهم، لأجل استحضارها في الأوقات المناسبة. وبذلك، سينجح في التعامل معها كما يتعامل عالم المعادن مع قطعة معدنية نادرة وأصيلة وقعت بين يديه. إن العالم، في مجمله، رديء، وهذه حقيقة أساسية قرّرناها آنفا، وغير ما مرة. قد تكون فيه استثناءات تشذ عن هذه القاعدة العامة، ولربّما كانت وافرة أكثر ممّا قد نتصوره، بل ومُلغزة بقدر ما هنالك من فروق معتبرة من فرد إلى فرد. في هذا العالم، يفترس المتوحشون بعضهم البعض. وخلاصة هذا الافتراس الجماعي هو الذي تختصره اللغة الإنسانية الماكرة في أحوال الدنيا وسُنّة الحياة. وإلاّ، فما عساها تكون الدول بعُدّتها الجبارة، وعتادها الفتّاك الذي تمارس به الإكراه والإخضاع، ما عساها تكون سوى تجسيدا لحزمة من الإجراءات الاحترازية تروم كبح جماح الآخر، ونزوعه الطبيعي إلى العسف والبغي الذي لا يعرف حدودا، ولا تردعه إلا القوة؟ فالملوك، ما أن يصفو لهم الجو، ويتوطّد حكمهم، وترفل مملكاتهم في رفاهية نسبية،

حتى يتسلحوا بالأسلحة الأكثر فتكا، وبتقووا بالجيوش الأكثر شراسة، مماثلة لعصابات الطرق التي كانت سائدة في فترات تاريخية سابقة، لكي يجتاحوا بها البلدان المجاورة ويُخضعوا الأمصار المتاخمة، فهل هذه الحقيقة الواقعية تُخطئها العين؟ أليست الحروب، كلها، سوى عمليات منظّمة لقطع الطرق وقطع الأرزاق، وضرب الأعناق؟ ففي التاريخ الغابر، سرعان ما يتحول المنهزمون في حرب إلى عبيد للمنتصرين يسترقونهم، ويسومونهم سوء العذاب. وحتى الذين يدفعون منهم فدية لا يُعفون من خمة غالبيهم من خلال تبرّعهم بجهد العمل. وكم كان **فولتير** صادقا حين قال: هدف كل الحروب هو السرقة. فليعتبرْ الألمان، أبلغ عبرة، من هذه القولة البليغة!

30) كل الطباع البشرية يجب لجمها، وعدم تركها تتصرف على سجيّتها، كلها، بلا استثناء، بحاجة إلى قواعد ومفاهيم عامة تسترشد بها، وتسير على هديها. لكن، لو بالغنا في عقلنتها وتجريدها من عفويتها الطبيعية، فستغدو شديدة التصنع، وموغلة في التكلّف وصعبة التحمل. عندئذ سيمجّها الإنسان، وسيقتنع، أكثر من أي وقت مضى، بصواب وسداد الحكمة اللاتينية القائلة: الطبيعي في الإنسان، سرعان ما يعود إليه من النافذة إنْ أخرجه من الباب. لذلك، يحدث أن يبتكر الإنسان قواعد سلوكية، ثم يتمثلها ويتشرّبها جيدا، بل ويصوغها في أجمل العبارات بغية الاسترشاد بها في علاقته بغيره، لكنه سرعان ما ينتهكها بنفسه حين يكون مُطالبا بتحرّيها، والعمل بها. فلا ينبغي أن يُثبّط ذلك عزيمته، ويُوقعه في اليأس من استحالة تقيد سلوكه الاجتماعي بقواعد عامة وحقائق مجردة، ويدفعه، بالتالي، إلى أن يسلك بحسب أهواءه ونزواته، أو كيفما

اتُّفِق. أبدا. وهذا الذي يصدُق على القواعد العملية والحقائق العامة المرشدة للسلوك البشري، يصدق أيضا على القواعد النظرية المندورة لاستعمالات عملية. إن فهم واستيعاب القاعدة شيء، والتمرّن عليها لأجل ممارستها شيء آخر. فالفهمُ يتحقق دفعة واحدة من خلال الذكاء الخالص، بينما المران والتدريب على الممارسة المنتظمة يتحقق بالتدريج، ومن خلال المكابدة والمجاهدة. فالمتعلم في بداية تعلّمه الموسيقى، يُبيّن له المعلّم ملامس الآلة الموسيقية، كذلك المبتدئ في المسايفة يُعلّمه كيف يُمسك السيف، سواء كان تعلُّمه على سبيل المسايفة، أو لمجرد إتقان الزّينة بهذه الأداة الحربية. ولاشك أن المتعلم سيُخطئ مرات ومرات رغم رغبته القوية في التعلم، واندفاعته نحو الاستيعاب، إلا أنه سرعان ما يتأكد بأن التمكن من موضوع تعلمه، سواء من خلال القراءة الموسيقية المستعجلة، أو حماسة المعركة، هو من رابع المستحيلات. ومع ذلك، لابد أن ينتهي به الأمر، بفضل عزمه وتصميمه، إلى التعلم والتمكّن من موضوع تعلمه. خطوة خطوة، يسقط، ينهض، يتعثر وينهض مجددا، يعاود الكرة ثم الكرة إلى أن يصل إلى مبتغاه ويتحقق مُراده. كذلك الأمر في تعلم الكتابة، وقواعد اللغة، أو التحدث بطلاقة باللغة اللاتينية مثلا. وبفضل هذا التدرج، يتحول الأعرابي الفظّ إلى شخص متحضّر ومميّز، ويغدو المنفتح كتوما، بل وقد يغدو النبيل مادة للسخرية بعد أن كان مُهابا، وقس على ذلك.

غير أن هذه التربية الذاتية المتحصّلة من جهد يبذله صاحبه على نفسه، ستتبدّى، موضوعيا، بصفتها عملا خارجيا، أو اشتغالا على جبلّته الأولى. هذه التي لابد أن تقاومه، بكل قواها، لتُبطل مفعوله

وعلى حين غرة في بعض الأحايين. إن كل مسلكية بشرية تحركها حقائق عامة ومجردة لابد أن تتفاعل وتشتبك مع مسلكية تحركها ميولات طبيعية وعفوية، بله بدائية شبيهة في ذلك بأي آلة صنعتها يد الإنسان، كالساعة على سبيل المثال لا الحصر. ففي الآلة، الشكل والحركة مفروضان فرضا على مادة غريبة عنهما تماما. فالآلة تحكمها علاقة مغايرة بنظام عضوي يتشابك فيه الشكل والمادة، ويتفاعلان ليُكوّنا، بالمُحصّلة، وحدة عضوية. وهذه الجدلية بين الطباع الإنسانية المتأصلة والمكتسبة تؤكدها فكرة عبر عنها **نابليون** بإيجاز شديد حين قال: كلٌّ ما ليس طبيعيا فهو ناقص. حقيقة أثبتتْ صحتها في الفيزياء وفي الأخلاق وغيرهما من المجالات. وأعتقد أن الاستثناء الوحيد عن هذه القاعدة العامة هو حجر البرق الطبيعي (L aventurine) الذي لم تطَلْه اليد الصناعية، و لم تعبث بأصالته، وهو أمر معروف عند علماء المعادن.

لذلك، أنصح بتفادي المبالغة والتّزيّد في السلوكات المتصنّعة لأنها ستجلب على صاحبها سيلا من مشاعر المقت والازدراء. فالتكلّف مماثل للجُبن الناتج عن الخوف الشديد، والذي تتمخض عنه أشكال ومظاهر من الإدانة الذاتية. ذلك أن المتهيّب والمذعور يسعى جاهدا ليُظهر لغيره ما ليس فيه، معتقدا أنه الأفضل مما هو عليه في واقع الحال. فتظاهرُ الإنسان بمزية من المزايا، بل والمبالغة في الظهور بها أمام الناس، متباهيا، مزهوا، إقرار منه صريح ومعلن بعدم توفُّره عليها، وبُعدِه عنها بعد السماء عن الأرض. فإن وجدتَ شخصا لا يكفُّ عن التباهي بصفة أو خصلة، ولتكنْ إقداما، أو علما غزيرا، أو ذكاء ثاقبا، أو أحاسيس مرهفة، أو نجاحا في غزو قلوب النسوان، أو

في اكتساب الثروة وحيازة النبالة، فكُن على يقين بأن هذه الصفات والمناقب التي يدّعيها هي التي تُعوزه بالفعل، ويعاني من خصاص كبير وكبير فيها. ذلك أن صاحب الشيم الرفيعة والمناقب السامية، صاحبها الحق لا مدّعيها ومنتحلُها، لا يهمّه، إطلاقا، استعراضها أمام الناس، والتفاخر بها في كل لحظة وحين. هذا الشخص مرتاح تماما من هذه الناحية لأنه يمتلك، فعلا، تلك الشيم والمناقب ولا ينتحلها. وهو المعنى العميق الذي يعبر عنه هذا المثل الإسباني المأثور: إنعال يرنّ ينقصه مسمار!

وأوصي بالحذر الشديد من أن يُظهر المرء شخصيته كاملة لغيره، نظرا لغلبة البهيمي والرديء فيها، والذي يتعيّن إخفاءه بعناية فائقة. معنى ذلك أن المسموح به في علاقة الإنسان بغيره هو إتيان الفعل السالب دون سواه، وهو هنا الحجب والإخفاء، مقابل الامتناع عن الفعل الموجب المتحقق من خلال التظاهر والتصنّع والرياء. والحق أنه من السهل جدا أن نتعرّف في سيرة الأشخاص عن الأفعال التي يغلُب عليها التكلف والتصنّع، حتى قبل أن نكوّن فكرة واضحة عن الأشخاص الذين يُقلّدونهم ويُحاكونهم، أي يتكلّفون من أجل أن يظهروا بمظهرهم. لكن، علينا أن نقتنع، في الحال، أن تكلّفهم إلى زوال وشيك، ولابد أن يسقط عنهم القناع لتنكشف حقيقتهم. كان **سينيكا** سبّاقا إلى التفطّن لهذه المسألة عندما قال: لا أحد بمقدوره أن يضع القناع على وجهه لمدّة طويلة. فالمُقنّع سرعان ما يستعيد طبيعته، ويعود إلى سيرته الأولى.

31) يحمل الإنسان بدنه دون إحساس منه بذلك، ولا يشعر بأنه يحمل عبئا خارجيا حتى يشْرع في تحريكه. بالمثل، درج على

النظر إلى عيوب ورذائل غيره مقابل غضّ الطرف عن عيوبه ورذائله. فكل واحد من بني البشر يجد في غيره مرآة عاكسة لعيوبه ومثالبه، وتصرفاته غير اللائقة، وكذا الجوانب المُنفّرة من شخصه. ومع ذلك، درج الناس على التصرف كما يتصرف الكلب أمام المرآة، إذ لا يُصدِّق أبدا بأن المرآة تعكسه، بل تعكس كلبا آخر. والمفروض أن يتمرّن ناقدُ غيره، من خلال نقده ولومه، على إصلاح نفسه قبل إصلاح غيره. فالميّالون إلى الفحص الدقيق والناقد لأفعال غيرهم، في قرارة أنفسهم، أكثر قدرة على إصلاح وتصحيح أنفسهم، والرّقي بها نحو مدارج الكمال. بل غالبا ما ينتهي بهم الأمر، مع الزمن، إلى التشبّع بروح الإنصاف، والتحلي بما يكفي من عزّة النفس التي تحول بينهم واقتراف ما درجوا على استهجانه في غيرهم. أما المتسامحون، السَّمُوحون فهم على النقيض من هؤلاء إذ يتناوبون على تبادل الصفح والعفو فيما بينهم، حتى جعلوا من ذلك دينهم وديدهم، كما قال مثل لاتيني.

الإنجيل زاخر بالمواعظ الموجَّهة إلى هذا الصنف من بني البشر الذين يُبصِرون التّبن في عين الجار، ولا يُبصرون عودا في أعينهم. وكذلك هي الطبيعة العضوية للعين نفسها التي لا تُبصر إلا ما يقع خارجها. لذلك فإن التعود على رصد واستهجان عيوب الغير ومثالبه، يغدو سلوكا محمودا إن حوّله صاحبه إلى حافز على إحساسه بنفسه لأجل التفطن إلى مثالبها ونقائصها. إن الإنسان في حاجة إلى مرآة تعكسه لكي يُصحح نفسه، ويُقوِّم اعوجاجاته، والحال أن هذه العادة الحميدة ستُمكّنه من ذلك إن واظب عليها، وأخلص لها. وهذه القاعدة العامة صحيحة أيضا في مجال الكتابة،

الكتابة من حيث هي أسلوب وطريقة. لذلك، فإن كل مُنساق، في عالم الكتابة، وراء نزوة الإعجاب والانبهار بكل حماقة جديدة ووافدة، عوض نقدها، بل واستهجانها إن اقتضى الحال، لابد أن ينتهي به الأمر إلى تقليدها ومحاكاتها حرفيا. والحال أن هذه المحاكاة هي المسؤولة عن انتشار الحماقات الأدبية في ألمانيا انتشار النار في الهشيم. فالألمان معرفون بتسامحهم الزائد مع كل شيء، وهو أمر لا تُخطئه العين، بل وخلّده هذا المثل الشديد التداول بينهم: نتسامح ونُجامل ونغضُّ الطرف، وننتظر الشيء نفسه مِمَّنْ فعلنا معه ذلك!

32) يتوهّم النبيل، في فترة شبابه، بأن التحلي بالأخلاق الفاضلة، والذوق الرفيع، والذكاء الوقّاد، والمُحترمية هي الخصال الوحيدة التي يمكن أن تجمع الناس بعرى وثيقة. لكن، مع تقدّمه في السن، يكتشف بأن الكلمة الفصل في العلاقات البشرية تكون دائما للاعتبارات المادية التي تُوجّهها المصالح والمنافع. فالانشغالات المادية الصرفة هي أساسها وقوامها، وأغلب البشر لا يعرف غيرها، ولم يعْهد سواها. إن المعايير المتحكّمة في اختيار الأفراد تحتكم إما إلى وظائفهم، أو حرفهم، أو الأمة التي ينتمون إليها، والعائلة التي يتحدرون منها، ولاشيء غير ذلك. معنى ذلك أن هذا الاختيار والاصطفاء يتحدد انطلاقا من موقعهم الاجتماعي، والدور الموكول إليهم في المجتمع الذي يعيشون فيه. انطلاقا من هذه المعايير يُصنَّفون ويُرتّبون كما تُصنّف المنتجات والمواد المُصنّعة. أما الإنسان، الإنسان في ذاته ولذاته، خصاله ومناقبه، فلا يُعتدُّ بها إلا عرَضا، وعلى سبيل الاستئناس، ومن باب المتعة، ونادرا ما يحدث ذلك إنْ حدث! فأغلب الناس يضعون المناقب البشرية الراقية على الرّف، ويُهمّشونها بمحض

إرادهم، أو يُعلّقون أثرها، ويُعطّلون مفعولها إلى حين، كلما قضت مصالحهم المادية الضيقة والمباشرة بذلك. لذلك يتعمّدون تجاهلها وتبخيسها كقاعدة عامة. ففي مجتمع الناس، كلّما تحلى المرء بمناقب رفيعة إلاّ وأحلّوه بمؤخرة الترتيب الاجتماعي، وهذا الأمر يدفعه إلى تفضيل الانسحاب من هكذا ترتيب، لأنه قسمة ظالمة وحيفٌ بيّنٌ لا يخفى عن كل عيْن بصيرة وبصيرة نافذة. أما الأفضليات الشائعة بين العامّة، فمصدرُها وموجّهُها الأول والأخير هو رغبتهم المحمومة في إبعاد الشبحين الجبارين المتربّصين بعالمهم الصغير، وهما شبح البؤس وشبح العَوَز. وماعدا ذلك، أي ماعدا هذه الرغبة الهوجاء، فهم يجهلون عنه كل شيء، بل ويجهلون وجوده أصلا.

33) وكما أن الناس يتداولون القطع النقدية بدل الفضة، فإنهم يتبادلون عبارات التقدير والصداقة بدل التقدير والصداقة الفعليين والواقعيين. والبعض محقٌّ تماما عندما يشك في وجود بشر على هذه الأرض لازال جديرا بالتقدير الصادق والصداقة الخالصة. على كل حال، فأنا، شخصيا، أثق في الكلب الجسور حين يُحرّك ذَنبه أكثر من ثقتي بكل المظاهر والمخاتلات التي يتبادلها الناس، ويتداولونها في ما بينهم صباح مساء.

فمن شروط الصداقة الخالصة أن يُشارك الصديق صديقه في كل أحواله، في سعادته وتعاسته، وفي أفراحه وأتراحه. وهذه المشاركة تُوجب على الأصدقاء الخُلّص أن يتقمّصوا ويتلبّسوا بعضهم، وبكامل الصدق والتجرّد. غير أن ما جُبِل عليه البشر من أنانية بالغة يتناقض جذريا مع هذا الإحساس العميق بالصداقة، حتى صار وجيها التشكيك في وجود هذا الإحساس أصلا، بل وافتراض أنه من بنات

الخيال ليس إلاّ. غير أننا لانعدم حالات لعلاقات إنسانية لا تخلو من بذور صداقة خالصة ومجرّدة، رغم أنها محكومة، في خلفيتها العامة، بدواعٍ أنانية ومصلحية. وهذه البذور التي تعتمل في أحشائها كافية لأن نخلع عليها صفة النبل. ففي عالمٍ يعجُّ بالنواقص، صعب جدا أن نطمع في صداقة أكثر صدقا وتجردا وخلوصا من هذه. ويرجع ذلك إلى أنها قادرة، حين تريد، أي حين يريد الذين تجمعهم رابطتها، بأن تتجرد من الاعتبارات المادية والمباشرة واليومية التي، لو ظلت حبيستها، لأقْسم المرء، بأغلظ الأيمان، ألاّ يخاطب إِنْسيّا، ولا يُخالط بشرا، خصوصا إن التقط سمعه، عرضا، ما يقوله عنه الآخرون في غيابه.

لذلك، أوصي المُتّعِظ بأن يختبر صداقة صديقه المفترض في الوقت الذي يصيبه مكروه، وليُفصِحْ له عن حاجته إلى مساعدته بالكثير، والتضحية لأجله بالوفير. وعندما يُفصح له عن المطلوب منه، لابد أن يقرأ على وجهه أحد أمرين: إما علامات حزن صادق ونزيه، وإما علامات فتور وبرود صادم. عندئذ، وعندئذ فقط، سيتأكد من الصدق الكبير الذي تنطوي عليه هذه القولة التي جاءت على لسان **لاروشوفوكو**: عندما تحلُّ النوائب والمصائب بالإنسان، فلابد أن تكون مصحوبة بهمّ وغمّ يأتيه من أقرب وأعز أصدقائه. بل حتى هؤلاء الذين اعتاد على تسميتهم بالأصدقاء، سيلاحظ كيف يكظمون، بالكاد، شعورهم ببعض ارتياح لِما أصابه من مصائب وألمّ به من رزايا، في تشفٍّ يُخفونه بعناية. فليس ثمة من شيء يُلطّف أمزجة الناس من سماعهم لمصائب تنزل على غيرهم، أو مكروه مباغت يُصيبهم، أو اعتراف منهم بمكامن ضعفهم، ومواطن

هشاشتهم. فهذا كله يتلذّذون به في صمت وكتمان. إنه، فعلا، أمر لافت ومثير لابد أن يدفع العاقل إلى تدبره، واستخلاص العبر منه.

البعد والغياب يُلحقان ضررا مؤكدا بالصداقة المجردة، ولو ادّعى المُدّعون عكس ذلك. فالأشخاص الذين يغيبون عن العين لمدد طويلة، ولو كانوا من أعز الأصدقاء، تتبخّر ذكراهم شيئا فشيئا إلى أن تغدو أشكالا هلاميّة وموغلة في التجريد. والمصلحة أو شدة التعود هما، وحدهما، القادران على بعث الحياة فيها مجددا، أو تسليمها للنسيان. لا يُحس الإنسان إحساسا عميقا، نابضا بالحياة، إلا بالذين تراهم عيناه، وينسج معهم بصره ألفة، ولو كان الأمر لا يتعلق إلا بحيوانات يعطف عليها، ويُدلّلها. وكم هو غريب، فعلا، أن تتحكّم الحواس في الجِبلّة البشرية إلى هذا الحد، وقد صدق **غوته** لّما قال في هذا الخصوص: للحاضر سلطانٌ لا يُضاهيه سلطان. والذين جرت العادة على تلقيبهم بـ **أصدقاء أو خلاّن البيت** تصدُق عليهم، فعلا، هذه التسمية لشدة ارتباطهم بالبيت، أحيانا حتى أكثر من صاحب البيت نفسه، وهم، بهذا المعنى، أكثر شَبها بالقطط منهم بالكلاب.

يزعم الأصدقاء بأنهم مخلصون، وهم كاذبون، لان الأعداء، وحدهم، هم المخلصون، في عداوتهم طبعا. لذلك، على العاقل اللبيب أن يتعود على تحمّل لوم الصديق وخذلاناته، كما يتحمّل تجرّع الدواء المر. فذاك هو الثمن الذي ينبغي عليه تسديده لقاء تعميق معرفته بذاته، وبالناس من حوله.

وغير صحيح، بالمرة، القول بأن الأصدقاء قليلون عند الحاجة، أو أنهم في النوائب قليل، بدليل أنه ما أن ينسج المرء الخيوط الأولى لصداقةٍ مع أحدهم، حتى يطلب منه إقراضه عند وقوعه في الحاجة!

34) كَمْ سيكون الإنسان ساذجا إذا ظنَّ أن إظهاره رجاحة عقل، ونفاذ بصيرة هو الطريقة المُثلى ليُكوِّن عنه غيره من الناس نظرة إيجابية، غير أن ذلك وهمٌ خالص، وعكسه هو الصحيح! فلو حرص على ذلك، أي على إظهار هذه الرجاحة، فلابد أن يُوقظ، عند معظمهم، إحساسا بكره لشخصه والحقد عليه، إحساسٌ يكون من المرارة بحيث سيتحرّج صاحبه من تعليله، بل لن يستطيع حتى إخفاءه عن نفسه! وإليكم بيان المسألة: ما أن يتحادث شخصان، فيلاحظ أحدهما تفوقا لافتا عند مُحاوره حتى يستنتج، ضمنيا، أن هذا الأخير لاحظ عليه أيضا دونيّته ومحدوديّة تفكيره، كما لاحظ عليه، قبله، تفوقه وتألّقه. وهذا الاستنتاج لابد أن يثير فيه مشاعر ملؤها الكراهية والضغينة والسعار المرير إزاء مُحاوره[9]. وقد يكون مثل هذا الوضع هو الذي جعل **كراسيان** يقول ناصحا:

اظْهَرْ دائما بين الناس بمظهر الحمل الوديع،
اظهر بهذه الصورة إنْ شئتَ أن تعيش في هناء،
اظهر بها لتنعمَ براحة البال.

وعندما يُصرّ المرء على الظهور بخلاف ذلك، فيُؤاخذ البشر على عجزهم وحماقاتهم وصفاقتهم مقابل إمعانه في استعراض رجاحة عقله، ومضاء ذهنه، فسيكون كَمَنْ أعلن الحرب عليهم. بل إن السوقي من بينهم سينتفض ضده أشد انتفاض بدافع الحسد، ما أن يظهر له كنقيضه المباشر. فالإنسان يجد متعة خاصة في إرضاء غروره، متعة لا تضاهيها متعة. هذا مع العلم أنه لا توجد خصلة أو مزية يجدر بالإنسان أن يعتدّ بها، ويتباهى أكثر من خصلة الذكاء، ورجاحة العقل، فهي مناط تفوقه، وعلامة تميّزه المطلق عن

الحيوان[10]. لذلك، فحرصُه على إظهار تفوقه على غيره في هذه النقطة هو طيش مجاني، خصوصا إذا كان ذلك بحضرة شهود. إنه بهذا السلوك سيُحرِّك في الآخرين رغبة الانتقام منه من خلال تعمُّدِهِمْ إهانته، والحط من قدره طمعا في أن يُحوِّلوا المسألة كلها من مدار الذكاء إلى مجال الإرادة والنزوة التي يتساوى فيها، كما هو معلوم، الناس كافة سواء، كانوا من الرّاقين أو الوضيعين.

ينجح المال والجاه في انتزاع التقدير من الناس في الوقت الذي تفشل فيه المزايا العقلية. فهذه المزايا يتجاهلونها في أحسن الحالات، وفي أسوءها، يعتبرونها وقاحة، أو مكسبا تحصّل عليه صاحبه بطرق غير مشروعة، وفوق ذلك يتباهى به ويتفاخر أمام غيره. لذلك، فالجميع سيتربّص به الدوائر، وسيسعى إلى إذلاله في المجالات الأخرى ما استطاع إلى ذلك سبيلا، بل وسيتحين الجميع فرصة إذلاله بفارغ الصبر، وعلى أحر من الجمر.

من هنا، أنصح النوابغ والمتفوقين بعقولهم بالحرص الدائم على الظهور بمظهر المتواضعين في حضرة الغير، وبِخَفْض الجناح لسواهم لكي يغضّوا الطرف عن تفوقهم المحسودين عليه، وحتى إن اكتشفوه، عَرَضاً، صفحوا عنهم صفحا شبيها بصدقةٍ جارية! وقد صدق الشاعر **سعدي** حين قال: يفوق اشمئزاز مَنْ لا عقل له من العاقل، ألف مرة، اشمئزاز العاقل مِمَّن لا عقل له. إن التدني العقلي هو الصفة المطلوبة أكثر عند العوام، والمحبوبة لدى الدهماء والغوغاء.

إن الشعور الإنساني بالتفوق يعود بالنفع على الذهن، كما يعود الإحساس بالدفء بالنفع على البدن. فالناس يتقربون من الأشخاص الذين يرفُدونهم بهذا الإحساس بدافعٍ من الغريزة نفسها التي تدفعهم

إلى الدنوّ من المدفئة، أو التعرض لأشعة الشمس. والذكور يتقربون أكثر من ذوي القدرات العقلية الأقل تواضعا من قدراتهم، بينما الإناث يتقربن من الأقل جمالا منهن. فمنْ يُظهر تدنّيه، بتلقائية وبلا تكلف، لابد أنه يتوفر منه على الشيء الكثير. وما عليكم، في هذا الصدد، إلا أن تلاحظوا مقدار ما تتحلى به الحسناء الجميلة من لطف ومودة عندما تذهب لملاقاة فتاة ذميمة أو متواضعة الجمال. إن الذكور لا يُولون، بطبعهم، قيمة زائدة للمحاسن الجسدية، ولو كان بعضهم يُفضِّل، أحيانا، أن يصطحب قِصار القامة بدل طِوالها. والشائع بينهم هو التقرب من الحيوانات ومصاحبة الجهلة بحيث يبحثون عنهم أينما كانوا. أما الإناث فيُفضّلن مصاحبة الذميمات، القبيحات الخِلْقة من بينهن حتى يُوهمن وسطهن القريب بأنهن ذوات قلب كبير، وطبع ممتاز، وما شابه من الخصال.

بالمحصّلة، كل الناس يحتاجون إلى ذريعة يبررون بها مشاعر الود التي يحسون بها إزاء ذواتهم، أو إزاء غيرهم. وهذا، تحديدا، هو السبب الرئيس الذي يعزل المتفوق فكريا عن غيره، لأن هذا الغير يُجافي ويفر من صفة التفوق تلك ويمقتها، بل ويتعمّد إلصاق كل العيوب والمثالب بصاحبها [11]. بالمثل، فالجميلات جدا لا يجدن صديقات، بل وحتى صُويحبات ومرافقات. لذلك، فليحذرن من أن يقترحن على سيدات أو أوانس بأن يكنَّ رفيقات لهن أو صُويْحبات. إذ ما أن تلوح طلعتهن البهية من عتبة بيت، حتى يكفهرّ وجه ربّة ذلك البيت من شدة خوفها من أن تُعقَد مقارنات بينها وبينهن، أو بين بناتها وبينهن أيضا، أي بين جمال عادٍ جدا وجمال خارق للعادة، وما سيتمخض عن ذلك من نفور من هذا وانجذاب لذاك، والأمر

خلاف ذلك تماما عندما يتعلق بالمكانة الاجتماعية، إذ أن تأثيرها مماثلٌ للتأثير الذي تمارسه المزايا الشخصية والذي لا يتحقق من خلال المقارنات ودرجة البروز، بل عبر الانعكاس الشبيه بانعكاس الألوان على الوجوه.

35) أسباب الثقة المفرطة التي يضعها الإنسان في غيره هي: الكسل والأنانية والغرور. فبسبب الكسل، يتقاعس عن أداء واجباته ويُكلّف بها غيره. وبدافعٍ من الأنانية، يُفشي أسراره التي لا يصبر على كتمانها، فينساقُ وراء الكشف لغيره عن أعماله ومشاريعه. أما الغرور فيغمُره بإحساس زائد بالمجد والاعتزاز جرّاء ما أنجزه من أعمال، أو حققه من مشاريع. كل هذه الدوافع الضاغطة تجعل الإنسان يُفرط في الثقة بغيره، ويمنحها له كما يمنح شيكا على بياض، أي دون أن يشترط على من وضع فيه ثقته أن يُقدّرها حق قدرها، وأن يبرهن على ذلك بالأقوال والأفعال.

بالمقابل، يتعين على الإنسان أن يشمئز من الارتياب المفرط في الآخرين، وإساءة الظن بهم على نحو مطرد. وهو ما يعني أنه يجب أن يعتدل في ثقته بغيره من خلال وضعها في الجدير بها، كما يجب عليه أن يعتدل في ريبته. إن هذا الاعتدال دليل على فطنته ونزاهته معا، وإقرارٌ منه على أن ندرة الثقة في عالم الناس ليس مبررا مطلقا لإساءة الظن بهم جميعا. ولو كانت هذه الندرة تجعله، أحيانا، يرتاب حتى في الذين يتوسّم فيهم هذه الثقة، ويكاد يقرأها على وجوههم.

36) في كتابي حول **الأخلاق**، تطرّقتُ إلى أحد الأُسَّيْن اللذين تقوم عليهما اللياقة، وهي، للعلم، من الفضائل العظيمة عند أهل الصين، أما الآن، فسأعرضُ للأُسّ الثاني.

تتأسسُ اللياقة على اتفاق ضمني بين الناس مؤدّاه الحرص على كظم وإخفاء كل السلوكات المُعبّرة عن البؤس الأخلاقي والذهني لبني البشر حتى لا يقضوا سواد وقتهم في تبادل الاتهامات إن هم أمعنوا في التعبير عنها جهارا وبلا تحفظ. هو ذا السبب المركزي الذي حملهم على كبحها وتفادي إظهارها إلا في حدود ضيقة جدا.

فاللياقة رديفةٌ للحذر، بينما الوقاحة رديفة للغباوة. إن الدليل القاطع على عته شخص، وسعيه إلى خراب بيته بكلتا يديه هو وقاحته التي تخلق له أعداء كثر. أشبِّهُ اللياقة بالنقود المزيفة التي يُعتبر أي تقتير في إنفاقها دليلا على الخبل وصغر العقل، وأيُّ إسراف في صرفها دليلا على رجاحة عقل. فكل الأمم درجتْ على ختم الرسائل بالعبارة الآتية: خديمُكم المتواضع، كل الأمم إلاّ الألمان الذين حذفوا منها "خديمكم"، بدعوى أنها غير صحيحة ومبالغٌ فيها. أما الشخص الذي يُفرط في التعبير عن معاني اللياقة واللباقة لغيره إلى الحد الذي يضر بمصالحه، فهو أشبه بواهب الذهب بدل النقود المزيفة.

إن البشر الأكثر فظاظة وقسوة أشبه ما يكونون بمعجون الشمع. فهو في ظاهره صلب، غير أنه بقليل من الحرارة يكون قابلا للكسر فيغدو ليّنا، مطواعا يتخذ كل الأشكال التي نبتغيها منه، أي يتشكل على هوانا. بالمثل، فالقساة والشرسون يغدون طيّعين، إلى أبعد حد، بقليل، فقط، من الرقة وبجرعات زائدة من اللطف. إن اللياقة تُذيبُ الإنسان كما تُذيب النار الشمع.

لا أُنكر بأن المهمة ليست سهلة. إذ تُلزم الحكيم بالتعبير للناس، وللناس كافة، وعلى نحو متواصل، عن شهادات تقدير لا تستحقها

الأغلبية الغالبة منهم، كما تتطلب إيلائهم اهتماما زائدا، وهو ما لا يمكن أن يتحقق إلا على حساب سعادته القصوى. هذه السعادة المشروطة بتجاهل الناس، وعدم إيلائهم أدنى اهتمام. فالتوفيق بين اللياقة وعزّة النفس هي ضربة معلّم. وبالتالي فهو أمر غير متيسِّر للجميع.

لا ينبغي للإهانات الخفيفة التي يتبادلها الناس في حياقم اليومية، والتي تُترجم انعدام التقدير والتوقير بينهم، أن تُخرج الحكيم عن طوره. ذلك أن الحكيم يُتوسّم فيه ألاّ يُكوِّن فكرة مبالغة عن شخصه من شأنها أن تنقلب إلى كبرياء وغرور، كما يُفترض فيه أن يُنْزِل الناس منازلهم، ويتعامل معهم على قدر عقولهم، ويتصور كيف يتحدث أي إنسان عن غيره في غيابه. فياله من تناقض صارخ بين هذه الحساسية المفرطة التي يعاني منها بعض الناس كلما تعلق الأمر بأبسط تلميح بنقد يُوَجّه إليهم، وبين ما تلتقطه أسماعهم عندما يُباغتون غيرهم وهم يتحدثون عنهم في غيابهم!

يدرك الحكيم بأن اللياقة قناع هزلي، لذلك فهو لن يخرج أبدا عن طوره إن تململ هذا القناع، أو حتى إن سقط لبعض الوقت عن واضعه، أو حين يستغني عنه لبرهة. فالمُجاهِر ببذاءته شبيهٌ بالمُتعرّي أمام الناس إذ يبدو قبيح المنظر، بشع الصورة تماما كالمُجاهر ببذاءاته على رؤوس الأشهاد.

37) لا تُقلّد أبدا أحدا، ولا تتخذه قدوة لك فيما يجب أن تفعله أو لا تفعله. ذلك أن الأوضاع والملابسات التي تقع فيها الأفعال البشرية لا يمكن أبدا أن تكون متشابهة حد التطابق، كما أن الاختلافات بين طباع بني البشر لابد أن تتولد عنها تباينات في

أفعالهم وردود أفعالهم والتي تصطبغ، دوما، بشروط حدوثها، والملابسات الخاصة التي حدثت ضمنها وفي سياقها. وصدق المثل اللاتيني القائل: عندما يفعل شخصان الفعل نفسه، فلا يكون أبدا الفعل نفسه.

وتصرّف دائما وأبدا بعد نضوج الفكرة التي ستتصرف على ضوئها، واحرِصْ على تقليبها من جميع أوجهها، وأن تكون، بخاصة، مُنسجمة تمام الانسجام مع طبعك وشخصيتك، لا مع طبع فلان وشخصية علان. ذلك أن أصالة التصرف أمر مطلوب، بل وضروري في كل مجالات الحياة، بما فيها شقها العملي واليومي. ومن لم يحرص على العمل بهذه القاعدة العامة، فلابد أن تكون شخصيته في واد وتصرفاته في واد آخر.

38) أنصحك بالاَّ تُناهض رأي أحد. فلو شئتَ أن تُبْعِد الناس عن حماقاتهم، فلن يكفيك عمر جدّ النبي **نوح** الذي عاش، حسب الحكاية، 969 عاماً. كما أنصحك بالامتناع عن توجيه النقد والملامة إلى كل من تخوض معه في أحاديث مختلفة، ولو كان ذلك من باب حُسن النيّة. ذلك أن تجريح الأشخاص أمرٌ هيّن، بينما إصلاحهم صعب للغاية، بل ربما كان من رابع المستحيلات.

وإن بدأتْ حماقات وترّهات تَرْشَحُ من مُحدِّثيك إلى الحد الذي تثير فيه أعصابك، فتصوّرْ نفسك في حضرة تمثيلية هزلية تجري فصولها بين أحمقين. أؤكد لك ولغيرك أن هذا علاج أثبتَ نجاعته في مثل هذه المواقف. والمندور لتنوير البشر وتثقيفهم بالموضوعات الجادة حريٌّ به أن يسعد سعادة قصوى عندما يخرج من هكذا مواقف سالما، مُعافى.

39) أما إن شئْتَ أن يستحسن الناس آراءك، وتكون لها صِدقيَّة بينهم، فلتُعبِّر عنها بهدوء وبلا انفعال زائد. ذلـك أن الانفعـالات القوية تصدر عن الإرادة، وطبيعي أن تتلون الأحكام التي تتضـمّنها بهذه الانفعالات، أي أنها أبعد ما تكون عن المعرفة الهادئة والرصينة. وحيث أن الإرادة هي حجر الزاوية في التكوين البشري، وحيث أن المعرفة تحلُّ فيه بالمقام الثاني، فكل الأحكام الصادرة عن إرادة مهتاجة لابد أن تتماهى مع الإرادة التي هي مصدرها.

40) لا تتلذّذْ بمدح نفسك ولو كنتَ جديرا بهذا المدح. فالغرور نقيصةٌ كثيرة الشيوع بين الناس كافة، بينما الجدارة والاستحقاق هي من الخصال النادرة جدا بينهم. وعندما يستسلم الشخص لنزوة مدح ذاته، وإن بطرق مُداورة، فإن 100/99 من سامعيه سيراهنون على أن الغرور هو الذي يُحركه في هذا الاتجاه. وحـتى إن كانـت أقوالـه تتضمن بعض الحقيقة أو كثيرها، فلن يتحلوا بما يكفي مـن التعقـل والرزانة ليستخلصوه، لأن لهجة الغرور التي قيل به أفسده وانتزع منه كلّ صدقية محتملة. وكم كان **باكون فيرولام** صادقا عندما قال: بعد كل حديث، لابد أن تكون هناك أشياء غامضة وأسئلة عالقة. وقوله صحيح في حال هجو الغير والتشهير به، كما في حال الإطراء علـى الذات وكيل المديح لها. بل وصحيح أيضا حين يكـون هـذا وذاك بمقادير معتدلة، وبجرعات غير مغالية.

41) كلّما انتابتك شكوك حول صـدق أحـدهم، تظـاهرْ بالسذاجة ليُمْعن في كذبه إلى أن ينكشف أمره، وتنفضح مقاصـده. وما أن تنكشف، جزئيا، الحقيقة التي يسعى إلى طمسها حتى تمـر إلى الهجوم. وبذلك، ستُوقعه تناقضاته في الفخ الذي يتربّص به، فيرفـع

التحفظ والكلفة على أقواله لتنجلي، أخيرا، حقيقته للعيان، كاملة غير منقوصة.

42) اعتبرْ شؤونك الخاصة أسرارا، ولا تُظهر لأقرب المقرّبين إليك إلا الجزء الظاهر من شخصيتك، واحتفظ لنفسك بعمقها الذي يُستحسن ألاَّ يعرفوا عنه تفاصيله. فإنْ كشفت للناس أسرارك وعمق شخصيتك، ولو في جوانبها الأكثر براءة وعفوية، فكُنْ على يقين بأهم سيستعملونها ضدك في الوقت والمكان اللذين يُناسبهم، وهو ما سيعود عليك بأوخم العواقب.

عموما، من الأفضل أن تُحكِّم عقلك في ما تقوله وفي ما تسكت عنه، في ما تُظهره وفي ما تُضمره. وبذلك، ستتفادى الغرور في الحالة الأولى، وتفاديه فضيلة، كما ستتوخى الحذر في الحالة الثانية، وتوخيه فضيلة. يتساوى عدد المناسبات التي يكون فيها الإنسان مَدْعُوّا للكلام والصمت معا، والإنسان بطبعه ميّال إلى التلذذ بالكلام الذي يُحقق له إشباعا عابرا، أكثر من ميله للصمت الذي سيجني منه، لا محالة، فائدة دائمة ونفعا على المدى الطويل.

أكثر من ذلك، أنصح العاقل بعدم التلذذ حتى بأحاسيس العزاء التي تهبها له لحظات المناجاة بصوت مرتفع، علما بأن هذه العادة يُستدرج إليها، بسهولة، ذوو الطباع الحية. وإن لم تُقاومها، وقعت في محذور التعود عليها واستمرائها. والشخص الذي يقع في هذا المحذور، على نحو متواتر، سيغدو فكره شقيقا لكلامه، أي سيغدو فكره هو كلامه وكلامه هو فكره، وبالتالي لن يمنع نفسه أبدا من التحدث لغيره دون شعور منه بما يفعله، تماما كما أدمن مناجاة نفسه بصوت مرتفع ومسموع. والحال أن فضيلة الحذر تُلزم الإنسان

بوضع هوّة فاصلة بين أفكاره وأقواله، بين ما يجيش في خاطره وما ينطق به لسانه.

سيُصدّقك الناس طالما لم توقظ فيهم شكوكا حول صِدقيّة أقوالك. وما أن تُوقظها، لِمرّة واحدة، فايئَسْ مِن تصديقهم لك إلى الأبد. فما أن يُلاحظوا عليك تذبذبا في القول حتى ينفضح أمرك وتنكشف لهم حقيقتُك، ويصعب جدا، بعد ذلك، أن تستعيد ثقتهم فيك. ولو وصلتَ في علاقتك بهم إلى هذا الحد، فستكون كمَنْ هوى من أعلى علّيين إلى أسفل سافلين من شدّة الدّوار الذي ألَمَّ بك بعد افتضاح أمرك وانقشاع كذبك. وبِسقُوطك تقتنع بأنك ما عُدتَ صالحا للبقاء في ذلك المكان العالي لِما يُسبّبه لك من ألم داخلي لا يُطاق. فالصدق الذي خوّل لك التربّع عليه بات في خبر كان منذ انكشاف أمرك وانقشاع كذبك! وهذا الألم الحاد إنما هو العَرَض الرئيس لذلك الدوار أو الدوخة التي تئن تحت وطأتها إلى أن وقعت صريعا!

فالناس، عموما، بمن فيهم ذوي الذكاء المتواضع جدا، يمتلكون قدرة هائلة على فكّ مغاليق الشؤون الشخصية لغيرهم، بل يتحولون في هذا الشأن إلى علماء ممتازين في الجبر. إذْ ما أن تُخبرهم بمعطيات طفيفة ومتناثرة حول شؤونك الخاصة، حتى يتكفّلوا باستنتاج الباقي، بل قد يجودون عليك بـ "حلول" لمعضلاتها الأكثر تعقيدا. فلو حكيْتَ لأحدهم حادثة وقعت كل أطوارها على الأرض، دون أن تذكر أسماء الأشخاص الرئيسيين والثانويين الذين شاركوا فيها، وجزئياتها الزمانية والمكانية، والعلامات الدالة عليها ولو بالمرموز، فسيكتفون بما ذكرته، على غموضه، ليستخلصوا منه الحكاية كاملة

اعتمادا، فقط، على ذكائهم العفوي أو العملي. هذا النوع من الذكاء الذي يستمدون منه اعتدادهم بذواهم واعتزازهم بأنفسهم.

إن إثارة فضول متواضعي الذكاء من عامة الناس بهذه الطريقة من شأنه أن يدعم قدراهم العقلية البسيطة إلى الحد الذي تتوصل فيه إلى نتائج وخلاصات ما كانت لتخطر على بالك، باعتمادها، فقط، على معلومات مبتسرة ومتناثرة.

معنى ذلك أنه بقدر ما تكون قدرة الإنسان على استيعاب الكليات ضعيفة، بقدر ما تزداد قدرته على استيعاب الجزئيات والتهام التفاصيل والتقاط الخصوصيات. وهذه المعادلة العجيبة هي التي دفعت الحكماء والعقلاء، على مدار التاريخ، إلى نُصح اللبيب بالتزام الصمت، مُستدلِّين على وجاهة نصيحتهم بحجج كثيرة ومتنوعة. شخصيا، لن أضيف شيئا ذا بال إلى ما قالوه، وسأقنع، بهذا الصدد، بذكر دُررٍ عربية يجهلها الكثيرون رغم أنها تنضح بالحكمة البالغة، وهي:

- لا تقُلْ لصديقك ما لا تُريد أن يعرفه عدوّك.
- سرِّي عبدٌ لي مادمتُ قد أخفيتُه في صدري، فإن أفشيتُه صرْتُ عبداً له.
- الصمت شجرة باسقة، راحة البال هي ثمارها اليانعة.

43) الحيطة والحذر يستحقان أن يشتريهما الحكيم بأغلى ثمن.

44) كما يجب عليه أن يحرص، ما استطاع إلى ذلك سبيلا، على أن لا يُكِنّ عداوة لأحد، بل عليه أن يُضاعف الجهد ليعرف غيره على حقيقته، ومعرفة أساليبه في التصرف والتعامل، ويستحضرها، دوما، بذهنه في الأوقات المناسبة. فهذه هي الطريقة

التي ستجعله يضع كل واحد في مكانه المناسب، ويَخُصَّه بالقيمة التي تناسبه لا أقل ولا أكثر.

ولكي يبنيَ الشخص أسس تعامله، وجملة مواقفه مع الآخرين على أسس رصينة وثابتة، لابد أن يقتنع اقتناعا راسخا، بادئ ذي بدء، بأن الطباع البشرية صعبة المراس، وعصية على التغيير، بل ويستحيل تغييرها جذريا، أو فقط حلحلتها وإحداث تعديلات فيها.

وكلٌ من نسي الصفات الخسيسة الكثيرة لبني البشر، ولوْ للحظة، فهو أشبه بمن تحصّل على مال وفير بشق الأنفس ثم رماه من نافذة بيته. أضمنُ لكل من التزم بنصائحي هذه بأن يكون بمنأى ومنجاة من كل العواقب الوخيمة الناتجة عن الثقة العمياء والحمقاء في بني البشر، والوثوق بصداقةٍ معهم منفلتة من كل عقال.

تجد نصف الحكمة في هذه النصيحة: لا تُحب ولا تكره، وتجد نصفها الثاني في هذه: لا تقُلْ ولا تُصدّقْ. فإن تقيّدتَ بهذه النصائح والتوجيهات، فلابد أن تشيح بوجهك، من تلقاء نفسك، عن عالم يفرض عليك التقيد بنقيضها الذي لابد أن يؤدي بك إلى هلكة مُحققة.

45) لا جدوى من تعبير الإنسان عن مشاعر الغضب أو الكره التي تنتابه بالكلمات أو من خلال ملامح وجهه. أكثر من ذلك، فهذا سلوك خطر، طائش، سوقي، ومثير للاستغراب. لا تعبيرَ عن الغضب إلا بالفعل، وبالفعل وحده. إن الالتزام بهذه القاعدة سيُجنِّب صاحبه السقوط في الغضب الكلامي الذي لا فائدة منه ولا طائل تحته. فالحيوانات السامّة هي المعروفة بدمها البارد.

46) تجنّبْ الحديث بنبرات انفعالية، مهما يكن الوضع الذي تجد فيه نفسك. تلك نصيحة أخلاقية عريقة لا تنتهي صلاحيتها أبدا.

فالالتزام بها يفسح المجال لذكاء مُستمعيك حتى يُفكّكوا أقوالك، ويُقلّبوها من جميع أوجُهها. وبِما أن فَهْم أغلبهم بطيء جدا، فكُن على يقين، لو تحدثتَ بسرعة وانفعال، بأهم لن يُجاروك في ما تقول ولن يستطيعوا أبدا اللحاق بك. وإن أصررتَ على التحدث بانفعالية، فكُنْ على يقين بأنك لن تُخاطب فيهم إلا أحاسيسهم وانفعالاتهم وعواطفهم مُراهنا عليها لوحدها، فتنقلب الآية. فكثرةٌ كاثرة من الناس لديهم استعداد كبير ليسمعوا منك أكثر الحماقات غرابة وشذوذا، لو قُلتها بطريقة لبقة وبنبرة لطيفة ومتودّدة، دون أن تخشى صدور رد فعل سلبي مباشر عليها وعليكَ، أنت قائلُها اللطيف واللبق والمتودّد!

4- بشأن التعامل مع مجريات الحياة وتصاريف الدهر والأقدار والمصير

47) بِمَا أن العناصر المُكوِّنة للوجود البشري تظل على حالها، رغم أشكالها المتعددة والوافرة، فشروط حدوثها كذلك تبقى هي هي، سواء عاش الإنسان في كوخ ضيّق أو في أبهاء قصر فاخر، وسواء أقام في ديرٍ أو في ثكنة.

إن الأحداث والمغامرات والوقائع السعيدة أو التعيسة، رغم غزارها وتكاثرها، شبيهة بمصنوعات الحلواني التي تجد فيها ذات الأشكال الملتوية أو المُبرقعة وغيرها، علما بأنها مصنوعة كلها من عجينة واحدة. كذلك الأمر في عالم الإنسان، فما حدث اليوم لزيد مماثلٌ لِما حدث بالأمس لعمرو، ومع ذلك اقترفه زيدٌ مجدّدا وعلى علاّته. إن مجريات الحياة أشبه ما تكون بالصور المنبعثة من المِشْكال، ففي كل يوم تقع أعيننا على المزيد منها، علما بأنها هي نفسها التي

رأيناها عديد المرّات أمس وأول أمس وقبلهما بكثير أو قليل.

48) قال حكيم: العالم تُدبّره ثلاث قوى: الحذر، القوة، والحظ. وأعتقد، شخصيا، أن الغلبة هي للحظ، أي للصدفة، في هذه القسمة. أتصور العالم سفينةً تمخُر عباب بحرٍ، القَدَرُ فيه هو الرياح الدافعة، بقوة، للسفينة إلى أمام أو إلى خلف. وكل المجهودات الشاقة، أحيانا، التي يبذلها الربّان لتغيير اتجاه السفينة، أو التخفيف من قوة دفع الرياح، ذات تأثير ضعيف جدا. فهي كالمِجدافين اللذين يُحلحلان، بالكاد، اتجاه المركب بعد ساعات من تحريكهما بأيدي الراكبين. وما أنْ يتقدّم، قليلا، حتى تَهُبَّ رياح عاتية لتعود به إلى الخلف. أما إذا كانت حركة الرياح مُساعِدة وإيجابية، أي تجري بما تشتهيه السُّفن كما يُقال، فلا حاجة للإنسان بالمجاديف ولا بتحريكه لها. هناك مثل إسباني معروف يُعبر عن هذه القوة الذاتية الكامنة في الحظ، يقول: امْنح السعادة لابنك وأَلْقِهِ في اليمّ.

تتحول الصدف، أحيانا، إلى قوة ماكرة غير جديرة بثقة إنسان. لكن، من هذا الذي، من جمهرة واهبي الخير، سيُنبِّه الآخذ أو القابض إلى عدم الانخداع باستحقاقه الطبيعي للعطاء، وبوجوب تعفّفه عن الطمع الدائم في المزيد منه؟ إذْ لم يَنلْ ما ناله منه لاستحقاقٍ يُوجِبه، بل لطيبة الواهب وكرمه ليس إلاّ. بهذا الشرط، شرط التعفف، وعدم الاعتقاد في الاستحقاق المُوجب سيُمنّي النفس، وبتواضع جمّ، بإمكان الحصول منه على هباتٍ أخرى رغم عدم جدارته بها، أو جدارته القليلة في أحسن الأحوال.

والدرس الذي يجب استخلاصه من هذا المثال هو أن الصدفة لاتني تُلقّن الإنسان درسا مؤداه أن الاستحقاق البشري هو لاشيء في

ميزان الصُّدف ونِعمها وآلائها. فلو كفر بهذه فليس لـــه أن يُعــوِّل، بالمرة، على جدارته واستحقاقه مهما بلغ شأنه وشأوه.

لو ألقيْتَ ببصرك إلى الخلف، وشَمَلْتَ بنظرة واحدة المســارات المتعرّجة والخدّاعة لهذه الحياة والشبيهة بمتاهة ضخمة، فلابد أن تقــع عيناك على ما لا يُعدّ ولا يُحصى من مسرّات مُضــيّعة ومصــائب مردودة. ولربّما أوْقَعكَ الإحساس الذي ينتابك، حينها، في محــذور التضخيم أو التهويل. ولسوف تعيش هذا الإحساس بالإكثار من لوم نفسك وتوبيخها. غير أن العاقل في هكذا موقف هو الــذي يقتنــع بحقيقة بسيطة جدا، مؤدّاها أن مجريات حياة الإنسان لا تتحكم فيها، فقط، إرادته، بل هي عصارة عامليْن أساسيين:

أولهما، معرفته بتسلسل الأحداث والقرارات التي اتَّخذها بشأنها والتي لا تتوقف عن التفاعل والتشابك. والحال أن الرؤية البشرية، أي عصارة معارف الإنسان، ومهما بلغت من الكمال، تظــل محــدودة بقدرته على الإدراك. لذلك، لابد أن تكون قاصرة عن توقــع كــل شيء، خصوصا الأشياء البعيدة، ومن جملتها الحلول المناسبة لمشكلاته هنا والآن، والتي يجب عليه أن يجنح إليها في اللحظة المناسبة. ففــي معمعان الأحداث الواقعة والقرارات التي يجــب اتِّخاذُهــا بشــأنها، لايتبينُ الإنسان، بما يكفي من الوضوح، إلا اللحظة الماثلة أمام عينيه. وإذا كان الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه بعيــدا، فســيتعذّرُ عليــه، منطقيا، السير باتجاهه سيْرا مباشرا ومستقيما. وغايةُ ما يســتطيعه في هذا الموقف هو تلمُّس الطريق السالكة نحوه مُستعينا في ذلك بحساب الاحتمالات، أي بالمعادلات الرياضية التقريبية. معنى ذلك ألاَّ خيار له إلا خيار التذبذب والتربُّص. غايةُ ما يستطيعه هو اتخــاذُه لقــرارات

على ضوء الحدث الواقع والملابسات التي وقع فيها وفي سياقها، يفعل ذلك ويحذوه أمل دائم في اتخاذ القرار السديد الكفيل بتقريبه أكثر فأكثر من الهدف المركزي الذي وضعه نُصب عينيه.

يجوز تشبيه الأحداث التي تعترض الإنسان في حياته من جهة، والأهداف التي يسعى لتحقيقها من جهة أخرى بِقوّتين تسيران في اتجاهين متعاكسين. وحياته كلها ليست سوى المحطة الأخيرة التي تستقر فيها هاتين القوتين. إن الأحداث الطارئة والأهداف المرسومة هي التي تُشكّل، من خلال تفاعلها، عصارة المسار الحياتي للإنسان ومآله الأخير والنهائي. وقد قال **تيرونس** ما يؤكد هذا المعنى العام: الحياة لعبة نَرْد، إن لم تَحصُل منها على العدد الذي تريد وتشتهي، فاقْنَع بما وضعه القدر بين يديك.

لا جدال في أن الحياة لعبة نرد، الأقدار فيها تخلط الأوراق والناس يلعبون. فمُجريات الحياة وتصاريفها مماثلة للعبة شطرنج. ففي هذه اللعبة، يضع اللاعب، في البدء، خُطته العامة أو الإستراتيجية، غير أنه لا يتحكّم فيها تحكّما مطلقا، بل تظل رهينة أيضا بخُطة خصمه. تلك الخطة المضادة التي تفرض عليه إدخال تعديلات متواصلة عليها. وبقدر تقدُّمه في اللعب بقدر ما تبدو له خطته الأصلية مغايرة، تماما، لتلك التي فرضتها سيرورة اللعب ومنطقه الخاص إلى الحد الذي يعجز فيه عن التعرّف على تفاصيلها، ويقنع، بالتالي، بِتبيُّن خطوطها العريضة وسماتها العامة.

في الحياة شيء، معطى مُلغز، تعلو حقّانيتُه على كل الحقائق. يتعلق الأمر، في تقديري، بحقيقة بسيطة جدا لاتني الوقائع على الأرض تؤكّدها، وحين يُواجهها الإنسان فإنه يظهر إما بمظهر الأحمق

الموغل في حمقه، أو بمظهر الحكيم الراسخ القدم بحكمته وفي حكمته. ولا يكتشف الإنسان حقيقته، في الاتجاهين معا اللذين ذكرناهما آنفا، إلا إذا وجد نفسه وجها لوجه مع هذه الوقائع أو عاشها بنسب متفاوتة من الزخم. ثمة في الإنسان ما هو أكثر فطنة وتفطّنا من دماغه أي من عقله. ذلك أنه لا يتصرف، عندما يكون مُطالَبا باتخاذ قرارات حاسمة، على ضوء معارفه العقلية الرصينة وبِهديٍ منها، بل يتصرف تحت تأثير دفعة داخلية ملغزة. فنزواته غرائز متأصلة في كينونته وعميقة الغور إلى الحد الذي تكون لها الغلبة على ملكاته العقلية عندما يجدُّ الجِدّ وتدق ساعة الحسم في أمور هذه الحياة. ولذلك، تجده بعد كل تصرف، ينتقد تصرفه استنادا على معطيات دقيقة لكنها بئيسة. معطيات استنسخها حرفيا من سيرة غيره, أسقطها على سيرته قسرا. وهذا الغير غالبا ما يتخذه قدوة له في حياته. يتصرف على هذا النحو دون أن ينتبه جيدا إلى أن "ما يصلُح لواحد من بني البشر لن يصلح بالضرورة للبشر كله". وبتصرُّفِه هذا، يكون قد اقترف ظلما بحق نفسه. ووحدها النهاية التي ستؤول إليها حكاية الاستنساخ المسلكي هذه هي التي ستفصل في المسار الذي ستتخذه الأحداث، كما ستحسم في من هو على حق ومن هو على خطأ. وللشيخوخة أيضا، عندما يصل إليها الإنسان، كلمتها الحاسمة في هاتين المسألتين سواء تعلّقتا بعلاقة الشخص بذاته أو بعلاقته بغيره، أو بعموم أشياء العالم الخارجي.

يجوز أن تكون الأحلام التي سرعان ما ينْساها الحالِم عند استيقاظه هي التي تقود خطى هذه الدفعة المُلغزة بداخله، دفعةٌ هي جُماع نزوات وغرائز واندفاعات قد يتصرف بمقتضاها دون وعيٍ منه بذلك، فتخلع

على حياته كلها قاعدة عامة يسترشد بها ويؤُولُ إليها، وتبقى بمنأى عن أي تبدّل أو تغيّر. يتعلق الأمر بتجانس دراماتيكي في تصرفاته يعجز حتى وعيه العقلاني المتردّد والمنخدع والكثير النّطّ والتلوّن عن رَفْدِه به.

لذلك، فالشخص الذي اجْتباهُ القدَر ليُساهم بأعمال جليلة في مجال من مجالات العلم يستشعر بكل كيانه هذه الحقيقة الأساسية، يستشعرها منذ شبابه الباكر استشعارا حميميا وكتوما، فتراه يُسخِّر طاقاتها كلها للوصول إلى هدفه السامي وتحقيق مبتغاه الفضيل كي يكون بمستوى هذا الاجتباء والاصطفاء، يفعل ذلك كما تفعل النّحلة حين تنهمك في تشييد خليّتها.

والحال أن الغالبية العظمى من الناس تُحرّكهم **غريزة الحرص الشديد على الذات**، كما سمّاها **غراسيان**، خوفا على أنفسهم من التهلكة أو ما يرونه كذلك. فالتصرّف على هَدْيٍ من مبادئ مجردة خيارٌ جد صعب، إنه خيار لا ينجح فيه المرء إلاّ بعد طول تعلُّم ومران، وقد لا يُحالفه النجاح دائما، بل قد لا يكون من نصيبه أبدا. زِد على ذلك أن هذه المبادئ المجردة قد لات كون كافية، أحيانا، لتُؤْتي أكلها عكس المبادئ الأولية والملموسة الثاوية في تكوينه الجثماني. فكلُّ الناس يتوفرون منها على نصيبهم لأنها ثمرة تفكيرهم وإحساسهم وإرادتهم. ولا يقوَوْن، بالأغلب الأعم، على معرفتها من خلال مقولات ومفاهيم مجردة فيقْنَعون باكتشافها من خلال تدبُّرهم وتأمُّلهم لمساراتهم الحياتية المخصوصة. وما أن يكتشفُوها حتى يتفطّنوا إلا أنهم سايروها أكثر من اللازم وانصاعوا لأهوائها إلى أن باتت تقود خُطاهم حيث شاءت وأنّى أرادتْ. وبِحسبِ معدنهم وطينتهم فإنها تقودهم إما إلى سعادة أو تعاسة.

49) على المرء أن يستحضر دوما التأثير الذي يُمارسه الـــزمن عليه، وكذلك حركيّة الأمور من حوله. لذلك، يجب أن يستحضر، باستمرار، نقيضها الذي يقع أمام ناظريه. ففي جو السعادة الغـــامر، عليه أن يستحضر زوال النّعم. وفي الصداقة، عليـــه أن يستحضـــر العداوة المحتملة. وفي الجو الرائق، عليه أن يستحضر جوًّا رديئـــا، وفي الحب يستحضر الكره، وفي أجواء الثقة والأريحية لا يجب أن ينســـى أن ثمة خيانة محتملة وندما وشيكا، والعكس بالعكس. فلو عمل المرء بهذه النصيحة لوَجد فيها خزّانا للحكمة لا ينضب يكون زاده الأكبر في حياته كلها، وبفضله سيُواظب على الحذر ثم الحذر، ولن ينخدع، إلا لِماما، في مواجهته لأحداث عابرة وعارضة. زد على ذلك أنـــه سيَسْتبقُ الأحداث، أي الزمن قبل أن يُداهمه على حين غرّة.

وللتجربة أهمية قصوى في هذا المجال، أي في مجال تقدير الأمور حق قدرها، والوعي بلا دوام الأشياء والأوضاع وتقلُّبها الشـــديد. فكما يوجد وضعٌ في مدته الزمنية وجودا ضروريا ومحتوما فيغدو من قبيل "الواقع الذي لا يرتفع"، توجد السنون والأشهُر والأيام أيضـــا التي هي **الأبديّة** نفسها حين تحقُّقها. لكن، لا الأوضاع العـــابرة ولا السّنون الماضية ولا الأشهر ولا الأيام قادرة على الاستئثار بالراهنيـــة هكذا إلى ما لانهاية. فالثابت الوحيد في الحياة هو التغيُّر المستمر[12]. والحكيم هو الذي لا ينخدع بالاستقرار الظاهري والعابر للأوضـــاع والأشياء، فضلا عن قدرته على توقُّع مآلاتها المرشَّـــحة، بـــدورها، لتغيّرات لابد أن تطالها طال الزمن أو قصُر.

قصورُ البشر عن إدراك الأسباب العميقة الخالقـــة للأوضـــاع العابرة والهشة في مجريات الحياة، رغم سريانها الدائم تحت أبصارهم،

هو الذي يجعلهم يتوهّمون بأنها بمنأى هي والاتجاه الذي تأخذه عن أي تغير، والحال أنها حُبْلى ببذور التغير المندورة للحدوث في المستقبل، بينما لا أثر لها على مستوى النتائج التي تمخّضت عنها. لذلك، وتحت سطوة هذا الوهم، تجد الناس يعضُّون بالنواجذ على هذه النتائج، ويتوهّمون بأن الأسباب المُؤدّية إليها، والتي يجهلونها كلية، لابد أن تُفضي، دوما، إلى هكذا نتائج. ويتساوون في هذا الانخداع الجماعي بهذا الوهم الكبير، وبالتالي فهم يتساوون أيضا في المصائب المترتّبة عنه والتي تُصيبهم أجمعين وعلى "قدم المساواة"! والمثل الذائع الصيت في هذا المنحى يقول: إذا عمَّت هانتْ. أما المفكّر المستقل بتفكيره فلا يقع في هذا الوهم المُكلّف، وحتى إن أخطأ في تقديره فإنه يتحمّل، لوحده، نتائج هذا الخطأ في التقدير. وهذه الحقيقة تؤكد ما يذهبُ إليه، وعلى نحو جازم، من أن سبب الأسباب في كل الأخطاء البشرية هو عدم ربط المقدمات بنتائجها والعلل بمعلولاتها.(للتفصيل: راجع كتابي المركزي: العالم بما هو إرادة وتمثُّل).

بَيْد أن استباق الأحداث من خلال توقع نتائجها المحتملة له قيمة نظرية فقط على الصعيد العملي أو التطبيقي. وهو ما يعني أنه لا مجال للتطاول على حُرمة المستقبل من خلال استعجال حدوث ما لن يحدث إلا في وقته وعند نضوج شروط حدوثه. ومن تجرَّأ على هذا التطاول، مرة أو مرات، فلابد أن يتفطّن إلى أنه ليس ثمة من مُرابٍ سيء وشرس من الزمن. ذلك أنه كلّما طلب منه الإنسان تسبيقات على الأداء إلا واشترط عليه فوائد باهظة وثقيلة جدا، كما يمكن أن يشترطها أي يهودي مُراب من مقترض مستعجل.

فقد ينجح المرء باستعماله الجير القوي والحرارة الشديدة في أن يجعل الشجرة تُزهر وتورق بسرعة قياسية، إلا أنه لن ينجح، بكل تأكيد، في الحيلولة دون ذبولها بالسرعة نفسها التي أورقت بها وأزهرت. بالمثل، فالمراهق اليافع يقع في المحذور نفسه حينما يصرف من طاقته الجنسية في أسابيع معدودة ما لا يستطيع صرفه إلا الفحل في الثلاثينيات من عمره، بينما هو، بالكاد، في ربيعه التاسع عشر. قد يجود عليه الزمن الذي يستعجله "بتسبيق جنسي" أو "سُلفة جنسية"، لكن بمقابل. وهذا المقابل هو أن يرهن لديه جزءا معتبرا من طاقته الجنسية المستقبلية، هذا إن لم يرهن لديه حياته كلها على سبيل الفائدة الربوية الباهظة جدا والثقيلة.

هناك أمراض بدنية لا يُشفَى منها الإنسان شفاء نهائيا وملائما إلا إذا ترك لها ما يكفيها من الوقت إلى أن تختفي، رويدا رويدا، من تلقاء نفسها دون أن تُخلِّف آثارا تُذكر. أما إن استعجل شفاءه منها، فقد يجود عليه الزمن بسُلفة /تسبيق يزول، بفضله، الداء في زمن أقل، غير أن ذلك سيكون مقابل فائدة باهظة جدا ستُكلّفه إحساسا بإنهاك مزمن يمتد طوال حياته، بل وسيعاني، جرَّاءها، من آلام شديدة لن تنتهي إلا بموته.

كذلك الأمر لو استعجلت الدولة الحصول على المال في زمن الحرب والاضطرابات، فلابد أن تكون مُجبرةً، لقاء ذلك، على بيع ممتلكاتها وأوراقها الثبوتية بثلث ثمنها الحقيقي أو حتى بأقل من ذلك. ولو تريّثتْ، لسنوات معدودة إلى أن تزول الغُمّة، فستحصل، بكل تأكيد، على ثمنها الحقيقي كاملا غير منقوص.

وأصل المشكل في الحالين هو أن الإنسان في عجلة من أمره،

وهذا ما يجعله يستعجل الزمن أيضا فيُطالبه بتسبيقات مختلفة لقاء تسديدها بأكثر من قيمتها من خلال فوائد مجحفة ومُهينة تُلحق أعظم الضرر به على المدى الأطول.

هبْ أنك بحاجة إلى مبلغ من المال في سفريَّة طويلة، فسيكون بمقدورك توفيره، لا محالة، من مداخيلك الخاصة في سنة أو سنتين، أي شرط ألاَّ تكون مستعجلا. أما لو كنتَ في عجلة من أمرك، فلاشك أنك ستقترضُه من رأسمالك الخاص الذي تقوم عليه ماليّتك. وبهذا، تكون قد طلبتَ من الزمن تسبيقا أو سُلفة لابد أن تكون بفائدة مُكلِّفة ومُثْقِلة لكاهلك على المدى الأطول. فما عساها تكون هذه الفائدة اللعينة؟

إنها حالة من الفوضى تجتاح ماليّتك، وعجزٌ مالي يزداد طرّا ويستحيل التخلّص منه بسهولة. هي ذي الرّبا، بمعناها العام، التي يضرب الزمان بسوطها الحارق البشر المستعجِلين بعد أن يُسلِّمهم تسبيقاته المتنوعة. والمُستعجلون هم ضحاياه أولا وأخيرا.

ليس هناك ما هو أبهظ تكلفة من استعجال الزمن، وحَرْفِه عن مساره الطبيعي وإيقاعه الموزون ومشْيه الهُوينى. فليحذر العاقل من أن يكون له مَدينا بفوائده المُجحفة والمُذلَّة!

50) ثمة فارق جوهري بين مدارك الخاصة ومدارك العامة من الناس، فارقٌ لا تُخطئه العين في الحياة اليومية والعادية. فالعوام يَتمثَّلون الأخطار المحتملة، بُغية تقدير فداحتها، انطلاقا من أحداث مماثلة لها سبق وقوعها، فيقيسونها على هذه الأخيرة، بينما يتمثّلها الخاصة من ذوي العقول الراجحة، كما تتمثل **المُحتمل الوقوع**، عموما، اعتمادا على قدراتها الذاتية، مُستحضرة ومُسترشدة، في

الأثناء، بالمثل الإسباني المأثور: ما سيحدثُ في عام، يمكن أن يحدث بين الفينة والأخرى. وهذا الفارق الجوهري بين هذين النمطين من المدارك منطقي جدا. ذلك أن شرط الإحاطة الشاملة بـ **المُحتمل الوقوع** هو التوفر على ملكة الحُكم، بينما تمثُّله من خلال **الحادث سلفا** لا يتطلّب من صاحبه إلاّ إعْمال الحواس.

وأهمس في آذان الألمعيين بأن يقتفوا، دوما، أثر العقول اللبيبة والمتفطّنة بِجعلهم من هذه القاعدة العامة نِبراسا لهم ومنارة: لا تتراجع أبَدا أمام كُلفة العلاجات وكُلفة الزمن، ولا تستسلم لأي إزعاج أو مضايقة أو حيرة وشتى المعاكسات والحرمانات. لا تتراجع ولا تستسلم إنْ كان ذلك سيُمكّنك من سدّ المنافذ والفجوات التي تتسرب منها رياح التعاسة والشقوة إلى حياتك. وكُنْ على يقين بأنه كلّما كان **الحادث المُحتمل الوقوع** جلَلا وخطيرا، كلّما كان احتمال وقوعه ضعيفا ومُستبعدا. ولعل المثال الأجلى عن صحة هذه القاعدة العامة هو قسط التأمين المدفوع من قِبل المُؤَمَّنين. فهذا القسط لا يعدو أن يكون، بتقديري، قُربانا عموميا وإجماليا يُقدّمه المُؤمَّنون على مذبح العقول الماكرة جدا للمُؤمِّنين.

51) الأفراح كما الأتراح، لا ينبغي أن تُخرج الحكيم عن طوره أو يُفْرط في التفاعل معها. وهذا لسببين اثنين: أولهما، أن مجريات الحياة وتصاريفها معروفة بتقلُّبها الشديد وعدم رُسوِّها على حال، ثانيهما أن ملكة الحكم عند الإنسان معروفة بسهولة وقوعها في الخطإ بالتقدير كلما تعلق الأمر بما فيه خيرُه أو شرّه، أو بما فيه نفعه أو ضرّه. لذلك، لنْ تجد شخصا على هذه البسيطة لم يسبق له أن ندم، ولو مرة واحدة، على ما كان يحقق له في سالف الأيام السعادة

القصوى، أو يُسبِّبُ له التعاسة الكبرى وأشد أنواع العذابات. وكم توفّق **شيكسبير** في التعبير عن هذا الإحساس المتأخر لّما قال في كلمات بليغة وآسرة:

"هزّني من الأفراح والأتراح ما يكفي كي لا أضعُف كما تضعف المرأة كلّما تراءت لها أولى الخيالات والتهيّؤات، وبصيص الصدمات القادمة والدّاهمة."

فالشخص الذي يتحلى برباطة الجأش عند ما تنزل بساحته النوائب مُوقنٌ بأن المصائب المتوقعة في الحياة هي من الغزارة والفداحة بحيث تبدو معها المصيبة الواحدة تُصيبه، ومَهْمَا عَظُم شأنها، حدثا بسيطا وتافها من جملة ما كان يمكن أن يُصيبه. وهذا اليقين عنده نابع من جوهر الإحساس الرواقي الراقي والقاضي، توخيا للحكمة، بوجوب استحضار جميع أوجُه الحياة البشرية ما دُمنا على قيد الحياة، واستحضار المآل الحزين والبائس للوجود البشري كلّما تسلّطت علينا الآلام والعذابات من كل صنف. وحتى يحتفظ هذا الإحساس البشري بكامل طراوته، على المرء أن يُداوم التأمل في أغوار نفسه والغوص في أسرارها وألغازها، والتفكُّر أيضا في منْ حوله. ولو فعل، فسيتبيّنُ، بالمكشوف والملموس، تفاصيل هذه المواجهة غير المتكافئة بين الإنسان والأحداث الدَّاهمة وغير السارة. ومعها، سيستعيد تلك المواقف المسترسلة التي يدُكُّ فيها الأرض تحت قدميه دكّاً تعبيرا منه عن تدمّر واستياء من حدث داهم وغير سار وقع له، ومعها سيقف عند المعاناة التي يُكابدها لأجل الاستمرار في وجود بائس وحياة جوفاء وبلا جدوى.

فلو التزم بهذه التوجيهات الأخلاقية المتمحورة حول الموقف الرواقي تجاه الحياة، فلابد أن يُخفّض سقف تطلعاته وطموحاته،

ولابد أن يتأقلم، بحبور، مع كل مظاهر القصور والنقص الثاوية بالأشياء والأوضاع والناس. وهو ما سيضعه، لا محالة، في وضع أفضل يُؤهّله لتحمُّل المصائب مهما اشتدّت أو اقتفاء السبل الكفيلة بتفاديها.

إن المصائب الكبيرة والصغيرة هي نسغ هذه الحياة. تلك حقيقة عنيدة لا مفرّ من استحضارها آناء الليل وأطراف النهار. ومن سار على غير هذا السبيل، فلن يفرغ أبدا من التشكي والتدمّر والتحسُّر والتلوِّي من شدة الألم مسحوقا تحت وطأة حلقات متتالية من البؤس الصّانعة، في المُحصّلة، لصرح الحياة على هذه الأرض، وكما تَمثّلها **بيريسفورد**. من سار على غير هذا السبيل، لابد أن يرفع كفّي الضراعة إلى الربّ كلما لسعتهُ بعوضة!

بالمقابل، يدرء المجبول على الحذر كل المصائب المُحتملة والوشيكة بحذره الشديد، سواء جاءته من البشر أو الأشياء من حوله. يدرؤها وينجح في ذلك طرّا إلى أن يبرع في هذا الفنّ فيغدو ثعلبا حذقا يقيه حذره الزائد من الوقوع في كل ما ليس مرغوبا كبيرا أو صغيرا، عظيما أو هيّنا، والذي لا يقع فيه إلا من قادته رُعونته المقنّعة وطيْشه الزائد إلى حيث تقوده خُطاه غير المحسوبة.

فما الذي يجعل الإنسان قادرا على تحمُّل حدث مؤلم والصبر عليه، حدثٌ كان يتوقعه فأعدّ له العُدّة؟ هذا ما سنحاول الجواب عنه في ما يلي:

عندما ينصبُّ تفكيره، وبكامل الهدوء، على مصيبة وشيكة فإنه يُقدّر فداحتها ويُقلّبها من جميع أوجهها، ويتمثّلها كمعطى مُنتهٍ يحيط به من خلال نظرة مُجملة، وبعد ذلك، بقليل أو كثير، تقع الواقعة

وتنزل المُصيبة. عندئذ، لن تُمارس عليه تأثيرا زائدا يتجاوز حجمها الطبيعي والواقعي. وهذا هو السر في قدرته على تحمُّلها في سعة.

لنفرض الآن الطرح المعاكس.

فلو داهمَتْهُ وأخذته على حين غرّة فسيتملّكه ذعر وفزع شديد، يعجز معه عن الإدراك الهادئ لمدى فداحتها وخطورتها. وقد يدفعه ذلك إلى إنزالها منزلة الطّامة الكبرى والكارثة العظمى، والحال أنها أقل من ذلك بكثير. والسبب في تهويله هذا هو أنها باغتَتْهُ، فلم تُمكّنه من مُتّسع من الوقت يُلقي عليها فيه نظرة مُجْملة. هو ذا السبب المركزي الذي يجعل الناس يُضخّمون الأخطار المحتملة وهم في دياجير الظلام وفي المواقف التي يغلُب عليهم فيها التردد والتذبذب. وعلاج هذه المسألة يكمن في الاستعداد القبْلي لتلقّي وتحمّل المصائب والذي يرفُد المستعدّ بالوسائل الكفيلة بالتصدي لها أو التأقلم معها على أبعد تقدير.

غير أنه لاشيء قادر على جعل الإنسان يتحمل بهدوء ورباطة جأش مصائب الدنيا كلها أكثر من اقتناعه الراسخ بهذه الحقيقة التي وضعتها على قواعد متينة، بعد نبْشي في عللها ومسوغاتها الأولى، والتي ضمّنتُها كتابي المركزي "العالم بما هو تمثّل وإرادة". وتقول مفرداتها ما يلي: كل حادث كبيرا كان أو صغيرا لا رادّ له. ومعلوم أن الإنسان مجبولٌ على الانصياع لِما لاَ قِبَلَ له به، وما يتجاوزه. معرفته بهذه الحقيقة التقريرية وإذعانه لها يُكْسبانِهِ قدرة على توقّع كل الأحداث والصبر عليها وتحمُّلها، بما فيها تلك التي تأتي وهي مُمتطية صهوة الجواد الجامح للصُّدف، والمُوغلة في الغرابة والخروج عن المألوف. يتحمّلها بصفتها قدرا مقدورا، مُسلّما بحتميتها حتميّة

الأحداث الأخرى المُترتّبة عن قوانين وضعية مُطّردة، والمُساوقة لتوقعات غاية في الدقة والإحكام.

وبهذا الصدد، أُحيل على ما ذكرته في كتابي المركزي عن المفعول المُهدِّئ الذي يتركه الإيمان بالقدر المحتوم في نفوس المؤمنين به، فهو مفعولٌ مماثلٌ للبلسم الشافي. كلٌّ من تشرّب توجيهاتي وتعاليمي حول هذه المسألة، لابد أن يفعل المستحيل من أجل تحمُّل المصائب والمقادير المُباغتة بأريحيّة وطيب خاطر.

لا تخلو الحوادث الصغيرة التي تُزعج الإنسان، بين الفينة والأخرى، من نفع أكيد. أقلُّه أن تضعه في حالة من التأهُّب الدائم لتحمُّل المصائب الكبيرة والذي يُزوّده بطاقة متزايدة تُمكّنه من تحمُّلها، طاقةٌ من الوارد أن يُصيبها بعض التراخي والوهن في الأيام السعيدة. ومن الأمور التي يجب على الإنسان أن يتحصَّن ضدها حالات الانزعاج اليومي والاحتكاكات الصغيرة بالناس الناتجة عن مُخالطتهم، وحالات الشحناء ومواقف انعدام اللياقة الصادرة عنهم تجاهه، وكذلك ثرثراتهم وما شابه. ولن يتحصّن ضدها إلا بتجاهله لها والامتناع عن اجترارها، بل وعدم الانسياق وراء التفاعل معها في حدودها الدنيا. كلٌّ هذه العوارض، ننصحه بتجاهلها كليّة وكأنها لم تقعْ أصلا. الحذر ثم الحذر من التأثّر بهذه الأمور العابرة، بتوافه الأمور، وأنصح، شخصيا، بإماطتها عن طريق الحياة كما تُميط الأرجُل الحصي على طريقها، كما أنصح، بخاصة، بعدم تحويلها إلى موضوعات حميمية للتفكير والتأمل.

52) تعوّد الناس على إدراج حماقاتهم في خانة القدر المقدور، وتلك عادة غير محمودة. وللقطع معها، أدعو إلى الاستيعاب الجيد

لمقطع هوميروسي يُوصي بني البشر بوجوب توخّي الحذر والتبصُّر بحسبانه عربون التحلي بالحكمة.

إن الإنسان لا يُكفِّر عن خطاياه، بحسب معتقده الديني، إلا في العالم الآخر، بينما يؤدي ثمن حماقاته هنا في هذه الدنيا، ولو قُوبل بعضها بصفْح وتجاوز من قِبل المتضرِّرين منها.

فالشخص الذي يبعث فينا الرهبة والخشية ليس هو ذو المزاج الحاد أو الطبع الشرس، بل الشديد الحذر والحيطة. هذا الشخص هو الذي يتبدّى، في عين غيره، رهيبا ومُهاب الجانب. فالعقل البشري هو السلاح الأمضى الذي ترتعد له الفرائص أكثر من ارتعادها أمام مخالب الليث المتوثّبة.

والشخص الذي يُلامس الكمال هو الذي لا يجعله التذبذب فريسة للحاجة وللمُداهم، كما لا يكون أبدا في عجلة من أمره تحت أي ظرف من الظروف.

53) بعد الحذر تأتي الشجاعة وهي شرط من شروط تحقّق السعادة للإنسان. وهاتان الخِصلتان لا يهبهما الشخص لنفسه، بل يرثُ الشجاعة عن أبيه ويرث الحذر عن أمه. غير أنه قادر على رفع منسُوبهما بقرار شخصي يتخذه بعد طول مِران وتمرُّس بهما. ففي هذا العالم الذي تجري فيه أقدار شرسة لا تكاد ترحم، لامناص من أن يتسلّح الإنسان بطبع قوي وشخصية صلبة تقيه عبث الأقدار وعسف البشر. الحياة كلُّها كفاح، وكل خطوة يخطوها على دربها لابد أن يُنازعه فيها منازع أو منازعون. وهذا ما حذا بـ **فولتير** إلى القول: لا نجاح في هذه الحياة إلا بالكفاح المتواصل حتى آخر رمق، تسقط عند نهاية المسار والسلاح بين يديك! أما الجبان الرّعديد فهو الذي

يقضي حياته متحسّرا ومتأوِّها، تاركا غيره يفعل به ما يشاء متى شاء وكيفما شاء. يُكسّر شوكته ويرقص على جثّته ما أن تتكدّس السُّحب في السماء ويَدْلَهِمَّ الحال، أو تظهر، فقط، العلامات الأولى الدالة على ذلك. ولكي لا تقع في هذا المحذور، ضعْ نُصب عينيك هذه القولة، واجعلها زادك الذي لا يفنى: "لا تتراجع أبدا أمام هول المِحن، بل سِرْ قُدُما، متسلّحا بشجاعتك، سِرْ بقدمين ثابتين نحوها لتهزمها وتكسر شوكتها."

ومادام الشك يحوم حول خطورة خطوة تخطوها أو قرار تتخذه، وما دام ثمة أمل في نهاية مقبولة ومشرّفة، فلا تضعف ولا تلين، لا تُفكّر إلا بشيء واحد: المقاومة. لا تيأس أبدا من حلول الجو الجميل والرائق طالما ثمة زرقة في ركن صغير ومُنزوٍ في السماء الفسيحة. بل اذهب حدّ القول وبملء فيك:

"لن تُفزعني أنقاض العالم كله لو خرّت على رأسي".

الحياة كلُّها، بخيراتها ومُغرياتها، لا تستحق من الحكيم أن يُبادلها بأحزان يائس وتهيُّبات جبان. فليس له، والحالة هذه، إلاّ أن يعيش عيشة الجسور القاهر للمِحن بعزم وحزم كما ينصح بذلك مثل لاتيني.

لكن لابد من التنبيه إلى أن الإفراط في الشجاعة يغدو تهوُّرا لا يليق بالحكيم. لذلك، فالخوف الغريزي والطبيعي أمر ضروري، بل وصفة محمودة في الإنسان يُحافظ بها على وجوده ويقي نفسه من التهلكة. كذلك الجُبن هو إفراط ومبالغة في الخوف. وقد توقّف **باكون دوفيراليم** عند هذه المسألة الدقيقة من خلال شرحه لِما أسْماه **رُعبُ الذّعر terro panicus** شرحاً فاق في جودته ما قال

به **بلوتارك** في هذه النقطة بالذات. فقد أرجع كلمة **panicus** إلى جذرها **pan** أي ما يُجسِّد الطبيعة، قبل أن يُضيف شارحا ومُدقّقا في هذا الاتجاه ما يلي: إن الطبيعة زرعت الإحساس بالخوف والفزع في كل ما هو حيّ ليُحافظ به على الحياة ويدفع عنها المخاطر والمهالك.

غير أن الطبيعة أخفقت في وضع اليد على نقطة الاعتدال في كل أشياء هذه الحياة، ومنها الفرق بين الخوف الطبيعي والخوف غير الطبيعي، فَخلطت بذلك بين المخاوف الغريزية والطبيعية من جهة، والمخاوف المُفتعلة والتي لا مُبرّر لها ولا نفع فيها من جهة أخرى. هذا إلى الحد الذي بات فيه كل ما ينبض بالحياة، سيما البشر، محشوّا بصنوف من الرعب تطفح ذعرا وفزعا.

والمُصابون من بينهم بلوثة **الرّعب المذعور** ليسوا، في واقع الأمر، سوى العاجزين عن التمييز بين البواعث المختلفة للإحساس بالخوف. فتراهم يتخيّلونها بكل مكان ويتوهّمونها بكل موقع، فتتبدّى لهم مثيرات الخوف حيثما ولّوا وجوههم إلى الحد الذي يُبررون فيه الخوف بالخوف!

الفصل السادس

بصدد الفوارق بين الأعمار

قال فولتير كلاما جديرا بالإعجاب:

من لا يملك روح عمره، فحياته كلها شقاوة.

سنتطرق في ختام هذه الاعتبارات العامة حول **مبحث السعادة** إلى التغيرات التي تطرأ على الإنسان في أشواطه العمريّة التي تُغطّي حياته كلها.

لنتّفق، بدءا، على أن الإنسان لا يملك من حياته إلاّ عمره، ولاشيء غيره. والفارق النوعي الوحيد في هذا العمر هو أن الإنسان في بداية حياته يظهر له مستقبل مُمتد أمامه، وما أن يدنو من نهايتها حتى تنشغل ذاكرته باسترجاع ماض طويل خلّفه وراءه. وبين هذا وذاك، يدرك سلسلة من التغيرات التي طالت أحواله المزاجية وطبعه الأساسي، تغيرات ذات علاقة بتقدمه في السنّ، والتي يصطبغ بها حاضره بحسب المراحل العمرية التي يجتازها.

في مؤلفي المركزي، وتحديدا في جزءه الثاني، وضّحتُ الأسباب التي تجعل الإنسان في طفولته يهتم بـ **المعرفة** أكثر من اهتمامه بما له صلة بأحوال **الإرادة**. وهذا الاهتمام الخاص هو مصدر غبطته في الربع الأول من حياته، اهتمام يتبدّى له، كلّما تقدّم في السنّ، كجنّة مفقودة تركها خلفه. إن الطفل لا تربطه بغيره إلا علاقات قليلة ومحصورة جدا، كما أن حاجاته أيضا تكون جد محدودة، وهو ما يضع إرادته بمنأى عن الإثارة إلا في حدودها الدنيا. يُكرّس الجزء الأعظم من حياته لتحصيل المعارف، وتبلغ طاقته العقلية مداها في عامه السابع من خلال نموها الباكر والمتصاعد رغم أنها لا تنضج إلا بعد ذلك بكثير. وتبحث هذه الطاقة، بلا كلل ولا ملل، عن مواردها

في هذا العالم الفسيح الذي يبدو للطفل عالما جديدا كل الجدة، جديد في كل شيء، وكلُّ شيء فيه يكتسي حُلّة جديدة تُكْسبه سحر الجِدّة المطلق. لذلك، فسنوات الطفولة عبارة عن شعر موصول، بحسبان جوهر الشعر، كغيره من الفنون، هو وضع اليد على الفكرة الأفلاطونية الثّاوية في موضوعات العالم، أي وضع اليد على ما هو أساسي وجوهري وعلى **المشترك** بين النوع كلّه. ولهذا السبب أيضا، يتبدّى كل موضوع مفرد مُمثّلا ومختصِرا للنوع كله الذي ينتمي إليه، وتُعادل الحالة الواحدة ألفاً من مثيلاتها.

يبدو الطفل وكأنه غير منشغل إلا بالموضوع، أي بالحدث الفردي المعزول اللصيق باللحظة، غير أن هذا مجرد ظن بعيد عن الصحة. في الطفولة، تعرض الحياة نفسها على الطفل بكل ما تختزنه من أهمية، تعرضها في كامل جدّتها وطراوتها التي تمور وتنغل بالانطباعات الفضفاضة والهلامية من خلالها عوداتها المتواترة. فيتركز اهتمام الطفل فيها، دون قصد واضح ومعلن، على استيعاب ماهية الحياة نفسها وأشكالها الأساسية التي تمر أمام ناظريه من خلال مشاهد وأحداث تترى بلا رابط، أي معزولة عن بعضها. تتراءى له الموضوعات والأشخاص كما لو كان الواحد منهم، موضوعا أو شخصا، هو النموذج الأصلي الوحيد المندور للأبدية والمرشح للخلود. فمادام الإنسان يُراوح مرحلة الصّبا واليفاعة، فهو ينظر إلى الشيء المعزول عن أمثاله على أنه النوع كله، أي يختزله في النوع الذي ينتمي إليه. وبمقدار ما يتقدم في اتجاه الرشد، يتقلّص هذا المفعول الخادع الذي تمارسه عليه الموضوعات المنفصلة. وهذا السير طردا في درب الحياة واجتياز أشواطها العمرية هو المسؤول عن

الفارق الجوهري بين الانطباعات التي تُخلّفها الموضوعات الخارجية في الإنسان/الطفل والإنسان/اليافع والشاب وبين مثيلاتها عند الإنسان الكهل والشيخ.

على هذا النحو، تغدو المعارف والخبرات المُكتسبة في سنوات الطفولة والشباب أنماطا ثابتة وخانات أصلية يُودِع فيها الإنسان كل معارفه وخبراته وتجاربه اللاحقة، ويقيسها عليها. تغدو تصنيفات يُرتِّبُ فيها، دون وعي منه بما يفعله، كل مُكتشفاته على طريق حياته. على هذا المنوال، يتشكل وينبني، عبر سنوات طفولته، الأساس المتين لطريقته في التعامل مع العالم من حوله، طريقتُه الخاصة سواء كانت عفوية أو مُشيَّدة. قد يُطوِّرها في مساره الحياتي اللاحق من خلال سدّ ثغراتها وتصحيح نقائصها، إلاّ أنها تظل مُحافظة على خطوطها العريضة ونقاطها المفصلية. وبإيعاز قوي من هذه الطريقة "الموضوعية" في النظر إلى موضوعات العالم، والشاعرية في جوهرها، تلك الطريقة المُلازمة لطفولته والمسنودة بإرادة مهلهلة لا تستخدم كل طاقاتها، ينصرف، وهو طفل، إلى المعارف أكثر من انشغاله بمعطيات الإرادة. وهذا ما يجعلنا نقرأ في وجوه بعض الأطفال مُسحة من الجد والاستغراق في التأمل استلهمهُما **رفائيل**، بقوة، في ابتكار شخوصه الملائكيين في روايته **مادون سيكستين**. وللسبب نفسه، تكون مرحلة الطفولة في حياة الإنسان سادرة، نوعا ما، في سعادة غامرة يمتزج فيها الحنين بالألم حين تذكُّرها في الكِبر. يُكرّس الطفل جدّيته كلها في تشغيل حدوسه إلى أن تُكْسِبه التربية والتنشئة معرفة قائمة على **المفاهيم** لا الحدوس.

غير أن **المفاهيم** قاصرة عن بلوغ ماهية الأشياء والموضوعات، تلك الماهية الموقوفة على الإدراك الحدسي للعالم الذي هو المحتوى

العميق والصحيح لكل المعارف البشرية. والإنسان لا يجب عليه أن يُعوِّل في تحقيق هذا الإدراك إلا على نفسه، فلن يتعلّمه أبدا مهما بذل من جهد من خلال عملية التلقين. وهذا هو السبب في أن قيمته الفكرية والأخلاقية لن يكتسبها أبدا من خارج ذاته، بل تنبثق انبثاقا من أعماقه، أي من كينونته. فلن ينجح كل العلم البيداغوجي لـ **بيستالوزي** في تحويل الغبي إلى مفكّر، أبدا! فمن وُلد غبيا سيموت غبيا، هذا كل ما في الأمر!

والحال أن هذه القدرة على تأمل العالم الخارجي في كامل جدّته وطراوته كما الإدراكات المُتحصّلة منه، والتي يمارسها الإنسان في طفولته هي المسؤولة عن نقش كل تعلّماته بذاكرته إلى أن تغدو عصيّة على المحو. ذلك أن الطفل ينصرف كلية إلى موضوع تعلّمه ويستغرقه بالكامل، كما أنه يتعامل مع الموضوعات التي يُعاينُها بصفتها موضوعات فريدة، بل ولا يوجد غيرها بالمطلق. وبخروجه من هذه المرحلة العُمرية، يكتسب صفتي الصبر والشجاعة من الجهد المضني الذي بذله في التعلّم واكتساب معطيات وفيرة وغزيرة. فالتمثل الخالص للموجودات الموضوعية يكون، دائما، على درجة كبيرة من الروعة، بينما يصطبغ شقها الذاتي الثاوي في الإرادة بمشاعر الألم والشجن. يقودنا هذا المعطى الأساسي إلى الخلاصة الآتية:

كل الموضوعات الخارجية جميلة عند النظر إليها وبشعة في كينونتها أي من خلال وجودها الذاتي. فالموضوعات يتعرف عليها الإنسان في طفولته بنظره، أي من خلال التمثلات أو التصورات، يتعرف عليها كموضوعات لا ككينونة أي كإرادة. وبِما أن وجهَها الأول يُولّد في الناظر إليه سيلا من مشاعر المسرّة والمتعة، في الوقت

الذي يجهل كل شيء عن وجهها الآخر، وجهها الذاتي المُنفّر، فإنه في طفولته ويفاعته وشبابه يتعامل مع كل الصور التي تتدفق عليه من الواقع ومن عوالم الفن على أنها كائنات ترفُل في السعادة القصوى ولا شيء غيرها. يتوهّم أن الصور جميلة وخلاّبة أيضا في كينونتها وجوهرها مادامت كذلك في منظرها ومظهرها. هكذا تتراءى له الحياة بأسرها كجنّة عدن. وجدير ذكره أن الناس كافة يفتحون أعينهم على هذا الجو الفردوسي الحالم عند خروجهم إلى هذه الحياة. وبعد ذلك، وتحت ضغط الحاجة، والتعطّش لمعرفة الحياة الواقعية، وفي أجواء الحركة والتدافع والمُكابدة والمعاناة، يندفعون باتجاه جلبة الحياة ليرتموا في أتونها. فتنطلق رحلة تعرّفهم على وجهها الآخر والوجه الآخر لبعضهم البعض، وجهُ الكينونة أي الإرادة الذي يُصادفونه في كل خطوة يخطونها وحركة يقومون بها. وكلّما طال بهم المسير، ازدادوا اقترابا من المحطة الأخيرة التي تتبدد فيها أوهامهم الكبيرة. لذلك، درجوا على القول عند وصولهم إليها: ولّتْ سنوات الوهم إلى غير رجعة! وكلما طال أمد الرحلة تبددت أوهام أكثر إلى أن تغدو كلها هباء منثورا.

ليست حياة الطفولة إلا ديكورا مسرحيا يتصوره الطفل عن بعد، وفي شيخوخته يُشاهده عن قرب، بل يكاد يكون أقرب إليه من حبل الوريد! السعادة في الطفولة شبيهة بفصل الربيع الذي تكون فيه أوراق الشجر ذات لون وشكل واحد. بالمثل، يتشابه الأفراد في طفولتهم حد التطابق ويتفقون في الصغيرة والكبيرة. وعندما يكبرون تصعد اختلافاتهم وتبايناتهم إلى السطح، رويدا رويدا، فيما يُشبه الأشعة المنبعثة من الدائرة.

إن الركض المتواصل وراء وهْم السعادة هو المسؤول عن تكدير سنوات الشباب وجعلها تعيسة. وهذه السنوات هي الشطر الأول من حياة الإنسان الذي يُفضِّله عن شطرها الثاني. يتغذّى هذا الركض المتواصل من قناعة راسخة لدى الشباب مؤداها أهم سيجدون السعادة، حتما، على طريقهم وفي انتظارهم. غير أن اللهاث وراء سعادة هاربة هو مصدر كل الخيبات والاحباطات التي تقذف بالبشر في متوالية من حالات الاستياء والسخط. ذلك أن الصور الخادعة لأحلام فضفاضة تظل تتقافز أمام ناظريهم مُتخذة أشكالا لنزوات وشهوات تهفو إليها النفوس فيمضون سواد وقتهم بحثا عنها بلا طائل.

لذلك، لاغرو إن كان الشاب غارقا معظم وقته في حالة من السخط على حاله ومآله ومحيطه الذي يُحوِّله إلى شمّاعة يُعلّق عليها بؤسه والخواء الذي يتخبّط فيه. فالبؤس والخواء هما أول ما يتعرف عليه الإنسان في هذه الحياة. لذلك، فأنا موقن بأنه سيربح الكثير والكثير لو انتزع، باكرا، من دواخله، وبمساعدة من الدروس التي يستقيها من تجارب الحياة، الوهم اللصيق بمرحلة الشباب والذي يجعله مُصدِّقا بأن الحياة تَعِدهُ بالكثير من المفاجآت السارة والمسرّات الغامرة. والسبب في كل ذلك هو أن الإنسان قُدِّر له أن يتعرّف على هذه الحياة، أول ما يتعرف، من خلال الشعر لا من خلال الوقائع على الأرض. هكذا تبدو له المشاهد الحياتية التي ترسمها ريشة الفنان بهيجة ووهّاجة فيتعذّب جرّاء قصوره عن رؤيته لها. إنها تتحقق على الأرض في صورة لوحة عاكسة لألوان قوس قُزح. فالشاب اليافع يتطلّع إلى أن تكون حياته عبارة عن رواية واقعية آسرة ولافتة. ومن

رحِم هذا التطلّع الحالم يتولّد الوهم الكبير الذي وصفتُ تفاصيله في الجزء الثاني من كتابـــي المركزي الذي أتيتُ على ذكره. وما يجعـــل هذه الصور المُتخيّلَة ساحرة وفاتنة كونها، تحديدا، صـــورا وليســـت وقائعا. كلّما استغرق المرء في تأملها إلاّ وغمرته حالة قصـــوى مـــن الهدوء والسرور تُوهمه بأنه يمتلك ناصية المعرفة الخالصة. فتحقُّق ذاته مُرادفٌ، في هذا السياق، لامتلاء إرادته، والحـــال أن هـــذه الإرادة، تحديدا، هي مصدر آلامه وعذاباته المتتالية. أحيـــل القـــارئ، مـــرة أخرى، على الجزء الثاني من كتابـــي المركزي بصدد هذه النقطة.

إن السمة الغالبة على النصف الأول من حياة الإنســـان هـــي التطلع الدائم إلى سعادة لا تكتمل أبـــدا وعصـــية علـــى الإشـــباع والإرضاء، بينما السمة الغالبة على نصفها الثاني فتتمثـــل في الإدراك المتأخر لشقوها وتعاستها. ففي هذا النصف، يتيقّن بأن الســـعادة لا تعدو أن تكون خيالا بينما المعاناة واقعٌ، وواقعٌ لا يرتفع. لهذا السبب الوجيه جدا فإن ذوي العقول الراجحة والفهوم اللبيبة يقنعون بحيـــاة خالية من الآلام والأكدار ويزهدون زهـــدا مطلقـــا في الشـــهوات والمتع[1]. المرء في شبابه عندما يسمع طارقا يطرق بابه، يقفز من شدة الفرح قائلا: أخيرا وصل! وفي شيخوخته يقفز مرعوبـــا، مـــذعورا ولسان حاله يقول: تبّا، إنه وصل!

المُميَّزون والألمعيون لا يُحسون بذواقم العميقة إلا في عزلتـــهم المتطابقة مع مزاياهم ومناقبهم، لا من خلال مخالطتهم للغـــير الـــذي تربطهم به مشاعر متضاربة. ففي شبابهم، يُحسون بأهم منبوذون من الناس ومتروكون لحالهم، وفي شيخوختهم يتملّكهم إحساس قـــوي بكوهم تحرروا منهم، وانعتقوا من رُبقة عشرقم. ومصدر إحساسهم

الأول هو جهلهم بالحياة والناس بينما مصدر إحساسهم الثاني والمتأخر، وهو بهيجٌ ورائع، هو معرفتهم العميقة بالحياة والناس. النصف الثاني من حياة الإنسان مُماثل لشبيهه في التقطيع الزمني الموسيقي الأكثر ميلا إلى الهدوء بمقدار ابتعاده عن الصخب الزائد والحماسة الفائضة.

في سنوات الشباب، يتخيل الإنسان هذا العالم، كلّما انصرف ذهنه إلى أمور السعادة والشهوة والمتع الأرضية، كما لو كان جبالا شامخات وعجائب يَعزُّ نظيرها، وكم هي صعبة التسلق والمنال. وفي شيخوخته، سرعان ما يُدرك بأن الأمر كله أوهام في أوهام وسراب في سراب. وهذا الإدراك المتأخر هو الذي يمنحه ذلك الإحساس اللطيف بالهدوء والسكينة، ويدفعه إلى استمراء الحاضر فيتحمّل ويستمتع حتى بأشيائه الصغيرة والبسيطة جدا.

إن التجربة تُكسِبُ الإنسان الناضج نظرة للعالم مغايرة لنظرة اليافع والمراهق بفضل انعتاقه من ضغط الأحكام المسبقة، وقدرته على استباق الأحداث من خلال سلسلة من الفروض والتصورات. ينظر الناضج، أو بالأحرى من أنضَجتْهُ التجارب، إلى مجريات الحياة كما هي على أرض الواقع، وكما هي على سجيّتها. أما المراهق فيُحوِّلها، تحت تأثير الوهم المعجون في أحلام المنام وأحلام اليقظة، إلى متوالية من الأحكام الجاهزة والنزوات العجيبة التي تحجبُ عنه الوجه المشبوه والحقيقي لهذا العالم والوجه الآخر لهذه الحياة. التحرر من الأوهام والتهيؤات والمفاهيم الخاطئة المكتسبة في سنوات الشباب هو أول درس يتوجب على الإنسان استخلاصه من تجاربه الحياتية. وهذه هي أفضل وأجود تربية على الإطلاق يمكن تلقينها للشبّان حتى يعيشوا

أطوار حياتهم بأقل الخسائر الممكنة حتى ولو بدتْ تربية سالبة أكثر ممّا هي موجبة، غير أنها مهمةٌ جادة وليست بالهيّنة.

ولهذا السبب المركزي، يتعين الإبقاء على أفق الطفل ومداه البصري محدودا ما استطاع المُربّي إلى ذلك سبيلا، كما يجب على هذا الأخير أن يحرص على تلقينه مفاهيم واضحة وصحيحة لاتشُوبها شائبة لّبس أو ضبابية، كما وتوسيع دائرتها تدريجيا بعد أن يكون قد استوعب استيعابا دقيقا المُتمَوْضِع والمطروح قُبالته حَالَ تنقيّته من كل ذرة غموض وتشوش حتى لا يستوعبه منقوصا أو على نحو معكوس. ورغم محدودية وبساطة هذه المفاهيم المُلقَّنة له حول أمور الحياة ومجرياتها إلاّ أن اتّسامها بخاصيَّتيْ الوضوح والصدق سيجعلها مُكتفية بذاتها ومستغنية عن توسيع دائرة صلاحيتها بغرض تصحيحها وتقويم إعوجاجاتها وهنّاتها.

فليحرصْ المُربّون على الصبر على هذه الطريقة في تربية الناشئة كي يصْلُب عودها ويكتمل نموّها. وشرطُ ذلك هو منعُ المُتربّين من الاستئناس بالروايات مقابل تشجيعهم على قراءة وتدبُّر السِّير الإنسانية المُنتقاة بعناية لهذا الغرض، من قبيل **سيرة فرانكلين** وقصة **أنطوان ريزير** لـ موريتز وأمثاله.

يُخيّل للمرء في سنوات شبابه أن الأحداث والأشخاص المُميّزين الذين سيكون لهم أثر حاسم في مجرى حياته، سيطفون، حتما وعلى نحو مفاجئ، على سطح أيامه مُطبِّلين ومُزمِّرين. لكن بقدر تقدُّمه في السن ونُضوج نظرته إلى العالم والناس، يُلقي بنظره إلى الخلف فيرمق تلك الأحداث وأولئك الأشخاص الذين انتظرهم بين الفينة والأخرى وقد انسلوا خلسة من باب الحياة يحذوهم حرصٌ شديد بألاّ تراهم الأعين.

فالحياة أشبه بقطعة قُماش مُطرَّزة لا يرى الغُـرّ إلا وجهها في الشطر الأول من حياته، وفي شطرها الثاني، فقط، ينظر إلى ظهرها أو قفاها الأقل جمالا وجذبا للنظر. غير أن هذا الوجه الآخر للقماش، الوجه الخلفي هو الأكثر إفادة وإخبارا بحقيقته إذْ على سطحه تترابط وتتشابك الخيوط الناسجة له.

لن تكون للتفوق الفكري غلبة وسلطة إلا في الأربعينيات من عمر الإنسان. ونضجُه المُتحصّل من التقدم في السن ومن اكتساب التجارب والخبرات قد يتجاوز ذكاءه بما لا يُقاس، ولن يطمع أبدا في أن يحل هذا الأخير محلّ التجارب والخبرات. فتوفُّرُه عليها يمُدُّه بقوة موازية للذكاء العقلي الأعتق المتوفّر لغيره من الأشخاص الذين لازالوا يُراوحون فترة الشباب. وهذه القوة البديلة لا تظهر فوائدها إلا في شخصيته لا في أعماله وإنجازاته.

وكلٌّ من حَبَتْهُ الطبيعة بالتميز العقلي، ويميل إلى العزلة الشعورية والعقلية عن العوام الذين يُمثّلون ثلثي البشرية تعلوه غلالة من النفور من بني البشر، ويميل، تلقائيا، إلى تفاديهم ما أن يتخطى عتبة الأربعينات من عمره. فقد خالطهم وشبع من معاشرتهم حين كان على سجيّته الأولى، وعرفهم حق المعرفة ثم وضع كل واحد منهم في منزلته الحق ولم تعُد تنطلي عليه أكاذيبهم، ولا تُغريه مظاهرهم الخدّاعة، وبات مُوقنا بأنهم دونه بكثير عقلا ووجدانا. وعليه، فلن يكونوا أبدا قادرين على تسديد ما بذمّتهم من ديْنٍ تجاهه. لذلك تجده يتفادى، طوعا، التعامل معهم بقدر عشقه للعزلة عشقا يتناسب مع قيمته الذاتيه والجوانية. يتناول **كانط**، بشكل عارض، هذه المسألة، مسألة النفور من البشر وكُره المجتمع في الجزء الأول من كتابه **نقد ملكة الحكم**.

الشاب وهو في مُقتبل العمر يكون مُقبلا على جلبة الناس وتدافعهم، منخرطا في مكائدهم ودسائسهم الصغيرة، بل ويجد راحة فيها وعزاء. تراه منسجما فيها كما لو كانت من فطرته وسجيّته التي بها خُلِق. غير أن الشاب من هذه الطينة لا يُبشِّر بخير، إذ يُعطي الدليل بسلوكه على نزوعاته السوقية وميله الطبيعي إلى حياة الغوغاء. عكس الشاب الذي يبدو حائرا، شاردا، مترددا وعديم الحيلة أو قليلها وهو وسط جمهرة من الناس، هذا الشاب يُرسل إشارات عفوية دالة على نُبله وسموه وندرة معدنه.

أما السبب المركزي الذي يجعل الشبان يرفلون في حال متواصل من الصفاء الذهني والاندفاع، فهو قصورهم عن إدراك الموت. فالموت لا يتراءى لهم في الأفق المنظور وهم يتسلّقون ربوة الحياة لأنه يُرابط على الضفة الأخرى أي عند النزول من الربوة. الشابّ لا يُدرك الموت بأُم العين إلا عندما يتخطّى قمة هذه الربوة وبعد أن سمع الكثير من أقاويل الناس وحكاياتهم عنه. وفي هذه الفترة من العمر، يكون الإنسان قد فقد الكثير من طاقته المندفعة، وتجفل حماسته، وتخبو جذوة شجاعته لتتغلّب رزانة كئيبة على نزقه الشبابي وتنطبع على قسمات وجهه وملامح طلعته.

ففي فوْرة الصغر والعنفوان يتوهم الشاب بأن الحياة لانهاية لها رغم كل التقولات والمزاعم حول قصرها ونهايتها المحتومة، لذلك يندفع اندفاعا لأجل تبديدها. وما أن يلج الشيخوخة حتى يشتدَّ حرصه واقتصاده في الإنفاق. وكلُّ يوم يقضيه في شيخوخته يُحس كما لو كان مُدانا يقترب زُلفى من حبل المشنقة مع كل خطوة يخطوها على طريق حياته، أو بالأحرى ما تبقّى من حياته.

النظر إلى الحياة بعين الشاب يُظهرها في هيئة مستقبل مُمتدّ، مفتوح وطويل طولاً لا نهاية له، بينما النظر إليها بعين الشيخوخة يجعلها تظهر بمظهر الماضي القصير، تُبصرها العين في بداياتها كما تُبصر الأشياء من الجزء الصغير في النظّارة، وتُبصرها من طرفها السميك عند نهايتها. ولكي يُدرك المرء القِصر الشديد للحياة يلزمه العيش حتى فترة الشيخوخة. وبقدر تقدُّمه في السنّ بقدر ما تتراءى له كل الأمور البشرية كما هي في واقع الحال، بالغة الصِّغر وخاطفة. إن الحياة التي تتراءى حاضرا راسخا في سنوات الشباب يطالها تغيّر جذري عند حلول الشيخوخة، إذ تغدو هروبا حثيثا لظاهر غابر وبارز عابر شبيهة في ذلك بالعدم يخرج من قُمقمه. يمشي الزمن الهُوينى في طور الشباب، ولذلك يكون الربع الأول من حياة الإنسان هو الأكثر سعادة والأطول مدّة، والخازن لذكريات وافرة وغزيرة. فكل واحد من بني البشر بوسعه أن يحكي الكمّ الأكبر من الأحداث التي عاشها في هذا الربع الأول قياسا على عددها الأقل في الرُّبعين التاليين من حياته.

في ربيع العمر، الأيام طويلة جدا تماما كالأيام في فصل الربيع إلى الحد الذي يتضايق منها الإنسان. وفي خريف العمر، على غرار الخريف الطبيعي، تكون أقصر، إلا أنها أصفى وأنقى من الأكدار وأكثر ميلا إلى السكينة والاستقرار.

فلماذا تبدو الحياة يتركها المرء خلفه خاطفة كالوميض ما أن يتخطى عتبة الشيخوخة؟ ما يجعلها كذلك تماهيها مع الذكرى التي يحتفظ بها عنها لما كانت شديدة القِصر بعد تخلُّص ذاكرته من كل توافهها ومن الجزء الأعظم من الذكريات المؤلمة فيها لتحتفظ، فقط،

بالنزر اليسير منها وبأقل القليل ممّا كابده من خلالها. ومثلما تكون الطاقة العقلية دون الكمال فإن الذاكرة أيضا تكون دونه من خلال ممارستها للانتقاء حين تذكُّرها. فلو استنكف المرء عن الاشتغال الدائم على معارفه واستحضار ذكرياته، فلابد أن تنتهي تلك المعارف والذكريات إلى جُبٍّ النسيان. والحال أنه مجبول على الاستنكاف عن تذكّر التوافه والجزئيات، كما وتجاربه وخبراته المؤلمة علما بأن هذا التذكر ضروري، أيما ضرورة، لأجل تثبيتها و"تدوينها" في الذاكرة. وهذه التوافه والجزئيات ما تفتأ تتكاثر وتتفاقم.

كثيرة هي الأحداث والوقائع التي تبدو للمرء في شبابه غاية في الأهمية، غير أن هذه الأهمية المبالغ فيها سرعان ما تتناقص وتتراجع من فرط تواتر هكذا أحداث وتكرارها. تتكرر فتتكاثر ثم تتناسل إلى أن تفقد أهميتها ويخبو وهجها. وهذا هو السبب الذي يجعل المرء ميّالا إلى تذكر سنوات شبابه أكثر من السنوات التي تليها. فبقدر ما يتقدم في العمر أو يتقدم به العمر، تتناقص الأحداث الكبيرة والجديرة بالاستعادة والتذكر إلى أن تختفي كلية من ذاكرته، أو بالأحرى تخلو منها ذاكرته. وحتى إن خطرت بباله، عرَضا، فسرعان ما ينساها على هذا النحو. بكلمة، في الشيخوخة يفرّ الزمان ويُسارع الخطى تاركا أقل القليل من الآثار الشاهدة عليه.

هذا جانب من استنكاف الإنسان عن تذكّر تجاربه وخبراته المؤلمة والمزعجة. أما الجانب الآخر فيتمثل في أنها جارحة لكبريائه في الأغلب الأعم. فجلُّها كان نتيجة لأخطاء ارتكبها بنفسه ولا ينفع، في شيء، أن يُحمِّلها لغيره. بالمثل، ينسى أو يتناسى الأحداث والتجارب القاسية والصعبة على النفس. علما بأن الذاكرة البشرية

تغدو قصيرة جدا لَمّا تُسقط من حسابها التوافه والتجارب القاسية والخبرات المؤلمة. ويزداد قِصرها كلما كان مضمون التجربة أو الخبرة غارقا بالتفاصيل والجزئيات. ومثلما تبدو الأشياء فوق البحر أصغر، فضفاضة ومشوشة كلما ابتعدنا عنه، تبدو السنوات المنصرمة كلما ابتعدنا عنها ومغامراتها التي تّمحي تدريجيا، بل وكل الأفعال التي اقترفناها مع مرور الزمن.

تتضافر الذاكرة مسنودة بالخيال في رسم مشهد من المشاهد الحياتية الذي اختفى منذ زمن طويل، وتستعيده وهو يضجّ بالحيوية كما لو أنه وقع بالأمس القريب إلى أن يغدو أشد قربا من كل الأشياء القريبة جدا إلى الشخص هنا والآن. والسبب في ذلك هو استحالة تصوره بالكثافة ذاتها والزخم نفسه الذي وقع به بالنظر إلى المسار الزمني الممتد والفاصل بين ماضيه وحاضره، كما واستحالة الإحاطة به بنظرة واحدة ومن خلال مشهد جامع. زدْ على ذلك أن الأحداث الواقعة في هذا الفاصل الزمني يسقط جزءها الأكبر في النسيان، فلا تحتفظ منها الذاكرة إلاّ بمعطيات عامة، مجردة وخواطر بسيطة ومبتسرة خالية من الصور الحية والموحية. لهذا السبب، يتبدّى الماضي البعيد والمُجزَّئ من خلال لقطات بصرية قريبا جدا إلى الإدراك البشري حدّ تصوره له وكأنه وقع أمس أو أول أمس، فيختفي الفاصل الزمني ليتبدّى المسار الحياتي كله خاطفا، سريعا كالوميض على نحو مُلغز وغير مفهوم. بل قد يبدو هذا المسار المُجْمل، أي الماضي المتروك خلفنا، أي العمر نفسه، يبدو في سنوات الشيخوخة مُوغلا في الغرابة. والأصل في هذا الإحساس هو أن الإنسان يُبْصر، دائما، قبالته حاضرا جامدا وهامدا. بالمُحصّلة، فكل

الظواهر الفاعلة بداخله تقوم على أساس واحد مؤداه أن الصورة المرئية لكينونته هي التي تتخذ هيئة الزمن وتتلبّس به لا الكينونة ذاتها. كما أنها تقوم أيضا على كون **الحاضر** ينتصبُ في هيئة همزة وصل بين ذاته والعالم الخارجي أي بين الذات والموضوع.

قد نتساءل عن الأسباب التي تُظهر الحياة في سنوات الشباب وهي ممتدة إلى ما لانهاية. أما السبب الأول فيكمن في حاجة الشاب إلى موطئ قدم يضع عليه آماله وانتظاراته التي تكاد لا تنتهي، وتُؤثِّث مساره الحياتي من بدايته إلى نهايته. آمالٌ وانتظارات تحتاج إلى ما يربو عن 965 سنة، وهو العمر الأسطوري المفترض لجد نوح، من أجل تحقيقها كاملة على الأرض. أما السبب الثاني فيكمن في أن الإنسان يقيس تحقق هذه الآمال بالسنوات المعدودة التي أمضاها في حياته على ما قد تنطوي عليها من زخم زمني. والسبب الثالث هو أن ما حدث في هذه السنوات من أحداث متدافعة تتسم بجدة مستمرة أكسبتها أهمية فائقة تجعل المرء يعود إليها تلقائيا لأجل تفكّرها وتذكرها إلى أن ينتهي به الأمر إلى تثبيتها.

الإنسان تسيطر عليه، أحيانا، رغبة عارمة في الإقامة بمكان ناءٍ تفصله سنوات وسنوات عنه، غير أن تلك الرغبة ليست، في واقع الأمر، إلا تعبيرا مُداورا عن أسفه اللاشعوري عن إقامته فيه لفترة في سنوات شبابه. على هذا النحو وأنحاء مشابهة، ينخدع البشر بالزمن المُتقنِّع بألف قناع وقناع. وما على الرّاغب في ذلك إلاّ أن يُجرّب فيحط الرحال بالمكان المرغوب ليتأكدّ بنفسه بأن الأمر كله وهمٌ خالص.

هناك سبيلان إلى بلوغ سنٍّ متقدّمة وبصحة جيدة. سنضرب المثل بقنديلين لتوضيح الفكرة. القنديل الأول تطول إضاءته لأن

فتيلته الرقيقة لا تحترق إلا بالقليل من الزيت، بينما الثاني فتيلته وهّاجة لأن زيته كثير. فالزيت هنا يرمز إلى القوة الحيوية بينما الفتيلة ترمز إلى المادة الصالحة لاستعمالات عدّة بحسب كمية الزيت.

ولو نظرنا إلى الأعمار البشرية بهذا المنطق، منطق القوة الحيوية لَجاز تشبيهُ حياة الإنسان إلى حدود منتصف الثلاثين من عمره بالشخص الذي يتعيّش من فوائد رأسماله، فكلٌّ ما يصرفه اليوم يُعوّضه غدا. وبعد هذا العمر، يغدو أشبه بصاحب إيراد يعيش على صرف رأسماله بعد توقُّفه عن العمل. في المرحلة الأولى، لا يُدرك خطورة وضعه لأن الجزء الأكبر من مصاريفه يُعوّضها على نحو تلقائي وبطريقة أوتوماتيكية، وبالتالي فهو لا يتأثر بالعجز الطفيف الناتج عن الصرف والتعويض الفوري. لكن، ما أن يتراكم هذا العجز المالي حتى يتحول إلى معضلة حقيقية تُحوِّل ضحيته إلى فقير مُقيم يزداد فقرا يوما بعد يوم، ويُصبح إيقاف هذا المسلسل التفقيري المدمر ضربا من المستحيل. وبما أن الخسارة في هذا المثال تتخذ شكل جسم ينهار بالتدريج وبوتيرة متسارعة ومدهشة، فإنها لابد أن تزج بالخاسر في هوة الإفلاس بنهاية المطاف. ولاشك أن الإفلاس الأكثر مدعاة للأسى والحزن هو ذاك الذي يقترن فيه الانهيار المدوي للقوى الحية بزوال النعم وذهاب الثروة، خصوصا وأن الشغف بهذه الأخيرة يزداد طردا مع تقدم الإنسان في السن.

المرء شبيه في علاقته بقواه، منذ سنواته الأولى حتى فترة الرشد، بِمَنْ لازالت له قدرة على تطعيم رأسماله بفوائد تُعوّض فورا نفقاته ومصاريفه إن لم تزِد منه. والعملية نفسها تتحقق في المال بفضل ادِّخارات وصيٍّ عليه مشهود له بالنزاهة ونظافة الذمة. فطُوبى لشباب

محظوظ وشيخوخة تعيسة! والشاب مُطالبٌ بالاقتصاد في استعمال قواه وتوخي الاعتدال في تسخيرها رغم ما قد تُحقّقُ له من مكاسب عظيمة تسير على نحو تصاعدي ومطرد. فقد لاحظ **أرسطو** مثلا كيف أن بطلين أو ثلاثة فقط، من زمرة الذين حققوا انتصارات في الألعاب الأولمبية، هم الذين استطاعوا انتزاع انتصارات أخرى بعد أن تقدّمت بهم سنين العمر. فقد أنهكتهم أشد الإنهاك التمارين المُضنية والماراتونية في شبابهم، فما كان من قواهم إلا أن خذلتهم في شيخوختهم، وما كان للأمر إلا أن يكون كذلك. وما يسري على القوة الجسمانية يسري على الطاقة العقلية التي تتفجر في النتاجات الفكرية والعطاءات الذهنية. إن الأطفال النوابغ، مثلا، والذين يُبهرون في سنواتهم الأولى، سرعان ما ينقلبون إلى أطفال بذكاءٍ عادٍ جدا في سنوات عمرهم اللاحقة. أكثر من ذلك، إن الإجهاد النّاتج عن الإفراط في الاستغراق بدراسة اللغات القديمة هو السبب في انتهاء معظم العلماء إلى حالة من الطفولة العقلية والبلاهة في شيخوختهم.

إن الطّباع البشرية تتأقلم مع المراحل العُمرية، ومؤكدٌ أن الإنسان يعيش أفضل أيامه في سنوات شبابه، بل ويغدو بعض الشبّان محبوبين جدا عند غيرهم. وبعد ذلك، تتغير أوضاع الناس وأحوالهم العامة. فمنهم من يفيض حيوية ونشاطا في نُضجه إلى أن يُجرِّده الزمن من كل قيمة وشأن، ومنهم من يظهر في شيخوخته بمظهر أحسن فيغدو أكثر لطفا ورقّة بفضل التجارب التي راكمها ومُسحة السكينة التي تلفُّه وتُظلّله، وأعتقد أن هذه الحالة شديدة التواتر عند الفرنسيين.

ويُرجّح أن يكون السبب في ذلك انطواء الطبع الإنساني على روح، إما أن تكون روحاً شبابية أو رجولية أو شائخة غالبة متناغمة

مع فترة عمرية محدّدة، أو يقوم العمر نفسه بإدخال تعديلات عليه أو حلحلتها. ومثلما أن راكب السفينة لا يُدرك بأنها تمخر عباب البحر إلا حين تبدأ الأشياء على الشاطئ في الابتعاد التدريجي عن ناظريه حتى تبدو غاية في الصّغر والضآلة، كذلك لا يتفطّن المرء أنه بات في عداد الكهول بل وقطع أشواطا على هذا الطريق إلى أن يتراءى له أقرانه تحت تأثير هذا الوهم وكأنهم لازالوا شبّانا.

بسطتُ أعلاه الأسباب التي تجعل أفعال وأحداث الحياة تترك في روع الإنسان آثارا تتناقص بقدر تغلغله في دورة الشيخوخة. فهو يعيش بكامل وعيه في شبابه وبنصف هذا الوعي في شيخوخته. وبقدر تقدمه في السن يتقلص هذا الوعي فتتلاحق الموضوعات والأشياء أمام ناظريه دون أن تخلّف فيه أدنى انطباع. تغدو، على هذا النحو، شبيهة بالأعمال الفنية التي ما عادت تؤثّر فيه وتُحرِّك سواكنه لفرط تعوُّده عليها والنظر إليها. كلما تراجع وعي الحياة بذاتها، سارت بخطى حثيثة على درب اللاوعي إلى أن تدرك منتهاه فيغدو الزمن هاربا بأشد الإيقاعات سرعة وتسارعا.

في الطفولة تنطبع الأشياء والأحداث الجديدة في الوعي البشري كما تتبدّى الأيام وكأنه لانهاية لها ولا حدّ. وهذا الوضع يُعايشه المرء أيضا أثناء السفر، وللسبب عينه، يحس بالشهر يقضيه في السفر كما لو أنه أشهرٌ أربع يمضيها بين جدران البيت. ورغم هذه الجدّة، فالوقت الذي يبدو له طويلا جدا يغدو في طفولته أكثر طولا من مثيله في الشيخوخة أو بين أسوار البيت. كما أن طاقته العقلية يتسرب إليها العياء والإجهاد، ولو على نحو غير محسوس، جرّاء تعوده الطويل على الإدراكات نفسها إلى أن ينتهي به الأمر إلى حالة

من الفقدان الكامل للإحساس بالأشياء من حوله في شيخوخته. هكذا تغدو الأيام مبتذلة وبلا معنى فيزداد قصرها عن المعتاد في السابق. فساعات الطفل أطول من أيام الشيخ. الحياة تسير بوتيرة متسارعة شبيهة بِكُرة ثلج على سطح مائل. وكما أن دائرة الأسطوانة تتسارع عكسا بقدر بُعدها عن مركزها، كذلك الإنسان يُسابق الخطى كلما ابتعد عن نقطة انطلاقه. على هذا النحو، ينصرم وقته بسرعة فائقة وفي اتجاه تصاعدي. بالمثل، فطول العام في علاقة عكسية مع خارج قسمة العام مقسوم على العمر كلّه انطلاقا من تقويمه في لحظة بعينها. يبدو الزمن للمرء في العام الخامس أطول بكثير من الزمن نفسه في الخمسين من عمره. وهذا الفارق في السرعة الزمنية المحكومة بالعامل النفسي يؤثر، على نحو حاسم، في مجمل نمط عيشه على امتداد أشواطه العُمريّة. ويظهر أثره، على نحو لافت، في الطفولة رغم أنها لا تتجاوز عقدين، وبالتالي تغدو الفترة الأطول في مساره الحياتي والأغنى من حيث الذكريات التي تمور بها. كما يظهر أثره الغلاّب من خلال أحوال الضجر التي تسيطر على هذا المسار بقدر تقدمه في سنوات العُمر. يحتاج الأطفال باستمرار إلى تمضية الوقت في الألعاب، وما أن تتوقف حتى يُصبحوا فريسة للضّجر. بل إن المراهقين، وهم من زمرة الأطفال، أكثرهم عرضة لهذا الضجر الفتّاك بحيث تغدو أوقاتهم الشاغرة هي فزّاعتهم الكبرى.

وفي سنوات الرّشد تتوارى هذه الفزّاعة تدريجيا بينما يزداد الزمن قصرا وتمر الأيام بسرعة مذهلة أشبه ما تكون بالسهم المُنطلق. لابد أن أُنوه هنا بأنني أقصد الشيوخ الأسوياء والمتوازنين لا الأفظاظ والمتنطّعين. فتراجع الوتيرة الزمنية المتسارعة في سنوات الشيخوخة

تدرء عنها كلكل الضجر كما تخف فيها وطأة الشهوات والأهـــواء، فتغدو الحياة فيها أكثر لُطفا وقابلية للتحمُّل مقارنة مع فترة الشـــباب شرط سلامة الصحة من كل داء. لذلك دأب الناس على أن يُطلقـــوا على الفاصل الزمني بين المرحلتين أفضل وأجمل سنوات العُمُر، وهـــو الذي يُمهّد الطريق لفترة يسود فيها نوع مـــن عَتـــه الشـــيخوخة مصحوب بأمراضها وأعطابها.

حقا، فهذا الفاصل الزمني يُمثل أفضل وأجمل سنوات العمر لأنه حافل بالمتع والمسرّات. غير أن سنوات الشباب واليفاعة التي تتـــرك فيها الكبيرة والصغيرة أثرها الواشم على الإنسان وتخلف انطباعـــات شتى وترى، كما يستقبل وعيه كل شيء قادم، هذه السنوات هي، بحق، فصل خصوبة ذهنية وفترة ربيعية تتخلّق فيها البراعم العمريـــة قبل أن تُزْهر وتورق.

لا يتحصّل المرء على دراية عميقة بحقائق الأشياء وكُنهها بفضل استغراقه في التأملات بل بفضل الحُدوس. والحدوس يتحصّلها مـــن الإدراكات المباشرة المُتأتّية من الأثر اللحظي الذي تُحْدثـــه الأشـــياء والموضوعات فيه. فالحدوس، بهذا المعنى، مشروطة بانطباعات نافذة، شديدة الحيوية وعميقة الغور.

وحتى يجني المرء ثمار سنوات شبابه لا مناص من حُسن استعماله لها إنْ طمع في أن يترك أثره في غيره، بل وفي العالم برمته لو تيسَّرت له الأمور فبلغ مرتبة الكمال والاكتمال. تلك المرتبة العظيمـــة الـــتي تنأى بصاحبها عن وضع المُنفعل البسيط بالانطباعات الخارجية. ولو وصل إليها فسيتضاءلُ، على نحو لافت، حجم التأثير الـــذي يمكـــن للعالم أن يُمارسه عليه، وستتحول حياته، وهي على هذا الحـــال، إلى

محطة للفعل والعطاء بعد أن مهّدت لها محطة تحصيل المعارف من خلال الحُدوس، والتي من شأنها أن تمُدّه برصيد ثرّ من الموضوعات المُدرَكة إدراكا مباشرا، أي إدراكا حدسيّا، وبمعنى آخر إدراكا بلا وسائط.

الإنسان في شبابه ميّالٌ إلى الاستغراق في التأملات الجانحة، وعند اكتمال نُضجه يشتد ميله إلى التفكّر والتدبّر. فالشباب هو زمن الشعر والشرود الذهني، بينما النضج هو زمن التفلسف، زمن الفلسفة. الاختلاف عينُه نجده على مستوى الفعل والممارسة. ففي الشباب، تكون الغلبة للانطباعات المُتأتّية من الإدراكات الحسية والتي سرعان ما تُفسح المجال، عند اكتمال دورة النضج، للتأملات الدقيقة والتدبّر الفاحص لأشياء هذا العالم. ذلك أن الصور تتجمّع وتتكاثف، عند اكتمال دورة النضج البشري، حول قدر كافٍ من المفاهيم الدقيقة والمتمايزة الكفيلة بالتخفيف من غلواء الانطباعات المُتأتّية من الإدراكات المألوفة والمكرورة. بالمقابل، تطغى الانطباعات المُتأتية من المرئي في سنوات الشباب، أي النابعة من التعبيرات الخارجية للموضوعات. وهكذا انطباعات هي التي تعتمل اعتمالا في عقول الشبان الطافحة بالحيوية والحُبلى بالتخيلات إلى الحد الذي يختزلون العالم كله في لوحة فنية باهرة ومُدهشة، لوحة يسحرهم منظرها وُدهشهم ما تُمارسه عليهم من تأثيرات وجدانية بالغة أكثر بكثير مِمّا توقظ فيهم من أسئلة وتساؤلات. وهذه الحقيقة بادية للعيان، لا تُخطئها العين عندما تلحظ ما يغلُب من غرور وغنج على سيرة الشبان ومسلكيّتهم العامة.

يتفجّر النصيب الأكبر من الطاقة وأقصى درجات التوتر والحيوية خلال أعوام الشباب التي تمتد إلى العام الخامس والثلاثين

بصفته حدّاً أقصى. بعد ذلك، تتراجع تدريجيا ولو على نحو غير محسوس. غير أن الأعوام التالية التي تمتد إلى الكهولة قد لا تخلو بدورها من اهتمامات فكرية ومكتسبات عقلية. تبلغ التجربة في الحياة المُتحصّلة في الشطر الأخير من عمر الإنسان أوجها فتُمكّن المرء مما يكفي من الوقت والفرص لأجل تقليب الأشياء من جميع أوجهها، وفحصها فحصا دقيقا، والمقارنة بينها بغية وضع اليد على القواسم المشتركة التي تجمعها. كما تُمكّنه من إدراكها في كليتها لا من خلال أجزاءها وتفاريقها. فضلا عن أنه يكون، بفضلها، في وضع أحسن لِتمثُّلها من خلال ترابطها وتسلسلها. على هذا النحو، يغدو الكلُّ في سنوات ما بعد الشباب واضحا وضوح الشمس، فتتعمّقُ معارف المرء وتتوفر لديه معطيات وافرة وضافية عن الموضوعات والتصورات لأساسية في هذه الحياة. تتعمَّقُ معرفته بما كان يظن أنه على دراية كافية به في شبابه، وتصبح معارفه أكثر واقعية وأكثر عقلانية وسائرة في اتجاهات متعددة، ما يُضفي عليها صفة التناسق التي لا تُخطئها العين. هذه المعارف نفسها التي تكون في فترة الشباب متهافتة ومبتورة وأحاديّة الاتجاه. يكون المرء بعد شبابه أقدر على تكوين فكرة متكاملة وموفّقة عن الحياة في كليتها لأنه ينظر إليها نظرة شمولية ومن خلال سيرها الطبيعي، ولأنه ينظر إليها أيضا من باب الخروج منها لا من باب الدخول إليها كما كان الأمر في السابق. وبذلك يتعرّف، عن قرب، على جانبها العَدميّ الغالب في الوقت الذي كان في شبابه مجرد ألعوبة بين يدي وهمٍ مُقيم، وهمٌ كبير مؤداه أن شيئا ما بغاية الأهمية على وشك الوقوع. هكذا يجري، بلا توقف، وراء سرابه الخادع لا يحصل منه على شيء. يُسرف المرء

بشبابه في إنتاج تصورات خيالية حول أشياء وموضوعات هذه الحياة على حساب المعارف المتينة والرصينة التي لا يكاد يكون لها وجود في هذه المرحلة من عمره. وعند اكتمال نضجه، تكون الغلبة لِمَلكة الحكم على الأشياء وتقديرها حقّ قدرها، وترجح كفّة معرفته العميقة والنافذة بها.

على امتداد سنوات الشباب والمرء يُراكم المادة الضرورية لتشكيل تصورات دقيقة عن أشياء هذا العالم وموضوعاته واكتساب رؤى جوهرية وأصيلة بصددها. وخلاصةُ هذه التصورات والرؤى هي أغلى ما يمكن أن يَهبَه عقل كبير لهذا العالم على سبيل الهديّة. غير أن الإنسان لا يصبح مُعلّما محنّكا في شؤون هذه الحياة إلا بعد انصرام سنوات طوال على ولوجه فترة النضج. وبعد ذلك فقط يغدو مرجعا فيها، بل ومنارة يُهتدى بها. ودليلُ ذلك أن أغلب الكُتّاب الكبار لم يُؤلّفوا أفضل كتبهم إلا في خمسينات أعمارهم.

بيْدَ أن سنوات الشباب تظل، وبلا منازع، هي شجرة المعرفة التي لا يجني الشخص ثمارها إلا بعد حين، أي بعد انصرام هذه السنوات. فكل العصور تتوهم أنها الأفضل والأكثر حكمة وأرجحها عقلا حتى وإن كانت، في الواقع، أكثرها مدعاة للشفقة، كذلك الإنسان الفرد يُخيّل إليه أنه أكثر تفوقا وتألقا ممّا كان عليه في الماضي. بيد أن العصر بكامله والإنسان بمفرده يرتكبان، في هذه النقطة، خطأ فادحا وزلّة كبرى. من عادة **اليوم** أن ينظر بازدراء إلى **أمسه** على امتداد سنوات النمو العقلي والجثماني للإنسان. والأدهى من ذلك أن هذه العادة تستمر حتى حين تراجع مقدرته العقلية حيث يغدو وجيها أن ينظر **اليوم** إلى **أمسه** نظرة ملؤها التقدير والحنين بدل

الازدراء والتحقير. فالمرء في السنوات التالية لشبابه، أي في شيخوخته، يجنح إلى التقليل من شأن الأعمال والتقديرات والأحكام التي راكمها في شبابه.

واللافت أن الذكاء، خلافا للطبع والوجدان، تطوله تغيرات في هذه المرحلة على نحو مُطّرد. تغيرات تظهر على تركيبته المادية ووضعه العياني، وبكلمة من خلال طرق اشتغاله. فمعروف أن النمو الذكائي يسير بمنحى تصاعدي إلى أن يبلغ أوجَهُ فيقفل عائدا، بحسب عد تنازلي، إلى حالة من العته والغباء. وهذه التغيرات التي تطول التركيبة المادية للذكاء باتجاه الصعود أو الهبوط تتحكّم فيها المعارف والأفكار والتجارب وملَكة إصدار الأحكام. ففي اتجاه الصعود تسير طردا نحو مدارج الكمال بحيث تبدو ككتلة تزداد طرّا إلى أن يتمكّن منها الوهن لِينفلت كل شيء من زمام العقل وعِقاله.

وبتقديري أن هذه التركيبة المزدوجة الجامعة بين شق ثابت هو الطّبع الإنساني وشق متغير هو الذكاء الإنساني تكون عرضة، على نحو منتظم، لتغيرات تسير في اتجاهين متعارضين، وبالتالي فهي سبب كل التحولات التي يمر منها الإنسان في حياته والتبدل الذي يطول قيمته الرمزية وو ضعه الاعتباري.

في هذا المنحى، أتصور أن أربعينيات العمر هي **نصُّ الحياة** بينما السنوات التي تليها هي **مَتْنها** أو شروحات ذلك النص. تلك الشروحات التي تُمكّن المرء من إدراك المعاني والمغازي العميقة لمجريات حياته في تسلسلها والتي لابد أن تمدّه بالعِبر الغالية والفوائد الجمّة التي ستكون له خير زاد وأفضل معين في سنوات حياته المتبقّية.

تغدو حياة المرء عندما تقترب من النهاية أشبه باللحظات الأخيرة في حفْل تنكّري يطرح فيها المُقنّعون كل أقنعتهم أرضا ويظهرون كما هم في حقيقتهم، بلا قناع ولا مساحيق. في الأثناء، يتمكّنُ المرء من اكتشاف الحقيقة العميقة للناس الذين كان يتعامل معهم على امتداد سنوات عمره. في الأثناء، تتكشف الطباع البشرية بواضحة النهار، وتحصد أفعال بني البشر ما زرعته، كما تنال الإنجازات ما تستحقه من تقدير، وتتلاشى الأوهام والإستيهامات والتهيّؤات. يتبين في هذه الفترة أن الأمور البشرية كلها بحاجة إلى الوقت والمزيد منه لتظهر على حقيقتها وتنكشف ماهيتها جهارا نهارا.

والأكثر إثارة في هذه السيرورة أن المرء يكتشف ذاته لأول مرة بعد أن كان يظن أنه أعرفُ بها من غيره فيكتشفُ أنه جاهل بحقيقتها وأسرارها وألغازها، بل وجاهل بحقيقة الغاية التي كان يلهث وراءها والطموحات التي كانت نفسه تهفو إليها خلال احتكاكه بالناس ومجريات الحياة. كل هذه الأمور لا تنكشف له إلا عندما يُشارف على النهاية. هو ذا القدَرُ العام لبني البشر والسيرورة الإجمالية التي تسير وفقها حياتهم.

وعند وصول المرء إلى هذه المحطة الأخيرة في حياته يغدو مُجبرا على القناعة بالقليل والرضا بالمراتب الدنيا التي لم يكن ليرضى بها في سنوات حياته السابقة. وقد نجد من الناس من لا يرضى، وهو في هذا العمر، بما دون المراتب التي كان يحتلها في سابق عهده لأنه لم يستوعب، بما فيه الكفاية، وضاعة هذا العالم وخِسّة هذه الحياة فتراهُ مستمرا في اللهاث خلف غايات بعيدة المنال، ساعيا إلى تحقيقها بكل ما أوتي من قوة، أو بالأحرى ما تبقّى له من قوة.

إجمالا، ثمة قاعدة عامة تُقرر أنه بقدر ما يتقدم المرء في السنّ بقدر ما يكتشف نفسه وقدْرَهُ وحدوده.

درَج الناس على القول بأن فترة الشباب هي الزمن السعيد في حياة المرء وفترة الشيخوخة هي الزمن الحزين والكئيب. وهذه الدعوى تحتاج إلى وقفة وتدقيق. فلو كانت الأهواء والشهوات قادرة على أن تجعل المرء سعيدا لكانت هذه الدعوى صادقة صدقا مطلقا، غير أن هذه الأهواء نفسها هي التي تتقاذفه في شبابه كالكرة، ذات اليمين وذات الشِّمال، لتمنحه، في نهاية المطاف، أقل القليل من الأفراح والكثير الكثير من الأتراح والعذابات.

وما أنْ يحُطّ الرحال في فترة شيخوخته حتى تنطفئ جذوتها فتتوقّف عن تعكير صفو حياته ليَغلُب عليها سَمْتٌ تأملي ونَفَسٌ فكري. ومردّ ذلك إلى أن معرفته في شيخوخته تنْعتقُ من ربقة الأوهاق والأوهام الغزيرة فتغدو هي السيدة وذات اليد الطّولى وصاحبة الكلمة الفصل.

فالمعرفة المجرّدة خالية من الألم، وكلّما كانت لها الغلبة والأرجحيّة في التصور البشري كان المرء أسعد المخلوقات بإطلاق. والدليل الأقوى على ذلك هو أن كل متعة سالبة بطبيعتها وكلّ ألم موجب بطبيعته، وهو ما يعني أنّ الأهواء البشرية أعجز ما تكون عن منح السعادة لطالبها. لذلك، ما كان للإنسان أن يتشكّى من سنوات أمضاها بلا مُتع. فكلٌّ متعة ليست سوى ترضية وتهدئة لحاجة ضاغطة وملحاحة. ولن يكون الإنسان، قطعا، تعيسا لو حُرِم من المُتع ومن وجهها الآخر الذي هو الحاجة، أي الحاجة إليها. لن يتشكّى من ذلك إلاّ كما قد يتشكّى من رغبته عن الأكل بعد تناوله

لوجبة عشاء دسمة أو رغبته عن النوم بعد نومة عميقة حين تجبره ظروف طارئة على السّهر.

وكمْ كان **أفلاطون** صادقا لمّا علَّلَ سعادة الشيخ بانعتاقها من نيْر الغريزة الجنسية التي ما انفكت تُعكّر صفوه وتكدّر سكينته في سنوات شبابه.

أكثر من ذلك، أتصور أن الإستيهامات الجنسية الجانحة والانفعالات المصاحبة لها هي السبب في مراوحة الإنسان لحالة من العَته المزمن والمثير للشفقة، فيغدو كالممسوس بلوثة الجنس والمملوك لجنِّيه. ولا يعود إليه صوابه إلاّ بعد أن يتحرر من ربقته ويرتفع عنه كلكله لمّا يصير شيخا.

من الواضح، لكل عين فاحصة، أن سنوات الشباب تكسوها مسحة من الحزن والقلق بينما سنوات الشيخوخة تعلوها مسحة من السكينة والرضا بالقدر بصرف النظر عن كل الظروف الخاصة والخصوصيات الفردية للشبّان والشيوخ. ويعود ذلك إلى أن الشاب يكون خادما طيّعا بل وعبدا خاضعا للجنّي الجنسي الذي لا يدعه ينعم بسلام ولو لِسُويعات ليتكبّد، جراء ذلك، أفدح الخسائر وأكبر المصائب فتغدو حياته، كلها، تحت رحمته.

بالمقابل، فإن مصدر سكينة الشيخ هو انعتاقه من أغلال وأوهاق هذا الجنّي الشرس التي رزح تحت وطأها سنوات طوالا من مجمل حياته القصيرة. هذا ما يجعل الشيخ يستمتع في حركاته وسكناته، أيما استمتاع، بمطلق حريته بعد أن تحرر من القبضة الحديدية لهذا الجنّي الجبّار.

فما أن تخبو جذوة الحاجة في الإنسان حتى تتبخّر النواة الصلبة للحياة لتترك المكان لقشرها الهشة. شخصيا، أتصور الحياة برمّتها، في

بدايتها، كملهاة من تشخيص بشر من لحم ودم، وعند نهايتها كملهاة أيضا، لكن من تشخيص بشر آليين يرتدون الأزياء نفسها التي ارتداها البشر الحقيقيون في بدايتها.

عموما، سنواتُ الشباب مضطربة وموتورة بينما سنوات الشيخوخة مندورة للراحة والاسترخاء، وهذه المقارنة كافية للحكم على أنواع المتع الفاعلة بهاتين المرحلتين العُمريّتين الفارقتين. فالطفل يُطلق العنان ليديه في الفضاء الممتد من حوله، وكل الأشياء الوافرة والمُبرقشة التي يُبصرها تثير حفيظته بسبب حواسه الشديدة الطّراوة والعنفوان. كذلك هو الأمر في فترة الشباب واليفاعة حيث الطاقة الزائدة للشاب واليافع تكون سهلة الاستثارة. فالعالم بألوانه الزاهية وأشكاله الوافرة يستثيره أيّما استثارة إلى الحد الذي يَسحبُ عليه خياله الجامح والجانح قيمة تُضاهي ما يُطيقه العالم الواقعي من حوله.

لهذا السبب، تكون فترة الشباب طافحة بالمتطلبات والتطلعات التي تحرم الشاب من نعمة الراحة التي هي الشرط اللازب لكل سعادة قصوى. وبقدر تقدمه في السن، تجنح كل هذه الإثارات من حوله إلى الخفوت والهدوء إمّا لفتورٍ في دمه الذي ما عاد يتفاعل مع الإثارات والمهيجات بسرعة، أو بفضل التجارب التي راكمها والتي أخبرته الخبر اليقين بالقيمة الحقيقية للعالم ومجرياته، وبالمحتوى الحقيقي والحجم الطبيعي للشهوات والملذات وصنوف المتع التي تهفو إليها النفوس.

هكذا يتحرر الشاب، تدريجيا، من سراب الأوهام الكاذبة ومن سلطة الأحكام المسبقة التي طمست الوجه الحقيقي والحجم الطبيعي لمجريات هذا العالم، لتتبدّى، بعد ذلك، أي بعد زوال أقنعة الأوهام

عنها، بأقصى درجات الوضوح. وهذا الوضوح هو الذي يُتيح له بأن يتعامل معها كما هي، فيزداد اقتناعا بأن كل ما ومنْ على هذه الأرض ليس سوى عدم محض وهباء في هباء.

فهذا الوعي المتأخر بمجريات الحياة ومظاهرها الخادعة هو الذي يسحبُ على طلعة الشيوخ والكهول هذه الغلالة من الحكمة والرزانة التي تغدو هي مناط تميُّزهم عن اليافعين والشبّان. وهذه الأيلولة التي انتهوا إليها تُمكّنهم من العيش في جو تغمره السكينة التي لا سعادة قصوى بدونها.

يتوهم اليافع أنه قادر، مهما طال الزمن، على تحصيل كل مباهج الحياة لو اهتدى إلى مقرّها ومستودعها. أما الشيخ فواثقٌ من الحكمة الإنجيلية القائلة: **الكلُّ باطل** وبأن كل حبّات الجوز فارغة ولو كانت مُلوّنة بأشد الألوان الذهبية توهُّجا وسطوعا.

لن يتأكد المرء من الصدق المطلق لحكمة **هوراس** القائلة: **لا شيء يستحق الإعجاب في هذه الدنيا** إلاّ عندما يبلغ من العُمر عتيّا. عندئذ، وعندئذ فقط سيقتنع اقتناعا راسخا ببطلان وتفاهة كل مظاهر الأُبّهة وسلوكات الرّياء التي ينغل بها عالم الناس. بوُصوله إلى هذه المحطة من عمره، تغدو قناعته الكبرى وشعاره العريض الذي يرفعه عاليا هو: انتهى زمن الخرافات! ما عاد يُمنّي النفس بسعادة خارقة للعادة توجد في ركن من أركان هذه الحياة، فلا توجد في قصر عامر ولا بكوخ حقير. لا سعادة إلا تلك التي يستمرئ الإنسان رحيقها حينما يكون بمنأى عن كل صنوف الألم النفسي والبدني. في هذا العمر المتأخر، ما عاد ثمة فرق جوهري بين كبير وصغير ونبيل ووضيع، لا فرق بين الأضداد في موازين دنيا فانية وأرض مندورة

للهلاك والتفسّخ. وهذه القناعة الراسخة هي التي ترفُد الشيخ والكهل براحة بال يعزُّ نظيرها تجعله ينظر إلى مغريات الحياة نظرة ملؤها الشفقة والسخرية والازدراء. كيف لا، وقد تحرر تحررا كاملا من سطوة الأوهام وأدرك الحقيقة العميقة للأشياء وحجمها الطبيعي، وبات موقنا بأن الحياة مهما زوّقناها ونمّقناها وأحطناها بمظاهر البهرجة فإنّ حقيقتها العميقة ومعدنها المغمور سرعان ما تنكشف متدثّرة بأسمال البؤس والشقاء؟! مهما حاول الإنسان تجميلها فإنها تظل هي هي، وفيّةٌ لجوهرها ومخلصة لماهيتها. وماهيتُها هي وجودٌ لا يُقدَّرُ حق قدره إلا عندما يُثمَّن لأنه خال من كل الآلام وألوان المعاناة لا لكونه مُترعا بالمتع والمسرات وحافلا بمظاهر البذخ والأُبّهة (هوراس).

ميزةُ الشيخوخة تكمن في انعتاقها من ربقة الأوهام وسطوتها القاهرة التي تسحب سحرا وفتنة على تمظهرات العالم وترفد الإنسان بجرعات زائدة من الحماسة الجامحة والاندفاع الطائش. فالشيخ أدرى من غيره بعدمية وبطلان وتفاهة كل مظاهر الأُبّهة والفخامة والتعبيرات المصاحبة لها، كما أنه يستشعر من أعماقه التفاهة الثاوية بصُلب كل الشهوات إلى أن ينتهي به الأمر إلى اليقين المطلق بفقر وخواء هذه الحياة وهذا العالم.

الكل باطلٌ هي أول حكمة إنجيلية، ولن يتأتى فهمها واستيعاب مغزاها العميق، بل وتصديقها تصديقا مطلقا إلا لمن بلغ السبعينات من عمره. وتصديقُه لها هو الذي يسحب، تحديدا، مسحة من الكآبة الواقعية على قسمات وجهه لا تُخطئها العين.

درج الناس على الظن بأن المرض والضجر أمران ملازمان لمسارهم الحياتي. بيد أن المرض ليس قدرا مقدرا على الشيوخ كافة،

بينما الضجر يتهدد جديًا حياة الشاب إلى الحد الذي يهابه أكثر ممّا يهاب الشيخوخة نفسها.

فالضجر ليس، بالضرورة، رفيقا للعزلة التي يفرضها التقدم في السن على الإنسان. إنه رفيقٌ ملازم لكل الذين انغمسوا في المتع والشهوات وذاقوا رحيقها حتى الثمالة، ما أدى بهم إلى إهمال ملكاتهم العقلية وحرمانها من الغذاء الذي تحتاجه فأضحت كسيحة، مشلولة.

مما لاشك فيه أن القدرات العقلية تشهد تراجعا بيّنا في سنوات الشيخوخة، غير أن الشيوخ الذين توفروا منها على الزائد في شبابهم سيجدون فيه بشيخوختهم ما يكفيهم لدرء الضجر عنهم بل وهزمه شر هزيمة. هذا فضلا عن أن العقل البشري يزداد مضاءً وسدادا بقدر مراكمته للتجارب والخبرات والمعارف فتغدو أحكامه نافذة ومتبصّرة وأفكاره واضحة، جليّة. وطبيعي أن الشيخ، بهذا العقل المسدَّد، سينظر نظرة كلبيّة (مُستخفّة) إلى كل مجريات الحياة وشؤونها. زد على ذلك أن التجدد المتواصل في رصيد معارفه سيشحذ نموه العقلي في اتجاهات شتى فلا تتوقف طاقته العقلية عن الاشتغال لتُصبح بذلك مصدر إلهام له، وينبوعا رقراقا لسكينته، وعزاء له بقية حياته. وكل هذه المزايا العظيمة ستعوّض له، إلى حد كبير، ما خسره في يقظته العقلية وتوثُّبه الذهني.

ولا ينبغي أن يغرب عن البال أن الزمن البشري يسير بوتيرة متسارعة تحدُّ من الآثار السلبية للضجر، أي تعمل على تحْييدها إلى حد كبير. أما الوهن الذي يصيب بدن الشيخ فليس له ضرر بالغ على مجمل حياته مادام بلا عمل يتطلب منه بذل جهد بدني منتظم.

الطامة الكبرى في الشيخوخة هو الفقر. فإن نجح الشيخ في إبعاد شبحه المخيف عن بقية حياته، وحافظ على صحته فستكون شيخوخته بردا وسلاما، خالية من مشاكل كبيرة ومن الشكوى الكثيرة والتأفّف لسبب أو بدونه. فالشيخوخة الجيدة بحاجة إلى شيئين لا ثالث لهما: اليُسر والأمان. لذلك، لا غرابة إن كان الشيوخ يحبون المال حبّا جمّا، إذْ يُعوّضهم عمّا فقدوه في قدراهم الأخرى التي خذلتهم. فبعد أن تخلى عنهم الإله **فينوس**، ينبرون إلى الإله **باخوس** بحثا في ملكوته عن الفرح. هكذا تحلُّ الحاجة إلى المشاهدة والشغف بالأسفار واستخلاص العبر والعظات في حياهم محل الحاجة الشبابية إلى التعليم والتحصيل والحديث مع آخرين.

ومن الانشغالات الجميلة التي سترفد الشيخ، لا محالة، بسعادة غامرة استمرار تعلُّقه بالدراسة أو الموسيقى أو المسرح في هذا السن المتقدم. فكل هذه الانشغالات، مجتمعة أو متفرّقة، ستجعله محافظا ومتعهدا للملكة العقلية التي سيتفاعل بفضلها مع الموضوعات الخارجية. غير أن هذا المآل المحظوظ لا يكون إلا من نصيب ثلة من الشيوخ الذين يوفرون له أسبابه ويُخلصون لمقتضياته إلى آخر حياهم. فالمرء لا يجني أعظم الفوائد ممّا يمتلكه في ذاته ولذاته إلا في سنوات شيخوخته. أما الذين يجرّون وراءهم تاريخا طويلا من البلادة يمتد إلى شباهم الأول فيبدون للناظر ككائنات آلية، كلما توغلت في سنوات العمر كلما تغلغلت في آليتها. "يفكرون" ويتكلمون ويتصرفون بالطريقة نفسها والإجترارية ذاهّا، ولا تنجح كل الانطباعات الخارجية في حلحلة وخلخلة أفكارهم وتصوراهم ونفخ الجديد في شخصيتهم الجامدة والمتحجرة. والمتحدثُ إليهم كالكاتب

فوق الرمل، سرعان ما يزول وينمحي كل ما خطّه بيده، كما يذهب مع الريح كل كلام مع هذا الصنف من الشيوخ المُتبلّدي الذهن والأحاسيس والحواس. لا تعريفَ لشيخوخة هؤلاء إلا أنهم ميِّتون وهم لا زالوا أحياء.

وتساهم الطبيعة بنصيبها الرمزي في هذه المرحلة من عمر الإنسان التي تغدو **طفولة ثانية**، وهو ما يظهر من خلال عملية إِسنان ثالثة في فم الشيخ (ظهور أسنان جديدة).

مما لاشك فيه أن الخور التدريجي الذي يصيب القوى البشرية عبر سنوات العمر أمر حزين غير أنه محتوم ولا رادّ له، بل ربما كان نافعا طبقا للحكمة القائلة رُبّ ضارة نافعة! فلولاه، لكانت موتةُ الإنسان أمرا شاقا جدا وصعبا على النفس، ذلك أن هذا الخور هو الذي يُمهّد لها الطريق ويُعبّد السبيل. فالميزة التي يمنحها الوصول إلى أرذل العمر هي **الموت الرحيم**، ذلك الموت المُيسّر الذي لا يسبقه سقم ولا تصاحبه تشنجات. بكلمة، الموت الذي لا يحس معه المحتضِر بأنه يموت! ستجد وصفا ضافيا لهذا الصنف من الموت في الفصل 41 من كتابي المركزي "العالم بما هو تمثّل وإرادة".

تُقدّر تعاليم **الأوبانيشايد** الأجل الطبيعي للعمر البشري في مئة سنة، وهي مُحِقّة في ما ذهبت إليه. ولقد عاينتُ، شخصيا، كيف أن **الموت الرحيم** لا يكون إلا من نصيب الذين تجاوزوا التسعين من العمر والذين يقضون بلا أسقام ولا تشنجات ولا غرغرة، بل دون أن يُصيبهم شحوب ولا أن تكون جلطة دماغية هي علة موهم. غالبا ما أدركهم الموت وهم جالسون بعد تناولهم لوجبة من الوجبات اليومية. الحقّ أهم لم يموتوا بل توقفوا عن العيش. والموت

قبل هذا السن يكون، بالأغلب الأعم، بسبب المرض أي أنه موتٌ سابق لأوانه[2].

أعمارُ بني البشر لا هي بالطويلة ولا بالقصيرة [3] لأنها المقياس الذي تُقاس به كل الآجال والأعمار الأخرى. والفرق النوعي بين الشباب والشيخوخة هو الآتي: أُفق الشباب هي الحياة وأُفق الشيخوخة هو الموت. وهذا ما يجعل ماضي الشاب قصيرا ومستقبله ممتدا وطويلا، بينما ماضي الشيخ يكون طويلا ومستقبله قصيرا. فالشيخ ينتظره الموت قُبالته والشاب ترتسم الحياة أمامه. والسؤال هو: أيُّ الأفقين حامل وحابل بالمساوئ والمصائب؟ وهل من الأفضل أن تكون الحياة أمام الإنسان أم خلفه؟

يقول **السِّفر الجامع** الذي يحوي عُصارة التعاليم المسيحية: **يومٌ تموتُ فيه أفضل من يوم تولد فيه**، وهي حكمة بليغة جدا وطافحة بالمغزى والعبرة. في كل الأحوال، من التهور وقلة الخبرة بماهية الحياة أن يتمنى أحد لنفسه أو لغيره حياة طويلة، فمن عاش عمرا أطول شاهد شرّا أكثر كما يقول مثل إسباني.

الحياة كلها، بِزَعْمِ المنجِّمين، لها ذاكرة في الكواكب السماوية لا الأعمار البشرية فحسب. فكل المراحل العمرية التي يجتازها الإنسان تُطابق، بحسب الشهور، عمرا بكامله. معنى ذلك أن الحياة كلها تقتفي أثر هذه الأعمار عبر مراحلها المُتتالية. فكوكب **عُطارد** يتحكّم في العام العاشر، وهذا ما يجعل المرء في هذا العمر يتماهى مع هذا الكوكب في سرعته وشدة حركته بداخل مدار ضيّق. لذلك، فتُرّهة واحدة من ترّهات الحياة كافية لتقذف به في أتون الاضطراب والجلبة. بالمقابل، فإنه يُقْبل كثيرا على التعلم وبسهولة منقطعة النظير

طالما يوجد تحت إمرة هذا الكوكب الربّ، ربّ البلاغة والحيلة.

وعندما يبلغ العشرين، ينصاع كلية لمشيئة **فينوس** فيقع تحت سطوة الحب وغواية النسوان. وفي الثلاثين، يتربع **مارس** على عرش حياته ليجعله عنيفا، مندفعا، شرسا، ومعتدًّا بنفسه. وفي الأربعين، تجده مُنصاعا لمشيئة الكواكب الأربعة الصغيرة ليتسع مدار حياته أكثر، وينحو منحى البساطة والاعتدال في كل شؤونه. ولا يُكرّس طاقته إلا للأمور المفيدة بإيعاز من فضيلة **سيريس، ويملكُ** سكنه ببِركَةِ **فيستا**. وبفضل **بالاس**، يكون قد تعلّم كل ما هو في حاجة إليه في حياته من معارف أساسية، وبتأثير فاعل من **جونو**، ستغدو الكلمة الفصل لزوجته في البيت[4]. وفي الخمسين، ستكون الغلبة في حياته لـ **المشتري** بعد أن قضى معظمُ معاصريه من جيله، فيتملّكُه إحساس قوي بالتفوق على مُجايليه من الجيل اللاحق. في هذه المرحلة من العمر، يُحافظ على قواه كاملة، ويتشبث بما تجلبه له من متع ومباهج، ويُراكم معارف وتجارب غزيرة، كما تكون له سلطة أدبية وأخلاقية على مُجايِليه تتفاوت قيمتها بحسب شخصيته ومكانته في المجتمع.

ما عاد الشخص في الخمسينات من عمره يتقبّل الأوامر والنواهي، بل تحذوه الرغبة الشديدة في أن يتحكّم، بدوره، بغيره. لذلك، فلا غرابة إن كان هو الأكثر أهليّة للريادة والقيادة والرياسة في محيطه الأقرب. في السّتين، يحل كوكب **زُحل** على بسيطة العمر لترجح كفّة التؤدة والصلابة كصلابة الرصاص في الشخصية البشرية. يقول **شكسبير** بهذا الصدد: يظهر جُلُّ الشيوخ بمظهر الموتى، شاحبون، متثاقلون، جامدون جمود الرصاص! (عن: **روميو وجولييت**).

أخيرا، يحطّ ربُّ السماء **أورانوس** الرّحال لتدُقَّ معـــه ســاعة الرحيل. ستلاحظون بأنني لم آتِ على ذكر **إيروس** الـــذي سُــمِّي، على نحو متسرع وغير مُوفق، نيتون. وهذه مناسبة لكي أبيّن ارتباط البداية بالنهاية. فـــ **إيروس** تصله صلة ملغزة بالموت بحيث تَحـــوّل عند المصريين القدامى، بحسب ما ورد عند **بلوتارك**، إلى واهب الحياة وآخذها، وهو ما تُطلق عليه التسمية المزدوجة: أوركوس / أمنتيس. (الأول هو كُويْكب رامز لإله جهنّم في الميثولوجيا الرومانية، والثاني فضاء فسيح في النصف الشمالي لكوكب المرّيخ).

هوامش وإحالات

الفصل الثاني:

1) لا تتوقف الطبيعة عن الرقي في مدارج التطور والكمال منذ الحركة الآلية والكيميائية في المرحلة اللاعضوية إلى المرحلة النباتية. وطيلة هذا التطور، لاتني تتلذذ بمتعها الصامتة. ومن هذه المرحلة الأولى، انتقلت إلى المرحلة الحيوانية التي شهدت بزوغ فجر الذكاء والوعي ثم إلى المرحلة البشرية بفضل دفعة أخيرة وجهد أخير. وقد بلغت الطبيعة، بفضل الإنسان العاقل أو المفكّر، غايتها الأخيرة والهدف الذي تجري وراءه كل الخلائق. وعلى هذا النحو، جادت الطبيعة بأحسن ما لديها وأصعب ما فيها.

غير أن الفهم البشري نفسه مراتب ومنازل، لا يبلغ، إلا لماما، أوج ذكاءه، أو ما ندعوه بالذكاء الخارق. ذلك أن هذا المنتوج الذهني هو أرقى ما يمكن أن تجود به الطبيعة على مخلوقاتها وأندر ما يمكن أن نعثر عليه في أرجاء هذا العالم الفسيح. فمن خلاله، تتبدّى المعرفة المجلوة والموسومة بالصفاء الذهني، وفيها يتجلى العالم كله في أبهى وأكمل وأزهى صوره وتمظهراته. وعليه، فالمرء الذي حبته الطبيعة بهكذا ذكاء رُزِق أنبل وألذّ ما في هذه الدنيا.

فقد أوُتي مصدرا للمتع تبدو معه كل المصادر الأخرى غاية في الصِّغر والضآلة. وبالتالي لن يحتاج من العالم كله إلاّ أن يُمكِّنه من ظروف مثلى لجني ثمار هذه المتع.

وحدها المتع العقلية عليا بكل المقاييس، وما دونها بأسفل سافلين وتقع تحت نيْر الإرادة التي هي جُماع أمانٍ وآمال لا تنتهي ومخاوف متناسلة وغايات متجددة مرغوبة باستمرار وبنهم شديد. والحال أنها لا تتحقق، إن تحققتْ، إلا بثمن باهظ جدا قوامه آلامٌ ومكابدة ومعاناة. وحتى في حال تحقُّقها بعد جهد مُضنٍ فسرعان ما تصيب اللاهث خلفها بإحباط تلو إحباط.

بالمقابل، بفضل المتع العقلية تتبدّى الحقيقة ساطعة جلية تغشى الأبصار. في عالم الذكاء، لا مجال للألم، إذ كل شيء فيه يسبح في مدارات المعرفة والدراية. غير أن هذه المعرفة لا تتأتى للمرء إلا بمقدار تقدّمه في مراتب الذكاء ومدارج الألمعيّة. إذ كلٍّ ما في هذا العالم، لن يُفيد، في شيء، من هو بلا فكر!

ولأن كل الأمور لا تخلو من بعض سلبيات فثمة، للأسف، سلبية ملازمة لهذا الفوق العقلي تعبر عن نفسها من خلال هذه المعادلة: كلما زاد ذكاء المرء زادت معاناته. وبالتالي فإن بلغ من الذكاء أوجه لا بد أن يطاله الحد الأقصى من المعاناة.

2) العوامية أو المسلكية السوقية هي حالة بشرية تكون فيها الغلبة للإرادة (الإندفاعة الشهوانية) على الفهم (العقل) حدّ تبعية هذا الأخير للأولى وخضوعه الذليل لها. وعندما يغدو هذا الخضوع وحالة التبعية خالية تماما من أي أثر للذكاء، وتقصر عن التفاعل مع كل البواعث، من أكبرها إلى أصغرها، فستخبو جذوة الفهم

ويغدو في حال من العطالة المطلقة وقاصر عن إنتاج أفكـــار. إن الإرادة الخالية من أي أثر للفهم هي أدنى وأحط ما يمكن أن تجده على هذه الأرض. في مثل هذه الظروف، تنشأ المسلكية السوقية والروح الرعاعية، وتغدو الحواس هي النشاط الذهني في حـــده الأدنى ويخلو لها المجال لتبث في كل ما يُعرَض على الشخص من مُدركات وانطباعات. فالسوقي، بهذا المعنى، يكون جاهزا لتلقي كل الانطباعات والتقاط كل ما يدور حوله ولو كان من حجم دبيب نمل. كل حادث، على تفاهته، لابــد أن يــثير اهتمامــه ويسترعي انتباهه. وهذا النزوع فيه ينفضح على تقاسيم وجهــه وكل مظهره الخارجي. لذلك، لا غرابة إن كان مظهر الســوقي مُنفّرا جدا لأنه يعكس إرادته التي تستوعب بالكامل وعيه. إرادة دنيئة وأنانية، وفيها من الخبث ما فيها.

الفصل الرابع:

1) لسان حال علية القوم، من خلال حرصــهم الشــديد مظــاهر البهرجة والأبهة والفخامة وحب البروز واستعراض النعم من كل صنف، يقول: سعادتنا نستمدها من غيرنا، مقرُّها ومســتودعها هي رؤوس الآخرين (شوبنهاور).

2) يقول مثل لاتيني: معرفتك لاشيء مادام غيرك لا يعــرف أنــك تعرف!

Scire tuum nihil est, nisi te scire hoc sclat alter.

3) الشرف النبيل هو الابن الشرعي للكبرياء والجنون معــا. ســتجد النقيض المباشر لهكذا تعليمات في النص الكوميدي "الهوس الدائم"

El principe constante، خصوصا من خلال هذه العبارة: البؤس هو الأعدل قسمة بين الآدميين على هذه الأرض. ومن المثير، فعلا، ألاَّ يجد بعضهم هذه الكبرياء المغالية إلا في المسيحية التي، وللمفارقة، تجهد لتلقين أتباعها قيم التواضع الجمّ وخفض الجناح إلى أبعد مدى. فهذا الشرف الفروسي النبيل لا وجود له إلا في البلاد المسيحية. وتقديري أنه ليس من المسيحية في شيء، بل متحدر من النظام الإقطاعي الذي يعتبر فيه كل نبيل نفسه سيدا وحاكما صغيرا لا يعترف بأي قضاء بشري ينتصب فوقه، فيحيط ذاته بسياج من القداسة المتوهمة ويُحرّم أي مساس بها أو اقتراب منها. وأي مسٍّ بها، سواء طال البدن أو "الكرامة"، هو، في عرفه، جريمة لا تُغتفر لا يغسلها إلا الدم المراق. ومن هؤلاء النبلاء، انتقل قانون المبارزة إلى طبقات أخرى من علية القوم لتتحصّن به ضد أي مساس بما تراه كرامتها أو شرفها المزعوم. ولو أن قانون المبارزة كان ضربا من الحكم أو القضاء الرباني خلافا لقانون الشرف النبيل إلا أنه تحوّل، فيما يبدو، إلى تطبيق للثاني على الأرض. وهذا التطبيق يحتكم ويتحجج بالقاعدة الآتية: من لا يُقيم اعتبارا لحكم الناس لن يذعن إلا لحكم الربّ.

غير أنه لا بأس من الإشارة هنا إلى أن "حكم الرب" ليس أمرا مقصورا على المسيحية، بل نجد له أثرا في البرهمانية بعصور غابرة، قرونا قبل ظهور المسيحية التي لا زالت تحتفظ بثلة من رواسبه وبقاياه.

4) ما بين عشرين إلى ثلاثين ضربة بعُصيّة (عصا صغيرة) على مستوى المؤخرة هو الخبز اليومي للصينيين، يتلقونها برضى من

قِبل المتنفّذين تحت ذريعة تأديبهم وتقويم إعوجاجهم.

5) سأحاول الكشف عن الأسباب الحقيقية وراء تقاعس الحكومات عن مكافحة ظاهرة المُبارزات، خصوصا في الجامعة. هذا مع الإشارة إلى أن الأمر هيّن جدا لو صدقت نواياها في هذا الاتجاه، غير أنها تتحجج دوما بفشلها في هذه المهمة.

بما أن الحكومات عاجزة عن تسديد المقابل النقدي الكامل لقاء الخدمات التي يقدمها لها الموظفون والأُجراء فإنها تُسدِّد لهم رمزيا ما تبقى في ذمتها من خلال مظاهر التشريف والتبجيل الذي يتخذ شكل ألقاب وتشريفات وأوسمة وأزياء مهنية. لذلك، من مصلحتها، حفاظا على هذا التعويض الرمزي، أن تعتني وتبعث الروح في التمظهرات الاجتماعية للشرف. وفي هذا الاتجاه، تستنجد بالخدمات القصوى للشرف النبيل الموقوف على النبلاء لِيُعضِّد خدمات الشرف االبورجوازي الذي يعني الطبقات الاجتماعية الأخرى. فمثلا، بانجلترا حيث الضمانات التي يستفيد منها عسكريون ومدنيون كبيرة ومغرية، لن تجد أثرا لطقوس الشرف النبيل وشيء اسمه الاحتكام لقانون المبارزة، بل يكاد القضاء على هذا القانون المشؤوم يكون نهائيا. وعندما يتم الاحتكام إليه، لماما، يكون محط سخرية لاذعة ويُنظر إليه كحماقة بشرية مثيرة للشفقة. وساهم في تراجعه الكبير انخراط جمهرة من اللوردات والأميرالات والجنيرالات في مكافحته والسعي إلى اجتثاث بذرته من التربة الإنجليزية.

6) تسمية المنجزات بالأفعال تبخيسٌ لها، فهي أرفع قدرا وأعلى شأنا. فالفعل هو نتاج لمثير خارجي، وبذلك فهو لا يعدو أن

يكون تعبيرا عن شيء معزول وانتقائي مندرج كلية في نظام الإرادة بما هو عنصر عام وبدائي في هذا العالم. بالمقابل، يمتاز المنجز الكبير والجميل بالديمومة والمندورية للأبدية بالنظر لعلوّ كعبه بين الناس كافة، ولصدوره عن عالم الذكاء، ذلك الذكاء البريء والخالص المرفرف عاليا والنّافث لعطره الزكي في أبهاء هذه العالم، عالم الإرادة.

ومن جملة مزايا المجد المُتحصّل من الأفعال، بالمعنى السالف، تلك التي تُمكّن صاحبه من انتشار كبير وتكريس واسع النطاق يمتد لأوروبا كاملة فيتردد اسمه في كل ربوعها. بالمقابل، فالمجد المتحصّل من المنجزات، بالمعنى السالف أيضا، مجدٌ يسير الهُوينى، لا يلفت إليه نظرا ولا يشد انتباها. ينطلق واهنا ثم تزداد قوة انتشاره وشيوعه طردا، ولا يبلغ أوجه إلا بعد قرن ونيف ليستمر، بعده، استمرار المنجزات إياها على قيد الحياة وبمنأى عن الضياع والتلف. عكس مجد الأفعال الذي ينطلق قويا، مدويا ويستمر واهنا، باهتا ومتلاشيا إلى أن يصبح في ذمة النسيان وفي جُبٍّ شبح ماض سحيق.

7) إذا كان إعجاب المرء بنفسه صادقا لا تصنُّع فيه، فلا يُضيره في شيء إن لم يُشاطره غيره هذا الإعجاب خصوصا وأننا نعلم بأن الناس لا ننتزع منهم إعجابا بشخصنا إلا بشق الأنفس. أسعد الناس هو المُعجب بنفسه إعجابا صادقا ليس له ما يفعل بمصادقة الغير عليه. ذلك أن ربطه بهذه المصادقة من شأنه أن يُعكّر صفو سعادته بلا جدال!

الفصل الخامس:

1) كما أن الأبدان تتدثر بالملابس تتدثر الأذهان بالأكاذيب. كل ما في البشر كذب في كذب، أقواله وأفعاله ووجوده. ومن هذه الألبسة والأردية الخارجية ترشح حقيقته العميقة وسريرته ومكنوناته مثلما تُقرأُ تفاصيل بدنه على ثيابه.

2) يتفق الناس على أنهم يتحملون عذاباتهم إن تقاسموها مع بعضهم، ومن جملة هذه العذابات اليومية الملل. لذلك، تجدهم يتجمّعون ليتقاسموه جماعة ويتحمّلوه بقوة أكبر وضغط أقل. ومثلما أن حب الحياة هو الوجه الآخر لكراهية الموت، فإن النزوع الاجتماعي هو الوجه الآخر للخوف الشديد من العزلة. فالمرء ينجذب إلى معاشرة غيره بقدر ما يفر وينفر من وحشة العزلة. وبمقتضى هذه المعادلة، تغدو كل رفقة جيدة بحد ذاتها، ولو كانت من أسوإ الرفقات وأكثرها جلبا للمتاعب والاكراهات، مادامت تُبعد المرء عن شبح العزلة. مادامت تحقق له ذلك فإنه يتقبّلها بصدر رحب وسعة خاطر.

غير أنه عندما يشتد نفور المرء من معاشرة الناس فإنه لا يجد عزاءه الكبير إلا في العزلة إلى أن تغدو ضالته وملاذه لا يبغي عنها حولا ولا يرتضي بديلا. عندئذ، سيطيقها بكل يسر وسلاسة ولن يتحمل معاشرة غيره بالمرة. فمعاشرة الناس لن تعبر عن حاجة من حاجاته المباشرة والملحة بعد أن قطع شوطا في التعود على العزلة واستمراء أفضالها وتفيؤ ظلالها الوارفة وقطف ثمارها اليانعة.

3) هو ذا النص الكامل للحكمة المأثورة: في يوم ماطر، تجمّع قطيع من الخنازير من ذوي الجلد المشوك والواخز، ليحتكّوا ببعضهم درءا للبرد القارس. غير أهم سرعان ما تفطّنوا إلى أذى جلودهم الذي يُسبّب لهم ألما، فتفرّقوا وذهب كل واحد منهم إلى حال سبيله. وكلّما استشعروا الحاجة إلى تدفئة بعضهم البعض، تجمّعوا وتحاكّوا فيتكرر الأذى المؤلم نفسه. فوجدوا أنفسهم بين مطرقة البرد القارس وأذى الشوك الواخز إلى أن تفطّنوا إلى المسافة المناسبة بيّن أجسادهم فتحمّلوا بعضهم بعد زوال الأذى.

كذلك الأمر في عالم الناس، فهم يخرجون إلى هذا الوجود وهم بين فكّي كماشة الفراغ والرتابة الداخلية. وهذا يدفعهم دفعا إلى الاحتكاك ببعضهم حتى تُفرّقهم عيوبهم الكثيرة ومثالبهم التي لا تُحصى ولا تُطاق. واستمروا على هذا الوضع حتى اهتدوا إلى المسافة المناسبة التي يجب أن تفصل بين الأفراد ليتحمّلوا الحياة داخل الجماعة بأقل ألم وأدنى ضرر. وهذه المسافة هي اللياقة وأدب الاجتماع الإنساني. ففي إنجلترا مثلا، يصرخ الناس في وجه الشخص الذي لا يحترم هذه المسافة مع غيره قائلين بغضب: إلزَمْ حدّك!

على هذا النحو فقط بات الناس يتحملون بعضهم وهم يتدفّئون على نحو متبادل دون أن يكونوا ملزَمين بتحمّل الأذى الواخز الناتج عن تشوّكهم الذي هو عيوبهم ومثالبهم!

أما الشخص الذي يملك ما يكفي من السعرات الحرارية في ذاته ونفسه فإنه يُفضّل ألف مرة العيش خارج نطاق الجماعة كي لا يؤذي ولا يُؤذى.

4) يكشف الإحساس بالجسد مدى تعاسة البشر، كما أن اهتمامهم الدائم والزائد بما يفعله الغير يفضح وقوعهم تحت طائلة إحساس ساحق، ماحق بالملل.

5) النوم قطعة صغيرة جدا من الموت يقترضـــها منـــه. وبفضـــلها، يتمكّن المرء من العود المتجدد إلى الحياة في ظرف ليلـــة. النـــوم سُلفة يقترضها الإنسان من الموت، والنوم يقترض مـــن المـــوت حصته منه ليُحافظ بها على استمرار الحياة، أو بعبارة أخرى النوم هو الفائدة التي يؤديها المرء مؤقتا للموت، والموت هو التســـديد الكامل للدّين تجاه الموت. وطبيعي أن التسديد الكامل يتطلـــب مدة أطول كلما زادت قيمة الفائدة المستحقة له والتي يتوجـــب أداؤها بانتظام.

6) أنصحك في علاقتك بالناس أن تُطبِّق الحكمة المأثورة الآتية وأنت تُخاطبهم في قرارة نفسك: مـــا دُمـــتُ لا أســـتطيع تغـــييرهم فلأستعملهُم لِما يصلحون له!

7) هو ذا النص الكامل للحكمة التي لمّح إليها "شوبنهاور": صـــعبٌ محبة الأشخاص الذي نُكِنُّ لهم التقدير كما هو صعب محبّتـــهم أكثر مما نُحبُّ ذواتنا.

8) لو صحّ، جدلا، أن الخير يغلُب على الشر في النـــاس لقضـــت الحكمة بالتعويل على عدلهم وروح الإنصاف فـــيهم ووفـــاءهم ورحمتهم أكثر من التعويل على إحساسهم بخشية أو رهبة. لكن، مادام العكس هو الصحيح، أي التعويل، من النوع الثاني، فهـــو عين العقل ومناط الحكمة.

9) راجع تفصيلات أقوال الدكتور "جونسون" و"مـــيرك" صـــديق

"غوته" في فترة شبابه في كتابنا: العالم بما هو إرادة وتمثّل، الجزء 2، الفصل 19.

10) جُبل المرء على تسليم نفسه، طوعا، للإرادة، لأنها هي هو وهو هي. أما طاقته العقلية فهِبةٌ من السماء، هبة من ذلك القدر المقدور الأزلي والمُلغز الذي لا تعدو أُمّه التي ولدته أن تكون أداة طيعة بين يديه.

11) إن الصداقات هي الطريقة المثلى ليشق المرء طريقه في هذه الحياة. بالمقابل، ترفد القدرات الهائلة صاحبها بإحساس عارم بالفخر. لذلك، فهو لا يكيل المديح لعديمها أو لمن يملك أقل القليل منها. وهذا سبب كاف لكي يُخفيها عن أمثال هؤلاء، بل وأن يُنكر أصلا أنه يتوفر عليها. بالمقابل، ما أن يُدرك المرء بأنه يتوفر على قدرات محدودة ومتواضعة جدا حتى يكون ميّالا إلى خفض الجناح واللطف والمجاملات لأنها صفات "تعويضية" تساعده على إيجاد أصدقاء وحماة.

وهذه القاعدة لا تنسحب، فقط، على ما له صلة بوظائف الدولة بل تطال أيضا المناصب التشريفية ومواقع الوجاهة، بل وفي مجال تحصيل المجد في عالم العلم والمعرفة. وهذا هو السبب الذي يجعل الرداءة، في حدودها الدنيا، تحتل المراتب العليا والمواقع المتقدمة في الأكاديميات، إنه تجاسرها. في الوقت الذي لا تكاد تطأ فيه أقدام ذوي الاستحقاق هذه الأكاديميات إلا بعد فوات الأوان، هذا إن لم تطأها أبدا. تلك قاعدة سارية في كل مجالات الحياة وعالم الناس.

12) تلعب الصدفة دورا كبيرا جدا في مجريات الحياة. فحتى لو سعى الإنسان بكل قواه لدرء خطر يتهدده فإن هذا الخطر لن يبتعد

عن طريقه، بالأغلب الأعم، إلا بالصدفة أي بفضل طارئ غير متوقع في سيرورة الأحداث. ولن يعود الفضل في ذلك إلى تضحياته التي ليس لها إلا أن تذهب سدى.

لذلك، نصيحتي هي بعدم التعويل على حساباتنا وتقديراتنا الشخصية في كل ما له صلة بالمستقبل، والتعويل بالأحرى على ما تجود به الصدف والتحلي بما يكفي من الشجاعة لمواجهة كل الأخطار يحذونا الأمل الدائم بأنها لابد أن تبتعد عن سكتنا كما تنكفئ الأعاصير عائدة من حيث أتتْ!

الفصل السادس:

1) في النضج يشتد حذر المرء من الوقوع في الرزايا والتعرض لشتى الشرور بينما في شبابه يتعود على تحمُّلها بعد وقوعها.

2) العمر البشري في "العهد القديم" يتراوح بين 70 و80 سنة، وهو الشيء نفسه الذي قال به "هيرودوت". شخصيا، لا أتفق مع هذا الرأي الذي هو نتيجة لتصور سطحي وفجّ في تأول التجربة اليومية. فلو كان العمر البشري يتراوح بين السبعين والثمانين لقضى من استنفذه بفعل الشيخوخة، بيد أن الواقع يقول غير ذلك. فهؤلاء يقضون بسبب الأمراض أسوة بأسلافهم. وحيث أن المرض هو الشذوذ وليس القاعدة في حياة الإنسان فإن هؤلاء يقضون بسبب المرض والمرض ليس سببا طبيعيا. الموتة الطبيعية تكون ما بين 90 و100 سنة، ومن أدركه الموت في هذه الفترة فبسبب الشيخوخة لا بسبب المرض، يموت دون احتضار وبلا غرغرة ولا تشنجات، بل حتى بدون شحوب يكتنفه. بكلمة،

يموت موتة رحيمة. لذلك فالتعاليم اليوبانيشادية أصابت فيما ذهبت إليه من أن الأجل الأقصى للعمر البشري هو 100سنة واعتبرته أجلا طبيعيا.

3) مهما طال أجل المرء وامتد به العمر فهو لايملك، حقيقة، غير اللحظة، غير الزمن الحاضر يعيشه. الذكرى تتلاشى رويدا رويدا بفعل النسيان وتفقد راهنيتها وحضورها.

4) ستون كوكبا مجهريا هي التي حصل اكتشافها منذ ذلك التاريخ. ولا أجد في نفسي حماسة للحديث عن هذا المكتشف الجديد، لذلك سأضرب عنه صفحا أسوة بما فعله أساتذة الفلسفة في حقي. نقطة إلى السطر، لا أريد أن أعرف تفصيلات ذلك لأنها تضعني في حرج بالغ.

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef



منشورات ضفاف
Editions Difaf

فن العيش الحكيم

تأملات في الحياة والناس

أرتور شوبنهاور

«لا يكون المرء مطابقا لذاته إلا إذا كان بمفرده. لذلك، فالكاره للعزلة كارهٌ للحرية، إذ لا نكون أحرارا إلا في عزلتنا. فكل اختلاط بالناس يُلازمه الإكراه لزوم الظل لصاحبه، ويفرض على المُخالط تقديم تضحيات وتنازلات باهظة بمقاييس الميَّالين بطبعهم إلى الانفراد والعزلة، والمُشمئزِّين من المخالطة. لذلك، فقيمة الأنا وجودتها من عدمها تُقاس بالنفور من العزلة أو بتحمّلها بل الهيام بها. والهيام بها يتساوق مع الجودة العالية للأنا والشخصية. فالبائس يستشعر بؤسه، وبكل جوارحه، في عزلته التي لا يطيقها جرَّاء ذلك، كما يستشعر الراقي عظمته وسموه بكل جوارحه أيضا في وحدته. إن العزلة هي الميزان الذي تُقاس به جودة الأشخاص من عدمها. فبقدر ميل الشخص إليها، وعشقه لها، يكون أهلاً لأخذ مكانه في مَجْمع الرَّاقين وصفوة المُنْتجبَين. وإنها لمتعةٌ لا تضاهيها متعة أن يجمع الشخص بين العزلة الجسدية والعزلة الفكرية المتناغمتيْن أشد تناغم. وإن تعذَّر على هذه الطينة من الناس تحقيق هذا المطلب، فإنك تجدهم منزعجين بالغ الانزعاج لأن الظروف القاهرة أجبرتهم على معاشرة أناسٍ متبايني الطباع والميولات والمقاصد.»





تصميم الغلاف: يوسف ا